

لقد صدق الله محمدًا

جامعة الأزهر - كلية اللغة العربية
الزقازيق

التصوف المجازي والكنائي

منتدى سور الأزبكية

www.books4all.net

تحرير وتحليل

الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

مقدم التوزيع
مكتبة سعيد رافت
جامعة عين شمس

التصنيف المجازي والكناهي

تحرير وتحليل



تأليف

الدكتور محمد الزقازيق

جامعة الأزهر - كلية اللغة العربية
الزقازيق

الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

مركز التوزيع
مكتبة سعيد راقية
جامعة عين شمس

التصوير المجازى والكنائى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ
الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾

سُورَةُ الْعَلَقِ ١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين • نحمده على عظيم نعمائه وجميل بلائه
ونستكفيه نوائب الزمان ونوازل الحداث ونرغب اليه في التوفيق
والعصمة ونبرأ إليه من الحول والقوة ونسأله يقيننا يملأ الصدر
ويعمر القلب ويستولى على النفس • ونصلى ونسلم على أشرف خلق •
سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين • صلى الله عليه وعلى آله
وصحابه أجمعين •

(وبعد)

فان اللغة كالكائن الحي ترقى وتتطور من حين الى آخر • وقد
وجدنا لغتنا التي ارتبطت في نشأتها بالدلالة الحسية لم تجمد على
هذه الدلالة بل سرعان ما انتقلت الى الدلالة المعنوية مع ارتقاء العقل
ونزوعه الى عمليات التجريد الذهني •

والشاعر والأديب قد يجد في اللغة الحسية والمعنوية طلبته في
التعبير عن أغراضه وقد لا تفي الكلمات أحياناً بمضمرة نفسه
وهو اجس خياله فينزع الى وسائل البيان من تشبيه ومجاز وكفاية
كوسائط لابرار ما في نفسه وما يجول في خاطره • ومن هنا خاض
الشعراء والأدباء هذه الطرق في اتساع شامل وتمثلوها في تعابيرهم
المختلفة ومن ورائهم وقف العلماء يرصدون هذه الظواهر البيانية
منذ عصر تدوين المؤلفات العلمية في القرن الثاني الهجري •

وقد عرضت لظاهرتين من هذه الظواهر الأسلوبية وهما المجاز
النعوى والكنائية • فقد استحال بحوثهما غرباً منذ القرن الخامس
الهجري • حتى وجدنا هذا التراث العلمي الحافل بكثير من الآراء
والاتجاهات التي ان دلت على شيء فانما تدل على تلك القمم العلمية
الشامخة التي إعتبرت هذه اللغة جزءاً من عقيدتها • تزود عن حياضها

وتنقيها من الشوائب وتدفع اليها بكل همة وطاقة نتقوم منها معوجا
أو تزيل عنها لبسا أو تثبت لينة صالحة في صرحها الشامخ •

وفيما كتبه عبد القاهر وطبقه الزمخشري وخطه السيد الشريف
وسعد الدين التفتازاني والسكاكي وشراح التلخيص خير شاهد على
ذلك وإذا كانت بحوث البلاغة بعامة لها من الدقة والشفافية والعمق
والخصوبة فإن المجاز والكناية بخاصة من الأقطاب التي تدور عليها
البلاغة • والأعضاء التي تستند اليها الفصاحة على حد قول عبد القاهر
ولذلك توفرت عليهما • أبسط قضاياهما وأتبع أفكارهما بالعرض
والتحليل والمناقشة • دأب الفكر النظري بالتطبيق التحليلي فجمعت
بين أصالة العلم وطرافة التذوق والاحساس بالتعبير • متبعبا في
ذلك منهج البلاغيين المتذوقين لأنه - لعمرى - هو المنهج البلاغي السديد
الذي يجب أن تعود اليه البحوث البلاغية وأن تتجه اليه أقلامنا نحن
الباحثين وبذلك نرد للبلاغة ثوب الجدة والابتكار التي لبسته على يد
عبد القاهر والزمخشري وجرتها منه مدرسة المنطق والجدل الفلسفي
في القرن السابع وما تلاه • فنضع بذلك أقدامنا على طريق البعث
الحقيقي لحضارة هذا العلم الذي لا ترى علما هو أرسخ
أصلا وأسبق فرعا وأعلى جنى وأعذب وردا وأكرم نتاجا وأنور
سراجا من علم البيان الذي لولاه لم تر لسانا يحوك الوشى ويصوغ
الحلى ويلفظ الدر وينفت السحر ويقرى الشهد ويريك بدائع من الزهر
ويجنيك الحلو اليانع من الثمر •••••••••• (١) •

وقد استعنت بالله وبدأت في سبيل ذلك خطوة أرجو لها التوفيق
والسداد • وقد زاد من حماسي وألهب رغبتى لها ما قرأته من تلك
الصيحات والزعامات الباطلة التي يرددتها بعض الباحثين المحدثين حول
كلمة المجاز - بأنها في اللغة العربية موهمة وردئية وأنه يكتنفها
الترك والنسيان والاعغال • وأنها ممزقة الدلالة • وأن أصحابها
لا يستطيعون ضمها في بناء موحد وأن من الزعم الخاطى أن يتصور
امكان تصنيف المعانى المجازية أو الفصل بين مجاز المشابهة ومجاز

الحكم أو الكناية للتداخل المحير بينها والذي لا تنجو منه التحليلات
الشكنية فهي لا تخلو كذلك من إرداءة ••• (٢) •

فكان هذا البحث بمثابة الصواعق المرسلة على أمثال هذه الدعاوى
واجتثاثها من أصلها والقضاء الأضواء الهادية على الأصول التي بين
بها العلماء - المجاز - وأنواعه والفروق الأصلية التي وضعوها
للفرق بين هذه الأنواع حتى لم يعد هناك شيء رديء أو محير إلا في
تلك العيون المصابة بالرمد وقد تنكر العين ضوء الشمس من رمد أو
كما قال الآخر :

ومن يك ذا فم مريض يجد مرابه الماء الزلالا

وصدق الله العظيم إذ يقول : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما
ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال » (٣) •

وكان هذا البحث في أربعة عشر مبحثا وهي :

الأول : النظم والصور المجازية والكنائية • حررت فيه معنى
النظم وبينت أنه أساس التصوير المجازي والكنائي وأن جعل نظم
الحروف بمعزل عن مفهوم النظم خطأ في ضبط المعايير فالنظم يشمل
الكلمة في التأليف ونظم الحروف في الكلمة ودعمت هذه الوجهة بنظرات
العلماء كابن جني وتحليلات لبعض الآيات القرآنية •

الثاني : اللغة بين الحقيقة والمجاز • عرضت فيه للدلالة الوضعية
في اللغة وارتباطها بالمحسوسات وتطور هذه الدلالة بتقدم الزمن
والعلم والفكر وتطور الخيال وتولد المجاز في ظلال هذا التطور والمجاز
الذي لحق بالحقيقة والمجاز المبني على مجاز • وأن القول بوجود
الحقيقة والمجاز في اللغة وأنهما من وسائل التعبير هو الرأي المقبول
والمعقول •

الثالث : المجاز في اتجاهين • بينت أن فائدة الكلام تنبع من
الاسناد وضم الكلمات في تركيب خاص وأن التركيب قد يكون

(٢) ينظر الصورة الأدبية ٤/٥ د / مصطفى ناصف بتصرف •

(٣) الرعد ١٧ •

حقيقة وقد يكون مجازا وأن المجاز قد يتلقى من جهة العقل فيكون عقليا وقد يتلقى من جهة اللغة فيكون لغويا ثم عرجت الى بيان موقع الاستعارة من المجازين ووضحت معنى — النقل — فيها .

الرابع المجاز النغوى . أشرت الى معناه والى حد الاستعارة وتطور تعريفها حتى استقر في مدرسة المتأخرين وعرضت لقضية التشبيه البليغ والاستعارة وموقف عبد القاهر من هذه القضية من خلال مستويات أربعة أشار إليها ثم نبهت في ختام هذا الموضوع الى أمور مهمة .

الخامس : أشرت الى الأساس الذى وضعه عبد القاهر في بيان التصريحية والمكنية . وعرضت لأقسام التصريحية فتحدثت عن الأصلية وعمما يدخل في اطارها كاسم الجنس والأعلام المشتهرة بوصف والمصدر المؤول مع بيان الفروق البلاغية بين هذه الأسماء ثم عرضت فى اتساع شامل لبيان جمال التصوير بالاستعارة التصريحية الأصلية من خلال عرض نماذج تحليلية لصور من القرآن الكريم والسنة المطهرة والشعر . بمنهج فريد ودقيق . قام على تخير الأمثلة التى اتحد فيها اللفظ المستعار واختلفت دلالاته المجازية من تركيب لآخر أو اختلف اللفظ المستعار واتحدت دلالاته المجازية مع بيان فلسفة الاستعارة فى التركيب .

السادس : الاستعارة التبعية . أشرت الى معناها والى تحليل البلاغيين لكونها تبعية والأصل المتبوع فيها وارتضيت ما أشار اليه عبد القاهر من كون المصدر هو الأصل المقصود من الفعل . ثم عرضت فى اتساع شامل لفنونها وألوانها من خلال أقسام ثلاثة هى :

١ — الفعل .

٢ — الأسماء المشتقة .

٣ — الحروف .

مقتنيا منهج عبد القاهر فى العرض والتحليل والموازنة كما عرضت لصور تحليلية للفعل الواحد من خلال تراكيب مختلفة كأنفعل — نسلخ .

السابع : الاستعارة المكنية • بينت الفروق بينها وبين التصريحية كما ذكرها عبد القاهر وأشارت الى آراء العلماء في تحديدها ثم تطرقت الى جمال التصوير بها من خلال بسط الأمثلة وتحليلها في المقامات المختلفة • وبيان أقسامها •

الثامن : الأغراض هي الحاكمة بنوع المجاز وكانت هذه نتيجة لتحليل طائفة لا بأس بها من الأمثلة • وضحت من خلالها أن الغرض والسياق هما المشر الحقيقى لموطن المجاز ونوعه ودلالته وكان هذا أساسا لهدم مقولة بعض البلاغيين بإمكان نقل المجاز من الفعل أو من النسبة الى الفاعل •

التاسع : الاستعارة بين الترشيح والتجريد • أشرت الى أقسام الاستعارة من خلال هذه الأوصاف وأن أبلغها مرتبط بالمقام وذكرت أنواع الترشيح وقد أوصلتها الى ستة أنواع •

العاشر : الاستعارة التمثيلية • بينت معناها والأساس الذى تبني عليه • هل هو التشبيه التمثيلى أم التشبيه المركب ؟ وأثر هذا الاختلاف على بعض التراكيب مع تحليل صورها وبيان أقسامها وتطرقت الى بيان القرينة وأنواعها فى الاستعارات المختلفة •

الحادى عشر : الاستعارة بين الحسن والقبح • أشرت الى الشروط النصية التى وضعها البلاغيون لحسن الاستعارة والى الشروط النذوقية التى أشاروا اليها ضمنا فى تحليلاتهم لصور الشعراء المستحسنة والمعيبة •

الثانى عشر : تقسيمات المتأخرين فى الميزان • ناقشت هذه التقسيمات عند المتأخرين مناقشة موضوعية قامت على أصول نقلية وعقلية وتذوقية • وبينت الخطأ فى محاولة تحديد الجامع ومن ثم الخطأ فى تقسيم الاستعارة المبنية على هذا التحديد ورددت كثيرا من هذه التقسيمات الى موطنها من فكر عبد القاهر •

الثالث عشر : المجاز المرسل • أشرت الى الفرق بينه وبين مجاز المشابهة واختلاف البلاغيين حول حصر علاقاته ثم عرضت لبعض

علاقاته بعرض الأمثلة وتحليلها وبيان الأوجه المختلفة التي يمكن أن تخرج عليها بعض الأمثلة • كما عرضت لصور من أقسامه •

الرابع عشر : الكناية • قدمت لمحة تاريخية عن بحوثها وظهور مصطلحها وأشرت الى اختلاف البلاغيين حول كونها حقيقة أو مجازاً أو واسطة • وهل تحتاج الى قرينة مانعة أم لا ؟ كما أشرت الى الفرق الجوهرى بينها وبين المجاز من خلال عرض بعض النماذج وأشرت الى أقسامها الثلاثة اشارة مجملة ثم عرضت نماذج لتراكيب كنائية متعددة من القرآن الكريم والسنة المطهرة والشعر مع تحليلها وبيان الظواهر الكنائية المختلفة •

فهذا هو عملى الذى رصدت له همتى ووقتي ومالى فان أصبت به خيراً فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وان كانت الأخرى فحسبى أننى اجتهدت وأفدت ولن يحرم المخطيء من الأجر وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب • ربنا لا تزع قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه وأن ينفع به • انه أكرم مسؤل وخير مأمول •

١٥ من شعبان ١٤٠٨ هـ

كفر جبارة • فاقوس • شرقية فى :

٢ من أبريل ١٩٨٨ م

دكتور

صلاح الدين محمد غراب

النظم وصور المجاز والكناية

من المعلوم أن بناء الجملة واتساق أجزائها من الدقائق الأسلوبية والفنون البلاغية التي يحتاج الى معرفتها المتكلم للابانة عن معناه والافصاح عن مشاعره واحساساته • وتخير الدلالات المختلفة من حيث الوضوح والخفاء الفني تحتاج الى دربة وممارسة ومعرفة بالأصول التي وضعها العلماء في هذا الباب • وتعتبر فكرة النظم من أهم هذه الأصول •

ومن الواضح أن ألفاظ اللغة تعتبر المادة الأولى التي يتعامل معها المتكلم والأديب وينقل من خلالها هواجس نفسه وما يختلج في صدره وما يجول في ضميره ولكنّه لا يستطيع ذلك من خلال القوالب اللغوية المفردة الا اذا وضع هذه القوالب في تأليف ونظمها في سالك خاص من التصوير يناسب مقتضى الحال والغرض المقصود من الكلام • وبذلك يعطى التركيب الثمرة المرجوة من بنائه • وتفوح الدلالات الجديدة بعطائها الفريد من هذا الوضع السياقي • بمراعاة قوانين النظم انذى ضبطه عبد القاهر بقوله : (واعلم أن ليس النظم الا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه على النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف منهاجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها وذلك أننا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه فينظر في الخبر الى الوجوه التي تراها في قولك • زيد ينطلق وينطلق زيد ومنطلق زيد (•••••) (١) •

وقد أخذ عبد القاهر في بسطها وتحليلها تطبيقاً على الوحدات المكونة للكلام من الحروف والأسماء والأفعال وبين الفروق التي تعرض

تبعاً لتغير معرض الكلام • كالشرط والجزاء وجملة الحال واقترانها بالواو والضمير وفي الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل حرف بخصوصية معينة مثل — ان واذا وما ولا وكذلك حروف العطف كالواو والفاء وثم وحق الجملة من حيث وصلها وفصلها والكلمة من حيث التعريف والتنكير والتقديم والتأخير والذكر والحذف وغير ذلك من الخصوصيات التي يتطلبها نظم الكلام حسب الأغراض التي تؤم •

وإذا كان النظم يقوم على توخي معانى النحو وأحكامه فليس المراد الخضوع للصحة الاعرابية التي تتطلبها انقاعة النحوية فقط وإنما يعنى أيضاً أن التركيب في أساسه بناء منظم يجمع بين الصحة الاعرابية والاحساسات النفسية • فالألفاظ التي توجد في النفس أولاً هي التي ينبغي أن تكون كذلك في النطق • فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق (٢) •

ومن هنا تبرز مقدرة الأديب في استخدام اللفظة الدالة في سياقها والتي هي أصح بالمعنى وأكثر منه وأحرى بأن تكسبه نبلا وتظهر فيه مزية •

فإذا كان التصوير بعامة يحتاج الى هذه الدقة في استخدام الكلمات فإن المجاز والكناية على وجه خاص يحتاجان الى مراعاة هذه الأصول لتظهر بلاغة الكلام وروعة التصوير •

وقد أبان عبد القاهر عن ذلك من الوجهة التحليلية لكثير من النصوص الشعرية والآيات القرآنية • وأشار هنا الى شيء من هذا المنهج التحليلي • لأنه الطريقة التي نعتمدها في تحليل الصور البلاغية

قال الامام « وان أردت مثالا فخذ بيت بشار » •

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كوالبه وأنظر هل يتصور أن يكون بشار قد أخطر معانى هذه الكلم بباله أفرادا عارية من معانى النحو التي تراها فيها وأن يكون قد وقع — كأن — في نفسه من غير

أن يكون قد أراد أن يضيف فوق الى الرؤوس وفي الأسياف من دون أن يكون أراد عطفها بالواو على — مثار — وفي الواو من دون أن يكون أراد العطف بها وأن يكون كذلك فكر في — الليل — من دون أن يكون أراد أن يجعله خبرا لـ — كأن — وفي تهاوى كواكبه — من دون أن يكون أراد أن يجعل تهاوى فعلا للكواكب ثم يجعل الجملة صفة لليل ليتم الذى أراد من التشبيه • أم لم تخطر هذه الأشياء بباله الا مرادا فيها هذه الأحكام والمعانى التى تراها فيها (٣) » •

فناه يشرح نظم هذه الصورة وفق معانى النحو • تلك المعانى التى قصد اليها الشاعر قصدا حيث كان وراء كل كلمة احساس نائر ظهر فى تأليف هذه اللبنيات على هذا الوضع المخصوص الذى أدى الى نمو الصورة وتكاملها وانصهار لبناناتها فى قائب واحد حتى أصبح البيت بأسره كأنه كلمة واحدة • كما لفت الى عنصر الحركة فى معرض الموازنة بينه وبين غيره مما اتفق معه فى الغرض العام • فقد امتاز بيت بشار بالتفصيل الدقيق لحركة السيوف • وهى مصوبة • صاعدة • ويختلط بعضها ببعض وتتلاقى فى الضرب فتنتنى وتستقيم • ودل على ذلك بالفعل — تهاوى — وبذلك أحكم الابانة عن مكونات الهيئة • ألوانا وأجساما وحركات •

وكذلك فى قول ابن المعتز :

سالت عليه شعاب الحى حين دعا

أنصاره بوجهه كالدنانير

فليس الحسن فى ذات الاستعارة أى استعارة السيل للسير وانما لدقة النظم الذى شفعت به الاستعارة من التقديم والتأخير وايتثار كون انجار — عليه — دون اليه • لدلالته على الكثرة والازدحام والتتابع نحوه من كل مكان حتى يغص بهم الوادى ، وذلك يشير الى أنه مطاع وطاقتهم له عن أريحية لا عن قسر واكراه • يفصح بذلك التشبيه فى عجز البيت الذى يدل على أن وجوه القوم يعلوها الاستبشار والنصرة والاشراق بمجرد سماع دعوته •

قال « فأنك ترى هذه الاستعارة على لطفها وغرابتها انما تم لها
الحسن وانتهى الى حيث انتهى بما توخى في وضع الكلام من التقديم
والتأخير وتجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومساوخته لها وان
شككت فاعمد الى الجارين والظرف • فأزل كلامها عن مكانه انذى وضعه
الشاعر فيه فقل — سالت شعاب الحى بوجوه كالدفانير عليه حين دعا
أنصاره — ثم أنظر كيف يكون الحال وكيف يذهب الحسن والحلاوة
وكيف تعدم أريحيته التى كانت وكيف تذهب النشوة التى كنت
تجدها ؟ (٤) •

وكذلك فى قوله :

وانى على اشفاق عينى من العدى

لتجمع منى نظرة ثم أطرق

فالشاعر جعل النظرة تجمع جموح الفرس الشارد على سبيل
الاستعارة المكنية وليس فى ذلك هو سبب الحسن فحسب وانما أيضا
لما توخاه فى نظم البيت من الدقائق الأسلوبية كالتأكيد فى أوله — وانى
وفى وسطه باللام — لتجمع — لدلالته على امتلاء نفسه وقوة احساساته
بهذا المعنى الذى يبوح به وأنه معنى ثابت لا يتطرق اليه شك على
الرغم من المحاذير التى يخشاها من الأعداء ثم يؤكد صدور النظر منه
بقوله — منى — وينكر فاعل الجموح — نظرة — للإشارة الى أنها
نظرة ملتاعة شرود • غريبة • يجتهد فى كبها فترة • لا يستطيع بايزائها
الا الاطراق • كما يفعل المغلوب على أمره •

وعلى هذا انحو مضى يحلل أبيات كثير :

« ولما قضينا من منى كل حاجة »

تلك الأبيات التى لم تعجب ابن قتيبة ولكنه أبان كيف كان الشاعر
بصيرا بصنفته بارعا فى نظمه حيث عبر فى الشطر الأول عن قضاء جميع
المناسك الفرضية والنفلية بطريق الايجاز وهو طريق العموم ثم وصل
بذلك الشطر الثانى الذى أبان به عن آخر فعل المناسك وهو الطواف
ودليل الأخذ فى السير الذى هو مقصوده من الشعر ثم كان البيت

الثانى الذى يمثل آلة السير • ولم يكن له بعد ذلك الا ذكر ما تطيب به نفوسهم ويقوى به نشاطهم فقال — أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا — فدل على تصرفهم فى القول وشجون الحديث كما هى العادة فى الأتس بالأحباب والاعتباط لقضاء حق الله فى العبادات • كل ذلك قدمه عبد القاهر بين يدي الاستعارة فى قوله — وسالت بأعناق المطى الأباطح — ولم يجعلها هى محط الإعجاب بل جعلها متممة لتلك البسط القشبية التى بسطها انشاعر وهياً بها الأسلوب للاستعارة فقال « ثم زان ذلك كله باستعارة لطيفة طبق فيها مفصل التشبيه وأفاد كثيرا من الفوائد بلطف الوحي والتنبيه فصرح أولا بما أوما إليه فى الأخذ بأطراف الأحاديث من أنهم تنازعوا أحاديثهم على ظهور الرواحل وفى حانة التوجه الى المنازل وأخبر بعد بسرعة السير ووطأة الظهر اذ جعل سلاسة سيرها بهم كالماء تسيل به الأباطيح وكان فى ذلك ما يؤكد ما قبله لأن الظهور اذا كانت وطيفة وكان سيرها السير السهل السريع زاد ذلك فى نشاط الركبان ومع ازدياد النشاط يزداد الحديث طيبا ثم قال بأعناق المطى ولم يقل بالمطى لأن السرعة والبطء يظهران غالبا فى أعناقها ويبين أمرها من هواديهما وصدورها وسائر أجزائها تستند اليها فى الحركة وتتبعها فى الثقل والخفة » (٥) •

وبمثل هذه النظرات الثاقبة تتناول أسلوب الكناية • التى تدل على معنى أول وهو المفهوم من ظاهر ألفظ وعلى معنى ثان وهو يفهم بوساطة المعنى الأول وطالب بأن تكون دلالة المعنى الأول على الثانى دلالة سافرة لا غموض فيها ولا ايهام • وأى خلل يصيب هذه السفارة فانه يقعد الصورة عن بلوغ مرتبة البلاغة ولذلك عاب قول انعباس ابن الأحنف :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا

وتسكب عيناي الدموع لتجمدا

لأنه كنى أولا بسكب الدموع على ما يوجبه الفراق من الحزن والكمد فأصاب ولكنه تعثر فى صياغة الكناية الثانية فقد أراد أن يبنى

على ما يوجبه دوام التلاقي من السرور بقوله — لتجمدا — وذلك لخطئه في معرفة دلالة الجمود فظنه خلو العين من البكاء وانتفاء الدموع عنها ولكن الجمود أن لا تبكى العين مع أن الحال حال بكاء وهذا المعنى يدل على شدة الحزن وبخل العين بالدمع وليس على السرور كما توهم الشاعر وبذلك لم تفصح الدلالة الأولى على الثانية ولم تسفر عن مقصوده فوقع في شرك التعقيد •

وذلك يدل دلالة قاطعة على أن استخدام الكلمات في نظم الصور وبخاصة الصور المجازية والكنائية يحتاج الى بصر شديد بدلالة الكلمة وأدائها للمعنى المراد بوضوح حتى لا تكون غريبة في سياقها • نابية في تركيبها •

وعبد القاهر بهذا الاتجاه يركز على الكلمة وقد انخرطت في سلك التأليف فيقول : (وهل تجد أحدا يقول هذه اللفظة فصيحة الا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها وهل قالوا لفظة متمكنة ومقبولة وفي خلافة قلقه نابية ومستكرهة الا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها وبالقلق والبنو عن سوء التلاؤم وأن الأولى لم تلق بالثانية في معناها وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقاً للتالية في مؤداها) (٦) •

وأما بالنسبة لنظم الحروف فلم تنل عنده من الدقة والاحكام ما نالته الكلمة لأنه يرى (أن نظم الحروف هو تواليا في النطق فقط وليس نظمها • بمقتضى عن معنى ولا الناظم لها بمقتضى في ذلك رسما من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه • فلو أن واضع اللغة كان قد قال — ربض — مكان ضرب لما كان في ذلك ما يؤدي الى فساد •

وأما نظم انكلم فليس الأمر فيه كذلك لأنك تقتفى في نظمها آثار المعاني وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس فهو اذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء الى الشيء كيف جاء وانتفق) (٧) •

(٦) دلائل الاعجاز ٨٨ •

(٧) المرجع السابق ٩٣ •

ولكنى أرى أن نظم الحروف لا يقل جمالا ودقة عن نظم الكلم وأن الجوانب المعنوية التى يراها عبد القاهر غير مرعية فى نظمها هى جوانب حية ينظمها العقل وترجيها النفس اذا روعيت الدقة الفنية فى تأليف الحروف على وفق المعانى قوة وضعفا وذلك أن الحروف لها مخارجها وهذه المخارج تتفاوت فى صفاتها من حيث الهمس والرخاوة والشدة والجهر وما الى ذلك • والمتكلم البليغ هو الذى يراعى هذه الصفات فى التعبير عن المعانى المقصودة وقد أشار ابن جنى الى هذه القيمة الصوتية للحروف وأثرها فى اثراء المعانى وبلاغة التعبير فى باب — تصاقب الألفاظ لتصاقب المعانى فالأز — مثلا فى قوله تعالى : **« ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا »** — أقوى من — الهز لأن الهمزة أقوى من الهاء فخص المعنى القوى بالحرف القوى وخص المعنى الضعيف بالحرف الضعيف كما قوله تعالى : **« وهزى اليك بجذع النخلة »** •

يقول ابن جنى : (ولكنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من الهاء وهذا المعنى أعظم فى النفوس من الهز لأنك قد تهز ما لا بال له كجذع وساق الشجرة ونحو ذلك) (٨) •

وكذلك الألف والسين والتاء الدالة على الطلب فى استفعل مثلا بقول : (فهذا من اللفظ وفق المعنى الموجود هناك وذلك أن الطلب للفعل والتماسه والسعى فيه والتأنى لوقوعه تقدمه ثم وقعت الاجابة اليه • فتبىح الفعل السؤال فيه والتسبب لوقوعه فكما تبعت أفعال الاجابة أفعال الطلب كذلك تبعت حروف الأصل الحروف الزائدة التى وضعت للالتماس والمسألة) (٩) •

وكان نظم الحروف فى مثل هذه الصيغة يرسم صورة للطالب والمطلوب بداية بالطلب ونهاية بالاجابة • فهذه الحركة التى يتبع فيها المتبوع تابعة كانت صدى لنظم الحروف • وعندما تصدر الصيغة دالة على فعل الانسان نفسه فانه يلاحظ فيها أيضا معنى الاجتهاد

(٨) الخصائص ١٤٦/٢ •

(٩) المرجع السابق ١٥٤/٢ •

والحركة الدائبة التي تدل على نفس قوية مدفوعة لتحقيق مطلوبها كما في قوله تعالى: « **لَسْتَ تَوَدُّ نَارًا — وَاسْتَفْسِحُوا ثِيَابِهِمْ** » • وتضعيف الحروف يدل على مضاعفة المعانى • فاذا كانت الألفاظ أدلة على المعانى فى النفس • فان قوة هذه المعانى النفسية تكشف عنها الحروف وذلك بتضعيفها كما فى — غلق — وقطع •

(فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فببأب عظيم واسع ونهج متلئب عند عارفيه مأموم وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها فيعدلونها بها ويحتذونها عليها وذلك أكثر مما نقدره وأضعاف ما نستشعره) (١٠) •

ومن ذلك قولهم • نضح ونضح للماء ونحوه • جعلوا الحاء لرقنتها للماء الضعيف والخاء لغلظها لما هو أقوى منه كما قال تعالى: « **فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَاجَتَانِ** » •

وأوضح ما تكون بلاغة نظم الحروف وقيمتها الصوتية فى القرآن الكريم اذ نجد أن الحروف عبارة عن ريشات مصورة للمعانى وبذلك وبذلك ترسم الكلمة المعنى حركة وصوتا ليتسق مع الغرض العام فى انسياق ففى قوله تعالى: « **يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا** » نجد أن كلمة — الدع — ترسم بنظم حرف الدال مع العين الصوت الذى يخرج من الانسان عندما يدفع بشدة فى ظهره وذلك يوحى بأنه دفع شديد يحصل به الألم الذى لا يجد المتألم حيا له الا أن يفتح فاه ليخرج هذا الصوت الذى هو مظهر الشدة والألم معا ولو عبر عنه بالدفع مثلا لأفاد الشدة فقط وربما فهم أنها شدة محتملة ولكن مجيء النظم القرآنى على هذه الحروف خاصة ليبرز ألمهم وعويلهم وأنه ألم فاضح لأصحابه • فهم لا يستطيعون كتمانها •

وبعد صيرورتهم فى النار • جاء التعبير عن أصواتهم بلفظ أطول وحروف أكثر كما فى قوله: « **وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا** » فنجد هنا قوة فى الحروف وتثاقل فى النطق مع طول الكلمة لأنها تعبر عن أصواتهم الغليظة

المتجاوبة من كل مكان بعد أن استتقروا في نزلهم • فلما طال مكثهم
وطال عويلهم طال نظم حروف الكنمة المعبرة عن ذلك •

كما جاءت كلمة — فككبوا فيها هم والعاوون — معبرة بحروفها
عن صوت القائهم في جهنم أصدق تعبير • فحرف الكاف مع الباء
وتكريرهما يشيران الى الصوت الصادر من القائهم على غير نظام
كما تلقى الأشياء المهمة بغير عناية وفي ذلك اهدار لكرامتهم
وامتهان لآدميتهم •

وقوله تعالى : « أنلزمكوهما وأنتم لها كارهون » نجد أن طول
الكلمة مع كثرة حروفها وترابط أجزائها مقصود للمعنى المراد لأنها
تعبر عن الالزام بالشرع والعمل بالتكليف ما حبي الانسان • وهذا فيه
من المشقة والثقل على النفس ما فيه وبخاصة للكارهين • ثم ان هذه
المشقة مستمرة مع رحلة الانسان ومرتبطة به طوال حياته •

فكل هذا كان صدى لنظم الحروف في الكنمة وأنه نظم اقتضاه
المعنى المقصود من التركيب وأن دقة نظم هذه الكلمات وما فيها من
جمال إنما كان منبعا تكوينها من هذه الحروف المقصودة وما فيها
من قيم صوتية متميزة • ولذلك كان قول عبد القاهر (لا نعلم لتعادل
الحروف معنى سوى أن تسلم من نحو ما تجده في بيت أبي تمام كريم
متى أمدحه أمدحه والورى معى ٠٠٠٠٠) (١١) قولاً يحتاج الى تحرير
وضبط •

وبذلك يتكامل موضوع النظم من ناحيتى تعديل الحروف في الكلمة
وتعديل معانى الكلمات في التأليف ليصبح ذا أثر قوى في دقة التصوير
وجماله وبخاصة في المجاز والكناية • وسنكشف عن كثير من خصائصه
ودقائقه في عرض الأمثلة وتحليلها وموازنتها في أبوابها ان شاء الله تعالى

اللفة بين الحقيقة والمجاز

من الثابت أن اللغة قد ارتبطت في طورها الأول بالدلالات الوضعية والمعاني المحددة الثابتة ولكنها كالكائن الحي • لا يثبت على حال ولا يستقر في مكان • فسرعان ما شملتها سنة التطور تلبية لحاجة الانسان •

وان المتتبع لتطور دلالة الكلمات يدرك أن الكلمة لم تستقر على المعنى الذي ارتبطت به أولاً بل انتقلت الى مجال آخر تتولد منها دلالات جديدة ولهذه الانتقالات أسباب لغوية وتاريخية واجتماعية ونفسية والتطور الدلالي الذي يعنى تغيير معانى الكلمات ظاهرة شائعة في جميع اللغات •

(ولقد أورد المحدثون أمثلة كثيرة لتطور الدلالة في مختلف اللغات ولاحظوا أن هذا التطور غالباً ما يكون في الانتقال من المحسوسات الى المعنويات) (١) •

ومع اعتراف القدماء بهذا التطور فقد قصره على حقبة زمانية عرفت بعصور الاحتجاج ورفضوا الاستعمال الجديد لأنه لم يؤثر عن العرب الذين يحتج بهم وسموه مولداً ولكن هذا الموقف لم يؤثر على الحركة الدائبة لتطور الألفاظ لأنه مواكبة طبيعية لنمو اللغة واتساعها • من دائرة المحسوسات الى المعقولات • فالانسان الأول قد وجد طلبته في لغته الحسية التي كانت وسيلته الأولى للادراك فقد كان (يعانق الأشياء التي يحسها فقط • ولا يتسع ذهنه الى شيء غير ما يراه ويحسه حتى الخرافة كان لا يستوعبها ادراكه ثم بعد ذلك بدأ ينساب شعاع المعرفة من وراء هذه المحسوسات ويشق طريقه في اعياء وتباطؤ شديد الى عقل الانسان وبعد زمن متطاوّل بدأ

الإنسان يجرد المعانى ويستخلصها من الأشياء وبدأ الإدراك الذهني وسيلة ثانية من وسائل المعرفة وبدأت اللغة المجردة في أثر ذلك وانتزعت الكلمات من الصور والأجسام لتتمحض للدلالة الذهنية وحين نتأمل أكثر كلمات اللغة وتراجع أصولها واستعمالاتها نجد الدلالة الحسية كامنة هناك (١) •

فمع التقدم الزمني والعلمي والفكري والأدبي اتسع أفق الإنسان وخياله وعمق وجدانه بالأشياء وزادت معرفته بعلاقات التشابك بين الأشياء فأراد أن يعبر تعبيراً مبيناً عن مضمرة نفسه وهو اجسده وتطلعاته الروحية والوجدانية فلم تسعفه تلك التعبيرات الحسية المحدودة فهي تغل خياله وتحطم آماله • فاصطنع تلك التصويرات الكاشفة التي تدنى له ما التبس في غوامض النفس وتطلق العنان ليتوالت فيها الخيال • وهكذا تولدت صور التشبيه والمجاز والكناية •

وبذلك أصبحت الكلمات لها مسارب جديدة • فالشمس والقمر والنجوم وغيرها لم تعد مقصورة على تلك الدلالات الوضعية كأجرام سماوية وإنما أصبح لها وضع آخر في تصوير ما يعترى الإنسان من الأوس والبهجة والأشراق وعمومية النفع • وكذلك الحال في الأفعال كقطع — نزع — قذف — فقد تحركت من المجال الوضعي الى مجال آخر والأمر كذلك في الحروف مثل — على — في — اللام • وسيتضح ذلك في الحديث عن مجازها •

وفي مجال هذه الانتقالات نجد أن هناك الكلمات التي لها أصالة المنبت وقوة النجار تحتفظ بهذه الأصالة ولا تذوب مع هذه الأفرات الجديدة وتوسم في هذا الوضع الجديد بأنها مجاز وفي الاستعمال الأول حقيقة •

وهناك الكلمات التي تنتقل من الأصل الذي ولدت فيه الى مكان آخر على سبيل التجوز ولكن بكثرة الاستعمال تصير بمنزلة الحقيقة كما

في كلمة — المخاض — فهي موضوعة في الأصل لتحريك سقاء اللبن وهزه
ليجتمع زبده وسمنه ثم استعملت في مخاض المرأة اذا تحرك الولد في
بطنها للخروج وصار حقيقة في ذلك .

وكلمة — الاستطراد — أصلها في الصائد الذي يعدو وراء صيده
فيعلن له صيد آخر فيترك الأول الى الثاني ثم استعملت في الانتقال
من كلام الى آخر على سبيل الحقيقة .

وكلمة — المناقشة — أصلها في انتزاع الشوك من الجسد ثم
استعملت في مجازيات الحديث وانتزاع الكلمات تعبيراً عن الآراء .

وهناك الكلمات التي لا تثبت في هذا الوضع الجديد بل تنتقل
الى وضع آخر تكون فيه مجازاً ومن هنا يتولد نوع من المجاز
هو المجاز المبنى على مجاز آخر كما في قوله تعالى : « ولكن
لا تواعظوهن سرا » فان الوطاء يتجاوز عنه بالسرا لأنه لا يقع غالباً
الا في السر فلما لازم السر في الغالب سمي سرا ويتجاوز بالسرا عن
العقد لأنه سبب فيه فالمصحح للأول الملازمة والمصحح للثاني المسببية .
وعرفه العز بن عبد السلام بقوله — هو أن يجعل المجاز المأخوذ عن
الحقيقة بمثابة الحقيقة بالنسبة الى مجاز آخر فيتجاوز بالمجاز الأول
عن الثاني لعلاقة بينه وبين الثاني (٣) .

وعلى كل فان الحقيقة هي الأصل في سوق الأفكار والعواطف .
فاذا كان التعبير بها وافياً بالعرض المقصود كان العدول عنها ضرباً
من العبث ترفضه الأذواق البليغة لأن مبنى الكلام على الفوائد
وإذا وجد المتكلم أن هذه الفوائد تعظم كلما توافقت الخيال المبدع
الذي يتجاوز منطقته الحقيقة الى دائرة الدمج والاتحاد فان ذلك يعطيه
الرخصة في البناء المجازي الذي يفى بغرضه . فليس المجاز حليلة
أسلوبية وانما هو غرض يقتضيه المقام وتتبناه الضرورة وأعجب ما في
العبارة المجازية أنها تنتقل انسامع عن خلقه الطبيعي في بعض
الأحوال حتى انها ليسمح بها البخيل ويشجع بها الجبان ويحكم

بها الطائش المتسرع ويجد المخاطب بها عند سماعها نشوة كنشوة الخمر حتى اذا قطع عنه ذلك الكلام أفاق وندم على ما كان منه من بذل مال أو ترك عقوبة أو اقدم على أمر مهول وهذا هو فحوى السحر الحلال المستغنى عن القاء العصا والحبال (٤) •

وإذا كان أسلوب الحقيقة يقف بالمعنى عند حد معلوم فإن المجاز يضيف على المعنى عمقا بوساطة المد التخيلي للمجاز إذ أن هناك فرقا بين قولنا — رجل هو سيد قومه — وبين قولنا عنه — قرم — فإن العبارة الأولى تقف عند حدود الصياغة الحقيقية بينما تتجاوز الثانية المدلول المباشر الى هيمنته وقوته وكرمه ووقاره وبذلك تنطلق النفس في رحاب المجاز تتلمى كل المعانى التى يمكن تصورها ولذلك قال العلوى — اذا عبر باللفظ الدال على الحقيقة حصل كمال العلم به من جميع وجوهه واذا عبر عنه بمجازه لم تعرف على جهة الكمال فيحصل مع المجاز تشويق الى تحصيل الكمال (٥) •

ولذلك كان للمجاز — أثر جليل فى اتساع العربية ونموها وقدرتها على التعبير على المعقولات المحضة ومعنويات الأمور ••• وبفضل المجاز والنقل اتسعت اللغة العربية للعلوم والفنون على اختلاف أنواعها وللحضارة على كثرة مظاهرها (٦) •

وإذا كان المجاز له هذا الثراء فهل يعنى ذلك أنه أبلغ من الحقيقة ؟ قال البلاغيون ما يوهم ذلك بقولهم — قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الافصاح والتعريض أوقع من التصريح وأن للاستعارة مزية وفضلا وأن المجاز أبدا أبلغ من الحقيقة (٧) وبمثل ذلك قال الخطيب فى الايضاح وابن رشيق فى العمدة •

والواقع أن قولهم — أبلغ — من بلغ يبلغ بلوغا لا من بلغ يبلغ بلاغة إذ البلاغة هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته واذا كان

(٤) المثل السائر ٣٩ •

(٥) الطراز ١/٨٢ •

(٦) فقه اللغة ٢٩ •

(٧) دلائل الاعجاز ١٠٩ •

الأمر كذلك فإن الحقيقة تشارك المجاز من جهة البلاغة وأما من جهة المبالغة فإن المعول عليه في ذلك هو المقام والمقتضى وبذلك تكون الحقيقة في مكانها أبلغ من غيرها كما أن المجاز في مقامه أبلغ من غيره فالمسألة إذن ليست في ذاتية التعبير وإنما هي في مناسبة التعبير لمقتضى الحال وبذلك تسير الحقيقة مع المجاز في أن كليهما من وسائل التعبير الفني وبكل جاء كتاب الله عنوان الإعجاز والسنة المطهرة والأدب •

والقول بأن اللغة حقيقة ومجاز هو القول المقبول والمعقول ولم يكن هذا موضع اجتماع من العلماء وبخاصة ما يتصل بالقرآن الكريم فقد اندفع علماء الظاهرية إلى إنكار المجاز في القرآن بحجة — أن المجاز أخو الكذب والقرآن منزّه عنه وأن المتكلم لا يعدل إليه إلا إذا ضاقت به الحقيقة فيستعير وذلك محال على الله تعالى (٨) •

واندفع فريق آخر إلى إثباته كأهل السنة والمعتزلة والأشاعرة فقد رأوه طريقاً من طرق التعبير البليغ ومظهراً من مظاهر الأثر اللغوي الذي يتم به اشباع رغبة المتكلم في الإبانة عن أحاسيسه وانفعالاته ولذلك قال ابن قتيبة — لو كان المجاز كذباً لكان أكثر كلامنا فاسداً لأننا نقول نبت البقل وطلت الشجرة (٩) •

وقال عبد القاهر (ومن قدح في المجاز وهم أن يصفه بغير الصدق فقد خبط خبطاً عظيماً ويهدف لما لا يخفى ولو لم يجب البحث عن حقيقة المجاز والعناية به حتى تحصل دروبه وتضبط أقسامه إلا للسلامة من مثل هذه المقالة والخلص مما نحن نحو هذه الشبهة لكان من حق العاقل أن يتوفر عليه ويصرف العناية إليه فكيف وبطالب الدين حاجة ماسة إليه من جهات يطول عدها) (١٠) •

وقد فرق البلاغيون بين المجاز والكذب بأن المتجاوز متأول في كلامه على أساس العلاقة الواصلة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي

(٨) الاتقان ٣٦/٢ •

(٩) تأويل مشكل القرآن ٩٩ •

(١٠) أسرار البلاغة •

ومقيم القرينة التي تعين مراده من التعبير دون تمويه أو خداع •
وذلك يطبع مجازه بطابع الصدق الفني والجمال الأسلوبى •
وأما الكذب فليس فيه تأول والكاذب يصرف همته الى اثبات شىء غير
ثابت أصلاً وليس فيه علاقة ولا قرينة هادية وانما هو أسلوب
يقوم على فوضى المعانى وعبث الألفاظ ولا مكان له فى دائرة البيان
الساحر • وذلك بخلاف الكذب فى الصيغة الشعرية • فقد استحسنه
البلاغيون لأن أساسه التخيل والمبالغة • وقد أبان عبد القاهر
عن المذهبين — خير الشعر أكذبه — و — خير الشعر أصدقه — وقال —
والأول أولى لأنهما قولان يتعارضان فى اختيار نوعى الشعر • فمن
قال — خيره أصدقه كان ترك الاغراق والمبالغة وانتجوز الى
التحقيق ••••• ومن قال — خيره أكذبه — ذهب الى أن الصنعة انما يمد
باعها وينشر شعاعها ويتسع ميدانها وتتفرع أفنانها حيث يعتمد
الاتساع والتخيل ويدعى الحقيقة فيما أصله التقريب والتمثيل
وحيث يقصد التلطف والتأويل ويذهب بالقول مذهب المبالغة
والاغراق (١١) •

وأشير الى أن المثبتين المجاز فى القرآن الكريم لم يكونوا على درجة
واحدة فى القول بالمجاز فيه • فالمعتزلة كانوا يرون أن للفظ دلالتين •
الأولى وهى عبارة عن المعنى الظاهر المكشوف الذى تستتر تحته
الدلالة الثانية وهى المجاز كما فى قوله تعالى : « **يد الله فوق
أيديهم** » فالمعنى الأول هو الجارحة والنشأنى القدرة وهو المعنى
المجازى •

وأما أهل السنة فيرون أن له يدا لا كالأيدى • فاللفظ مستعمل فى
غير ما وضع له ولكنهم لم يصلوا الى المعنى المجاز الذى وصل اليه
المعتزلة ونظيره قوله تعالى : « **كل شىء هالك الا وجهه** » فالمراد بالوجه
الذات اذ الوجه جزء مهم بالنسبة للذات • فاذا هلك هلكت الذات وهذا
التأويل مذهب الخلف الذين يؤولون ويحددون المعنى المجازى للفظ
وأما السلف فهم يؤولون ولا يحددون فيقولون وجه لا كالوجه فاللفظ

ليس مستعملا في حقيقته عندهم لكنهم لم يحددوا معناه المجازي وان كان كلام الخلف هو المسابير لأساليب العربية لأن الله منزه عن الكلية والجزئية لكن القرآن نزل بلغة العرب فخاطب الناس بما يألفون حتى تصل المعانى الى عقولهم مع الرفق بهم (١٢) •

وهكذا وصل المعتزلة باللفظ المستعمل في غير ما وضع نه الى المعنى المجازي وتوقف أهل السنة عند التأويل ورفضوا الوصول الى دائرة المجاز ونخلص بعد ذلك الى أن القول بالحقيقة والمجاز ووجودهما في القرآن انكريم وسائر الكلام الرصين هو المسابير لواقع الأساليب وأما هذه الآراء المتطرفة فالواقع يشهد بغروبها وعدم ثباتها وقد قال ابن الأثير (وقد ذهب قوم الى أن الكلام كله حقيقة لا مجاز فيه وذهب آخرون الى أنه كله مجاز لا حقيقة فيه وكلا المذهبين فاسد عندي) (١٣) •

كما عقب السيوطى على هذه الآراء بقوله (ومنكر المجاز فى اللغة جاحد للضرورة ومبطل محاسن لغة العرب) (١٤) •

(١٢) ينظر الصورة البيانية وقيمتها البلاغية ص ٢٢١ وما بعدها •

(١٣) المثل السائر ٣٦ •

(١٤) المزهري ١/٣٦٤ •

المجاز في اتجاهين

من الواضح أن مفردات اللغة لا تكون جملاً ذات فائدة وإنما المعول عليه في تحقيق هذه الفائدة هو ضم الكلمات واسنادها وبناء الجملة من هذه المفردات • فالكلمة الواحدة سواء كانت اسماً أو فعلاً أو حرفاً لا تتحقق بها فائدة •

(والعنة في ذلك أن مدار الفائدة في الحقيقة على الاثبات والنفي ألا ترى أن الخبر أول معانى الكلام وأقدمها والذي تستند سائر المعانى اليه وتترتب عليه وهو ينقسم الى هذين الحكمين • وإذا ثبت ذلك فإن الاثبات يقتضى مثبتاً ومثبتاً له نحو • انك اذا قلت • ضرب زيد أو زيد ضارب فقد أثبت الضرب فعلاً أو وصفاً وكذلك انفى يقتضى منفيًا ومنفيًا عنه • فاذا قلت ما ضرب زيد وما زيد ضارب فقد نفيت الضرب عن زيد وأخرجته عن أن يكون فعلاً له • فلما كان الأمر كذلك احتيج الى شيئين الاثبات والنفي بهما فيكون أحدهما مثبتاً والآخر مثبتاً له وكذلك يكون أحدهما منفيًا والآخر منفيًا عنه • فكان ذلك الشيطان المبتدأ والخبر والفعل والفاعل وقيل للمثبت وللنفي مسند وحديث وللمثبت له والنفي عنه مسند اليه ومحدث عنه • وإذا رمت الفائدة أن تحصل لك من الاسم الواحد أو الفعل الواحد صرت كأنك تطلب أن يكون الشيء الواحد مثبتاً ومثبتاً له ومنفيًا ومنفيًا عنه وذلك محال) (١) •

وهكذا شأن الجمل المفيدة لا بد فيها من الاثبات والمثبت • والقضاء بالحقيقة والمجاز يكون بالنظر اليها من الجهتين :

احدهما: أن تنظر الى ما وقع بها من الاثبات أهو في حقه وموضعه أم قد زال عن الموضع الذى ينبغى أن يكون فيه ؟

ثانيهما: أن ننظر الى المعنى المثبت أعنى ما وقع عليه الاثبات كالحياة في قولك • أحيا الله زيدا والشيب في قولك أشاب الله رأسى • أثابت هو على الحقيقة أم عدل به عنها (٢) •

فاذا كان الاثبات في موضعه وغير زائل عن مكانه كان الكلام حقيقة كما في قولك أشاب الله الرأس • وان كان غير ذلك كان مجازا عقليا فحده « كل جملة أخرجت الحكم المنفاد بها عن موضوعه في العقل لضرب من التأول » (٣) •

وكذلك انحال في المثبت • فاطلاق الأسد على الحيوان المفترس حقيقة لأنه أريد بها ما وضعت له في أصل اللغة وأما اطلاقها على الرجل الشجاع فاطلاق على غير ما وضعت له للملاحظة بين المعنى الأول والثانى ولذلك كانت مجازا لغويا •

ولما كان الاثبات لا يحصل الا من انجمله والجملة لم تؤلفهما اللغة وانما صنعها المتكلم كان مجاز الاثبات عقليا لأنه متلقى من جهة العقل • وأما مجاز المثبت فان اللغة هي التي قضت بأن المفردات وضعت لمعاني خاصة فاذا انتقلت الى معنى آخر كان الدال على المجاز هو اللغة ولذلك سمي مجازا لغويا •

وقال عبد القاهر : « اعلم أن المجاز على ضربين • مجاز من طريق اللغة ومجاز من طريق المعنى والمعقول فاذا وصفنا بالمجاز الكلمة المفردة كتقولنا • اليد مجاز في النعمة والأسد مجاز في الانسان وكل ما ليس بالسبع المعروف كان حكما أجريناه على ما جرى عليه من طريق اللغة لأننا أردنا أن المتكلم قد جاز باللفظة أصلها الذى وقعت له ابتداء في اللغة وأوقعها على غير ذلك اما تشبيها واما لصلة وملابسة بين ما نقلها اليه وما نقلها عنه ومتى وصفنا بالمجاز الجملة من الكلام كان مجازا من طريق المعقول دون اللغة ••••• » (٤) •

(٢) المرجع السابق ٢/٢٤٣ •

(٣) أسرار البلاغة ٢/٢٥٧ •

(٤) المرجع السابق ٢/٢٧٩ •

ففى قوله تعالى : « واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً » نجد أنه لا مجاز فى الزيادة ولا فى الآيات وانما المجاز فى اثبات انزيادة للآيات لعلاقة السببية .

وفى قوله تعالى : « أو عن ميتا فأحييناه » نجد أن المجاز فى نفس كلمة — ميتا وأحييناه — استعير الأول للضلال والثانى للهداية . وقد يدخل المجاز من جهتى الاثبات والمثبت معا كما فى قول المتنبي :

وتحى له المال الصوارم والقنا

ويقتل ما يحيى التبسم والجددا

استعار احياء لزيادة المال ووفوره فهو مجاز لغوى فى الميثب ثم أثبتته للصوارم فكان مجازا عقليا فى الاثبات بعلاقة السببية .

كما استعار القتل لتفريقه فى العطاء مجازا لغويا ثم أثبتته فعلا للتبسم مجازا عقليا فى الاثبات .

واذا استبان أن المجاز عقلى ولغوى . فما موقع الاستعارة من المجازين ؟ هل تقوم على نقل الألفاظ من معانيها الأصلية الى معانى أخرى فيكون التصرف فى اللغة فتكون مجازا لغويا أم أن التصرف فى المعانى والمدلولات بالادعاء كما يقضى بذلك النشاط العقلى فتكون مجازا عقليا ؟

فالمذهب المشهور وهو رأى الجمهور . أنها مجاز لغوى لأن نلفظ المشبه فى الاستعارة كأسد فى قولك . رأيت أسدا يرمى القذائف . موضوع فى اللغة للحيوان المفترس وليس موضوعا لمطلق شجاع أى لما يعم الرجل الشجاع والحيوان المخصوص واذا نم يكن كذلك كانت دلالته على المشبه من طريق التشبيه والادعاء ونقل اللفظ عما وضع له الى غير ما وضع له تصرف فى محيط اللغة كما سبق . ولو كان موضوعا لهما لكانت دلالته على الرجل الشجاع من قبيل اللغة وكان صفة لا اسم جنس وذاك خلاف المجمع عليه .

وذهب البعض الى أنها مجاز عقلي • بمعنى أن التصرف فيها قائم على خطوات عقلية فتحويل الرجل الشجاع الى الأسود بوساطة التشبيه والتناسي والادعاء بأنه فرد من أفراد الأسود ونقل اسم الأسد بمعناه اليه • كل هذا نشاط عقلي وهذا معنى قولهم • انها مجاز عقلي وليس مرادهم أنها مجاز عقلي في الاثبات كما هو شأن المجاز العقلي المقابل للمجاز اللغوي وانما المجاز هنا ما زال في المثبت أى في الكلمة •

وقد أيدوا وجهة نظرهم • في أن اللفظ في الاستعارة لا ينقل مجردا عن معناه لأنه لو نقل مجردا عن معناه • لكانت الأعلام المنقولة مثل • يزيد وصخر استعارة وليس الأمر كذلك فيها • ولما أفاد مبالغة ولكانت الاستعارة مساوية للحقيقة في الدلالة على أصل المعنى • فلا بد من نقل معنى الأسود للرجل الشجاع بالادعاء لتتحقق المبالغة • والا كان لفظ أسد مثل لفظ • على • في الدلالة على الذات لا غير •

ولو كان النقل مجردا عن المعنى لجاز أن تقول لمن سميته صخرا أنك جعلته صخرا وهذا لا يجوز لأن الجعل تحويل من جنس الى جنس آخر ولا تحويل في التسمية وأما باستعارة هذا اللفظ للدلالة على القوة والشدة فيجوز أن تقول • جعلته صخرا لأنك ادعيت أنه صار كذلك •

كما أيدوا وجهة نظرهم في أن التصرف في تحويل المشبه الى جنس المشبه به وصيرورته من أفراد الحقيقين بالادعاء بما يأتي :

الأول : لولا ادعاء ذلك لما صح التعجب في قول ابن العميد :

قامت تظللنى من الشمس

نفس أعز على من نفسى

قامت تظللنى ومن عجب

شمس تظللنى من الشمس

فالذى يوجب التعجب هو الأمر الغريب النادر كشمس حقيقة تظلل

من الشمس •

الثانى : ولولا الادعاء ما صح النهى عن التعجب فى قول ابن طباطبا :

لا تعجبوا من بلى غلاته

قد زر أزراره على القمر

فكما أنه لا عجب من ابلاء القمر الحقيقى للثياب كما هو شائع عندهم فهو ينههم عن التعجب من رؤية ثيابه كذلك لأنها ملاصقة لجسم قمر على الحقيقة •

رد الجمهور :

ورد الجمهور بأن انقل والادعاء هو أمر تخيلى يقصد به المبالغة وليس تحويلا للمشبه الى حقيقة المشبه به فى الواقع وذلك لا يخرج اللفظ المستعار عن كونه مستعملا فى غير ما وضع له • فاذا كانت اللغة قد حددت لفظ الأسد للحيوان المخصوص • فاستعماله فى الرجل الشجاع مهما كانت درجة الادعاء يكون استعمالا فى غير ما وضع له •

وأما التعجب والنهى عنه فانه لا يعنى أن المشبه قد صار فردا حقيقيا من أفراد المشبه به تثبت له كل خواصه • وانما صار من أفراد جنسه بطريق الادعاء لتحقيق المبالغة •

والفرق واضح بين جعل الشئ داخلا فى أفراد جنس آخر على سبيل التخييل والمبالغة وبين جعله اياه على الحقيقة (٥) •

وعلى كل فان الخلاف بينهما لفظى كما قال سعد الدين فى المطول (٦) •

وقال الدكتور الكردى « لأن المبالغة وادعاء دخول المشبه فى جنس المشبه به لا ينكرهما من جعل الاستعارة مجازا لغويا وأن كون

(٥) ينظر الافصاط ١٥٣ وما بعدها •

(٦) ينظر المطول ٣٤٦ •

اللفظ أطلق على غير معناه الحقيقي في نفس الأمر لا ينكره من جعلها مجازاً عقلياً (٧٠) •

ومع وضوح كون الاستعارة مجازاً لغوياً كما وضح عبد القاهر ودافع عنه الخطيب وانسكاكى • فقد وجدت نصوص في دلائل الاعجاز تدل على اعتبارها مجازاً عقلياً • فقد قال (•• أنا إذا حققنا لم نجد لفظ الأسد قد استعمل على القطع والبت في غير ما وضع له ذلك لأنه لم يجعل في معنى شجاع على الإطلاق ولكن جعل الرجل بشجاعته أسداً فالتجوز في أن ادعيت للرجل أنه في معنى الأسد وأنه كأنه هو في قوة قلبه وشدة بطشه وفي أن الخوف لا يخامره والذعر لا يعرض له وهذا ان حصلت تجوز منك في معنى اللفظ لا اللفظ •••••

وليس العجب الا أنهم لا يذكرون شيئاً من المجاز الا قالوا أنه أبلغ من الحقيقة • فليت شعري ان كان لفظ أسد قد نقل عما وضع له في اللغة وأزيل عنه وجعل يراد به الشجاع • هكذا غفلاً ساذجاً فمن أين يجب أن يكون قولنا أسد أبلغ من قولنا شجاع ؟ (٨) •

ويصل الى بيت القصيد فيقول (فقد تبين من غير وجه أن الاستعارة انما هي ادعاء معنى الاسم للشيء لا نقل الاسم عن الشيء وإذا ثبت أنها ادعاء معنى الاسم للشيء علمت أن الذي قالوه من أنها تعليق العبارة على غير ما وضعت له في اللغة ونقل لها عما وضعت له كلام تسامحوا فيه لأنه اذا كانت الاستعارة ادعاء معنى الاسم لم يكن الاسم مزالاً عما وضع له بل مقراً عليه) (٩) •

فهل يعنى ذلك اضطراب من الامام كما زعم الرازى ؟

الواقع لا اضطراب وانما استعمل عبد القاهر كلمة النقل في تلك النصوص التي يفرق فيها بين المجاز العقلي والمجاز اللغوي • فعند النظرة العقلية المحددة للألفاظ المستعارة لا مفر من التسليم

(٧) نظرات في البيان ١٦٨ •

(٨)، (٩) دلائل الاعجاز ٣٤٢/٣٩٥ •

بكلمة النقل لأن لفظ أسد أجرى في الحقيقة عنى ما ليس بأسد ولفظ بحر كذلك أجرى على ما ليس ببحر • وعلى الرغم من استعمال المشبه به بكل حقائقه في المشبه وهذا يعنى استعمال الكلمة في غير ما وضعت له الا أنه لا ينخلع منها عنى المشبه الا الصفة المشتركة بينهما كصفة الشجاعة التي بين الأسد والرجل الشجاع وتبقى بعد ذلك الصفات الآدمية في المشبه ثابتة والصفات الحيوانية في المشبه به كالمخالب وعبالة العنق وغيرها ثابتة كذلك •

ولم تكن هذه النظريات الجزئية في بيان الحدود والقوانين هي التي تحكم مسيرة عبد القاهر في تأصيل مذهبه الذي يقوم على الدراسة الواعية والمتأنية للصور والأساليب وتحليلها وبيان خصائصها الفنية • فعاد يحرر معنى النقل في فكرة وعطف الحديث مرة أخرى ببيان حقيقته الفنية • فبين أن نقل المشبه به إلى المشبه من الأشياء التي استحكمت في نفوس العامة والخاصة على السواء • فالأسد ينقل ويراد به الرجل الشجاع والبدر ينقل ويراد به الحسناء ولكن عند التحقيق وجد أن الرجل الشجاع يصير بشجاعته أسدا والمرأة بحسنها تصير بدرا أى أن الادعاء هنا يقوم عنى التخيل والتأويل بأن هذه المشبهات ذات الطابع المعروف والسمت المألوف قد خرجت عن حقائقها وصارت الى غير أجناسها فالتجوز في تلك الأحاسيس والمعانى التي هي عمل النفس ونشاط العقل • وكما تواتب الخيال المبدع فانه يؤدي الى ثورة المعانى في نفسه ونشاطها في عقله • فيرى الأشياء رؤية جديدة ويدركها ادراكا جديدا فتتحول عن طبائعها المألوفة وأوصافها الرتيبة الى صور جديدة وحقائق طريقة • فالرجل الذي صار أسدا • لم يعد هو الانسان المعروف ولا الحيوان المخصوص ولكنه نموذج ثالث • تكون من مزج الطرفين • هو روح الأسد في جسد انسان •

« فالاستعارة اذن ليست حركة في ألفاظ فارغة من معانيها ولا تلاعبا بكلمات وانما هي احساس وجدانى عميق ورؤية قلبية لهذه المشبهات التي تشكلت في الكلمات المستعارة • وقد لخص المتأخرون هذه النظرة الرحبة حين قالوا في اجراء الاستعارة انها مبنية

على دعوى الاتحاد بين الطرفين أى دخول المشبه فى المشبه به وصيرورته فردا من أفرادة وهذا تفسير جليل وموجز لطبيعة دلالة الاستعارة الا أننا مع طول الالف له لم نحاول اكتناهاه وسببره واخراج مضمونه الذى يعنى أن تنخلع الأشياء فى وجدان الشاعر والأديب المحس بها من صفاتها وتصور فى صور أخرى وليست المسألة مسألة كسوة ظاهرة ينهض بها اللفظ وانما هى فى حقيقتها ضرب من الادراك الروحى والرؤية القلبية لهذه الأشياء » (١٠) •

والذى نخلص اليه أن النقل فى الاستعارة انما هو نقل لغوى قام فى جانب من جوانبه على نقل معنى مهد له طريق النقل والتجوز • وتذوق الصورة الاستعارية وتحسس جوانب الشعور فيها يؤكد هذا المفهوم • فالشاعر الذى يستعير الأسد للرجل لا يلغى فى الرجل عقله وذكاءه ووجهاته وانما يبالغ فى شجاعته فهو أمام أسد ذكى وجيه •

وكذلك الذى يرى فى محبوبته (زهرة) لا ينسى فيها آدميتها التى هى مصدر تأثيرها ولا ينسى فيها خاصة من خواصها ولكنه يدعى لها رشاقة الزهرة وجمال شكلها وحسن نكهتها ويصورها لنا فى هذا الشكل المؤثر الحبيب • وهكذا تذوب انفواصل بين المستعار منه والمستعار له فى الاستعارة الصادقة النابعة من الوجدان (١١) •

(١٠) التصوير البيانى ١٨٤ وما بعدها •

(١١) الصورة البيانية وقيمتها البلاغية ٢٤٩ •

المجاز اللغوى

تبين مما سبق أن المجاز لغوى وعقلى وحديثى الآن مع المجاز اللغوى الذى يأتى مفردا ومركبا .

فالمجاز المفرد . انكلمة المستعملة فى غير ما وضعت له عند أهل اللغة لعلاقة وقرينة مانعة من ارادة المعنى الوضعى .

فاذا كانت العلاقة علاقة مشابهة فالمجاز استعارة . وان كانت غير المشابهة كان المجاز مرسلا . ولا بد فى كليهما من قرينة مانعة من ارادة المعنى الأصلى .

فقوله تعالى : « **الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور** » فيه ثلاث استعارات :

الأولى : استعير الاخراج وهو التحول من مكان الى مكان آخر للتحول من حالة الى أخرى بجامع الانتقال فى كل . استعارة تصريحية تبعية .

الثانية : استعيرت الظلمات الى الضلال فى عدم الهداية . استعارة تصريحية أصلية .

الثالثة : استعير النور للايمان فى الاهتداء . استعارة تصريحية أصلية .

وهذه الاستعارات من المجاز اللغوى المفرد الذى علاقتة المشابهة . وفى قوله تعالى : « **ينزل لكم من السماء رزقا** » فالمراد بالرزق المطر لأنه الذى ينزل من السماء . فيكون سببا فى الرزق . فالمجاز هنا فى المفرد وعلاقتة المسببية . وهو المجاز المرسل .

وأما المجاز المركب • فهو الذى يكون فى الهيئة سواء دل على هذه الهيئة المركبة بلفظ مركب أو بلفظ مفرد • كما سنوضح ذلك •

وعلى ذلك فالمجاز اللغوى يشمل :

١ — الاستعارة بكل أنواعها • المفردة والمركبة •

٢ — المجاز المرسل بعلاقاته المتعددة •

الاستعارة

والاستعارة فن من فنون المجاز الذى يمتنع النفس ويؤثر فى الوجدان بخصائصها الأسلوبية الدقيقة وبدقائقتها الفنية البليغة وبعروقتها الضاربة فى معارض التخيل والادعاء •

وقد أبان عبد القاهر عن قيمها الجمالية العامة من حيث المبالغة والايجاز والجدة والتكثيف والايضاح • فى حديث شيق طويل نشير الى شىء منه •

فيشير الى تعدد فنونها واتساع مساحتها الأسلوبية بقوله (هى أمد ميدانا وأشد افتنانا وأكثر جريانا وأعجب حسنا واحسانا وأوسع سعة وأبعد غورا وأذهب نجدا فى الصناعة •••••)

وفى ميدان الجدة والطرافة يقول (ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تبرز هذا البيان أبدا فى صورة مستجدة تزيد قدره نبلا وتوجب له بعد الفضل فضلا ••••••••••) •

وفى ميدان الايجاز — تعطيك الكثير من المعانى باليسير من اللفظ حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر وتجنى من الغصن الواحد أنواعا من الثمر •••••

وفى ميدان التشخيص والتبيين — ترى بها الجماد حيا ناطقا والأعجم فصيجا والأجسام الخرس مبينة والمعانى الخفية بادية ••••• وأن شئت أرتك المعانى اللطيفة التى هى من خبايا العقول كأنها قد جسمت حتى رأتهما العيون وان شئت لطفت الأوصاف الجثمانية

حتى تعود روحانية لا تتألفها الا الظنون ... (١) •

حد الاستعارة :

من المعلوم أن حد الاستعارة لم يولد فجأة وانما تلقفته مهاد علمية متعددة من بيئة لغوية وأدبية وتفسيرية وبلاغية • فهي عند المبرد • نقل اللفظ من معنى الى معنى وعند ثعلب أن يستعار للشئ اسم غيره أو معنى سواه وعند صاحب الوساطة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها وعند الرماني • تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للابانة (٢) •

بل إن عبد القاهر نفسه لم يضع لها التعريف المحدد مرة واحدة وانما تتدرج تعريفه لها وتطور من الأسرار الى الدلائل • فبدأ بهذا التعريف انذى لا ينفك عن المعنى اللغوى للكلمة • فالاستعارة من العارية وتدور المادة حول التحويل والذهاب وكل ذلك نلاحظه في نقل الكلمة من معناها الأصيل الى المعنى المنقولة اليه • قال (اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوى معروفا تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع ثم يستعمله الشاعر وغير الشاعر في غير ذلك الأصل وينقله نقلا غير لازم فيكون هناك كالعارية) (٣) •

فهو هنا يركز على عملية النقل التي تتناول المجاز بصفة عامة وفي مواطن أخرى أشار الى العلاقة والقريينة أو الشرط الذى يصح عملية التجوز فقال : (واعلم بعد أن فى اطلاق المجاز على اللفظ المنقول عن أصله شرطا وهو أن يقع نقله على وجه لا يعرى معه من ملاحظة الأصل) (٤) •

ثم يصعد أخيرا بفلسفة هذه الأصول فى هذه التعريفات المحددة

-
- (١) أسرار البلاغة ١/١٣٦ وما بعدها •
 - (٢) نقلا عن الصورة البيانية •
 - (٣) أسرار البلاغة ١/١٢٣ •
 - (٤) المرجع السابق ٢/٢٦٨ •

فيقول عن التصريحية — أن تجعل الشيء الشيء ليس به — وعن المكنية
— أن تجعل للشيء الشيء ليس له (٥) *

وبذلك استقر تعريفها في مدرسة المتأخرين * فقال الخطيب : (هي
ما كانت علاقته تشبيهه معناها بما وضع له) (٦) *

وهذه الكثرة من التعريفات تدل على (ثراء الصورة الاستعارية
وحيويتها وكثرة ايجاءاتها وأهميتها بحيث أن كل واحد من هؤلاء
الأعلام لمح منها وجد فيها ما لم يلتفت إليه الآخرون * والحق أنني
أحسست أن كل تعريف من هذه التعريفات عندما يصغى إليه المرء باهتمام
فانه ينبئه عن معزى الاستعارة ومضمونها بحيث لا يستطيع الانسان
رفض تعريف منها كلية وذلك يؤكد معنى الصدق الفني واستقلال
الشخصية العلمية عند كل واحد من هؤلاء الأعلام ولذلك نجد أن لكل
منهم طابعه الخاص الذي يميزه عن غيره من حيث النظرة العلمية
والاحساس الفني كما أنها — تتسم بالتطور والنمو الذي طرأ على
مفهوم الاستعارة بتقدم الزمن واختلاف المكان وكما تطورت في
تعريفاتها * تطورت في قبولها ورفضها وحسنها وقبولها فبينما كانت
في أول أمرها عامة تشمل المجاز بأنواعه والأعلام المنقولة من غير بيان
للعلاقة بين المستعار منه والمستعار له نجد ان زمن يتقدم وتتضح
التعريفات شيئاً فشيئاً وتشتت العلاقة بالمجاورة أو المشاكلة أو
بسبب ربط بين طرفيها ثم كشفت عن الغرض من استعمالها وبيان الفرق
بينها وبين التعبير بحقيقتها ثم تقدم الزمن بها فقسمت ووضحت
الفروق بين أقسامها من حيث البلاغة ثم وجد لبس بينها وبين أصلها
التشبيه فوضعت الفروق بينها وبينه على اختلاف بين العلماء في هذه
الفروق (٥٥٥) (٦) *

وقبل الخوض في فنون الاستعارة نعرض لنوع من التشبيه
أدخله بعضهم في الاستعارة وهو التشبيه البليغ *

(٥) دلائل الاعجاز ١٠٦ *

(٦) بغية الايضاح ١٠٤/٣ *

(٦) الصورة البيانية ٢٤١ وما بعدها *

بين التشبيه البايغ والاستعارة

هل يسمى نحو قوله تعالى : « نساؤكم حرث لكم » و « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » وقول الرسول ﷺ : (المؤمن مرآة أخيه والنساء حبائل الشيطان) وقولهم — محمد أسد — تشبيها أم استعارة ؟
ذهب بعض البلاغيين كالتنوخى والشريف الرضى الى اعتباره استعارة •

فقد اعتمدوا على الأداة في التفرقة بينهما • فما كان بالأداة يسمى تشبيها وان لم تكن فاستعارة لأن حذف الأداة يوحى بدعوى الاتحاد بين الطرفين وذلك يفيد المبالغة كالاستعارة • فاذا تساويا في الافادة تساويا في المصطلح الدال على ذلك •

والشريف الرضى يعلق على أحاديث كثيرة من نوع هذا التشبيه بأنه مجاز واستعارة كما في قوله ﷺ : (الصوم جنة) وقوله للأنصار (أنتم الشعار والناس الدثار) (٧) •

وذهب أكثر البلاغيين الى اعتباره تشبيها على حد المبالغة • فقد ذهب الرماني في صدر حديثه عن الاستعارة الى أن التشبيه باق على أصله لم يغير عنه في الاستعمال وأما الاستعارة فخرجت عن غير ما وضعت له في اللغة • أى أنه أقام الفرق بينهما على أساس النقل وعدمه وكان هذا كافيا في تحديد الفرق بينهما وقد ارتضاه من بعده الا أنه ذكر بعد ذلك ما يشعر بأنه يقيم الفرق بينهما على أساس الأداة فقال : (والتشبيه بأداته الدالة عليه في اللغة) (٨) •

كذلك قال القاضى الجرجاني « وربما جاء من هذا الباب ما يظنه الناس استعارة وهو تشبيه أو مثل • فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعا من الاستعارة عد فيها قول أبى نواس :

(٧) ينظر المجازات النبوية ٤٢ ، ٦٦ ، ١٣٣ •
(٨) ثلاث رسائل ٨٦ •

والحب ظهر أنت راكبـه

فاذا صرفت عنـانـه انصرفا

ولست أرى هذا وما أشبهه استعارة وإنما معنى البيت • ان الحب مثل ظهر أو الحب كظهر تديره كيف شئت اذا منكت عنانه فهو اما ضرب مثل أو تشبيهه شيء بشيء وإنما الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها (٩) •

فالاستعارة يتحقق فيها معنى النقل بخلاف التشبيه ولذلك قال ابن سنان أيضا : وليس يقع الفرق عندى بين التشبيه والاستعارة بأداة التشبيه فقط لأن التشبيه قد يرد بغير الأنفاظ الموضوع له ويكون حسنا مختارا ولا يعده أحد في جملة الاستعارة لخلوه من آية التشبيه ومن هذا قول الشاعر :

سـفرن بدورا وانتقبن أهله

ومسن غصـونا والتفتن جآذرا

وقول الآخر :

وأسبلت لؤلؤا من نرجس فسـقت

وردنا وعضت على العنـاب بالبرد

وكلاهما تشبيه محض ••••• (١٠) •

ومن الواضح أن البيت الأول لم يتحقق فيه معنى النقل فالمشبهات بها مستعملة في معانيها الحقيقية ولذا كان تشبيهها كما قال ولكن الأمر يختلف بالنسبة الى البيت الثانى لأنه جعل الدمع لؤلؤا والعين نرجسا والخد وردا والأنامل عنابا والسن بردا فتحقق فيها معنى النقل ولذلك فهى من باب الاستعارة التصريحية الأصلية •

ومع وضوح رأى الخفاجى فقد جعله العلوى من القبيل الذى

(٩) الوساطة ٤١ •

(١٠) سر الفصاحة ١٠٩ •

يرى التشبيه البليغ من باب الاستعارة • وقد بين الدكتور محمد أبو موسى سبب خطئه فقد أخذ مقالته من ابن الأثير الذي كان في كثير من المسائل تنقصه الأناة في تحقيق مقالة العلماء (١١) •

وكذلك ذهب الزمخشري في قوله تعانى : « صم بكم عمى فهم لا يرجعون » الى أن المحققين على تسميته تشبيها بليغا لا استعارة لأن المستعار له مذكور وهم المنافقون والاستعارة • انما تطلق حيث يطوى ذكر المستعار له (١٢)

موقف عبد القاهر من هذه القضية :

قد اقتفى آثار العلماء المحققين كالقاضي وقرر أنك في الاستعارة تطرح المشبه وتسقطه من البين وتدعى له الاسم الموضوع للمشبه به كما في قولك • جاءنى أسد ورأيت أسدا فقد أجريت المشبه به على المشبه حتى صار في الظاهر كأنه موضوع له في اللغة وذلك بناء على تشبيه مطوى في نفسك • مكنون في ضميرك فليس القصد من هذا الكلام إثبات شبه وانما اثبات أن المجيء واقعا من الأسد والرؤية واقعة عليه كذلك • وكيف يتأتى أن يكون المراد اثبات شبه وليس في الكلام مشبه ينصرف الشبه اليه •

وذلك بخلاف قولك • هو أسد فان الاخبار عن الرجل بالأسد يعنى اثبات معناه له وليس اثبات الجنسية لأنها تقتضى المحال وهو أن يكون رجلا وأسدا معا والشئ الواحد لا يكون رجلا وأسدا معا وانما يكون رجلا موصوفا بصفة الأسد وهذه الصفة تعنى الشبه أى أن الكلام مسوق لاثبات التشبيه وقد ذكر في الكلام ما ينصرف اليه وهو المشبه وهذا ظاهر في كل تركيب يكون المشبه به خبرا أو في حكم الخبر • فان الكلام يكون موضوعا لاثبات المعنى للشئ وأما اذا لم يكن كذلك وكان مبتدأ بنفسه أو فاعلا أو مفعولا أو مجرورا • فالكلام ليس موضوعا حينئذ لاثبات معناه وانما لأمر آخر هو تعلقه بالفعل على جهة الفاعلية أو المفعولية أو غير ذلك من جهة التعلق •

(١١) التصوير البيانى ١٨٨ •

(١٢) الكشاف ٢٠٤/١ •

وبعد أن بدأ عبد القاهر هذا الموضوع بداية صلبة قامت على ارساء هذه الفروق وتدعيمها بكثير من الأدلة العقلية واللغوية والعرفية عاد يضم المخالفين اليه ويفسح لهم صدره وكأنه — طيب الله ثراه — كان يكره الخلاف والتشدد فقال (فان أبيت الا أن تطلق الاستعارة على هذا القسم الثاني أى هو أسد • فينبغى أن يعلم أن اطلاقها لا يجوز في كل موضع يحسن دخول حرف التشبيه عليه بسهولة (١٢) •

وذكر للتوفيق بين هذه الآراء حلا وسطا قام على مستويات أربعة :

المستوى الأول :

وهو ما لا يصح اطلاق الاستعارة عليه وهو الذى يقبل دخول أداة التشبيه دخولا مستساغا وذلك اذا كان المشبه به معرفة مثل • هو الأسد فانه يقال • هو كالأسد •

المستوى الثانى :

وهو ما يبعد عن التشبيه ليقترب من الاستعارة وذلك اذا كان انتركيب يقبل بعض أدوات التشبيه دون البعض كأن يكون المشبه به نكرة مثل هو بحر وهو ليث • فيمكنك أن تقول كأنه بحر وكأنه ليث ولا تقول هو كبحر وكليث • فهذا أصبح له شبه ما بالاستعارة فى عدم تقدير الأداة معها • فاذا سميت استعارة كنت أعذر وأشبهه بأن تكون على جانب من الصواب •

المستوى الثالث :

وهو ما لا يصح أن يكون تشبيها ويترجح كونه استعارة وذلك بأن كانت الصياغة لا يحسن دخول أدوات التشبيه عليها الا بتغيير فى صورة الكلام مثل • هو بحر من البلاغة وبدر يسكن الأرض وهى شمس متألقة والفراق غروبها • فلا يمكن دخول الأداة الا بتغيير فى الصياغة • فنقول • كأنه بحر الا أنه من البلاغة وكأنه بدر الا أنه يسكن

الأرض وكأنها شمس الا أن الفراق غروبها • كان لا بد من التغيير في نظم الكلام لأن التشبيه انما يكون بما هو ثابت ومتقرر ليؤدى المقصود منه • فكان هذا الاستثناء ليصرف الوصف عن الجنس الحقيقي الى الجنس الادعائى ومتى كان التشبيه محوجا الى هذا التقدير والتغيير كان إطلاق الاستعارة عليه أولى •

المستوى الرابع :

وهو ما يتعين حمله على الاستعارة لأن تقدير التشبيه فيه يؤدى الى التناقض كقول المتنبي :

أسد دم الأسد الهزبر خضابه

موت فريص الموت منه يرعد

فلو حمل على التشبيه لأفضى الى كون المشبه بالوصف المذكور — دم الأسد الهزبر خضابه — فريص الموت منه يرعد — أقوى من المشبه به فيتناقضان •

وقد وقع في هذا التناقض شارح الديوان • فقد حمله على التشبيه بجعل — أسد — خبرا لمبتدأ محذوف والأصح أنه يحمل على الاستعارة دفعا لهذا التناقض •

وأما قول البحترى :

وبدر أضاء الأرض شرقا ومغربا

وموضع رحلى منه أسود مظلم

فلو حمل على التشبيه وهو أنه كالبدر الذى يضىء الكون شرقا وغربا الا موضع رحله فهو مظلم كان ذلك قياسا على مجهول وتفويتنا لغرض المتكلم • لأنه يريد أنه يعم الناس بخيره ويخصه بالحرمان وذلك لا يتأتى الا بالحمل على الاستعارة وتخيبيل أنه زاد فى جنس البدر واحدا له هذه الصفة العجيبة فالكلام ليس موضوعا لاثبات شبهه بينه وبين البدر ولكن لاثبات تلك الصفة • واذا كان المشبه به لم يجتلب لاثبات شبهه كان الكلام مبنيًا على أن كونه بدرا أمر قد استقر

وثبت وإنما العمل في اثبات هذه الصفة الغريبة والحالة التي هي موضع العجب (١٣) •

ومع وضوح تذوق عبد القاهر لهذه التراكيب التي اختصت بصفات عجيبة نادرة وأنها لا تستساغ الا على سبيل الاستعارة • فقد ذهب البعض إلى رد هذه النظرات المتذوقة وأبى الا أن يسلكها في باب التشبيهات الخيالية • لأنه لا يبعد أن يفوق الفرع الأصل في وصف خاص كما قال الشاعر :

فان تفق الأنام وأنت منهم

فان المسك بعض دم الغزال (١٤)

ولا شك أن هذا تضيق لمجال الأسانيب وخنق للملكة التخيل الذي عماده الادعاء والمبالغ في وجود أجناس خيالية ذات صفات جديدة على سبيل الاستعارة تضاف الى رصيد الأجناس الحقيقية • ثم ان الشيء يثبت بطريق القطع والتأكيد والوجوب في الاستعارة فكأن هذه الأجناس الخيالية موجودة بالفعل وهذا بخلاف التشبيه الذي يثبت به الشيء بطريق الرجحان •

وفي ختام هذا الموضوع أنبه الى أمور :

الأول : أن التركيب الذي يوجد فيه الطرفان وبخاصة اذا كان المشبه به خبرا عن المشبه من باب التشبيه • وقد يوضع التركيب على الابتداء والاختبار كما في قوله تعالى : « **والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه** » ولكنه ليس من باب الاختبار بالمشبه به عن المشبه • لأنه وان كان مكونا من المتبدا والخبر من الوجهة النحوية الا أن التركيب كله يمثل جانب المشبه به فقط ولذا كان من الاستعارة التمثيلية • وقد حاول بعضهم أن يستثنيه من نحو قولهم — زيد أسد — وأن يجعل تلك الآية من باب الاختبار بالمشبه به عن المشبه ومع ذلك كانت استعارة • ولكن الفرق واضح بين التركيبين (١٥) •

(١٣) اسرار البلاغة ٢/ ١٩٢

(١٤) ينظر شروح التلخيص ٣/ ٣٠٢ •

(١٥) ينظر المرجع السابق ٣/ ٣٠٣ •

الثاني : أن المشبه عندما يطوى ذكره ويسقط من البين يكون التركيب استعارة ولكن هناك من الصور ما يذكر فيها شيء يجذب التركيب مرة أخرى الى التشبيه •

كذكر الوجه • فاذا قلت — رأيت أسدا فهو استعارة وان زدت — في الشجاعة رجع الأسلوب تشبيها • ومنه •

ولاحت من بروج البدر بعدا

بدور مها تبرجها اكتنان

فقد استعار البروج للقصور المطوية ثم ذكر الوجه وهو بعدا فكأنه قال — ولاحت قصور مثل البروج في البعد • فترك المشبه يدل على أنه استعارة وذكر الوجه يقضى أنه تشبيه — والظاهر أنه من باب التشبيه لأن المراد بكون المشبه مقدرًا أعم من أن يكون محذوفا جزء كلام كما في قوله تعالى : « صم بكم » أو يكون في الكلام ما يقتضى تقديره كما في قولنا (رأيت أسدا في الشجاعة) (١٦) •

أو بيان المشبه به • فاذا قلت • جاءني أسد فهو استعارة وان زدت من فلان رجع تشبيها • وكما في قوله تعالى : « حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » فقد تعلق الفاعل — الخيط الأبيض — بالفعل على جهة الفاعلية لا على اثبات المعنى • والى هذا الحد كان التركيب استعارة ولكن ذكر — من الفجر — بيان للمشبه به — الخيط الأبيض — رجع به الى التشبيه — واكتفى به عن بيان الخيط الأسود لأن بيان أحدهما بيان للآخر (١٧) •

الثالث : توجد دقائق قرآنية تمثل الاعجاز لفت اليها الزمخشري في قوله تعالى : « وما يستوى الأبحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها » وقوله : « ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان » •

(١٦) المطول •

(١٧) الكشف / ١ / ٣٣٩ •

فقلوه « البحران » متعلق بالفعل على جهة الفاعلية كما في قولك (غنت لنا ظبية) فالمشبه مطوى في الكلام وظاهر ذلك أنه من باب الاستعارة ولكن التفتازانى استشعر من كلام الزمخشري أنه تشبيه وقال (وهو مشكل لأن المشبه فيه ليس بمذكور ولا مقدر ويمكن التقصى عن هذا الاشكال بأن الاستعارة تجب أن تكون مستعملة في غير ما وضع له وعلامته أن يصح وقوع اسم المشبه موقعه ولا يفوت الا المبالغة في التشبيه • فيصح في نحو رأيت أسد أن يقال : رأيت رجلا شجاعا وهذا ليس كذلك على ما يظهر بالتأمل وكذلك لا يصح أن يراد بالبحرين الموصوفين المؤمن والكافر لأن قوله « **ومن كل تأكلون ٠٠٠ الخ** » ينبىء عن أنه تعالى قصد التشبيه لا الاستعارة وأراد تفضيل البحر الأجاج على الكافر بأنه قد يشارك العذب في منافع والكافر خلو من المنفعة (١٨) •

وكذلك هذا الاستفهام في عجز الآية الثانية المتضمن نفى الاستواء يتوجه الى هذه الصورة المحسوسة المطروحة في الصياغة والتي تدل على قوة التنازع النفسى والصراع الداخلى انذى تتبدد به طاقة هذا الرجل بين هؤلاء الشركاء المتصارعين • تقابلهما صورة الرجل الآخر الذى سلم من التنازع • فلو جعلنا المشبه مكان المشبه به طبقا للمقياس السابق لتوجه نفى الاستواء للمشرك والموحد أى لو قلنا (من يعبد آلهة شتى ومن يعبد الها واحدا هل يستويان) ولفقد التعبير مغزاه واذا ذهب لم يبق في العبارة شىء (١٩) •

(١٨) المطول ٣٦٠ •

(١٩) التصوير البيانى ١٩٨ •

الاستعارة التصريحية

الاستعارة التصريحية تقابل الاستعارة المكنية • فوجود المشبه به وعدمه هو أساس هذا التقسيم •

فالتصريحية : ما صرح فيها بالمشبه به والمكنية ما حذف منها المشبه به ورمز اليه بشيء من لوازمه •

وقد أشار عبد القاهر الى أساس هذا التقسيم بقوله :

« اعلم أن كل لفظة دخلتها الاستعارة المفيدة فانها لا تخلو من أن تكون اسما أو فعلا فإذا كان اسما فانه يقع مستعارا على قسمين » •

أحدهما : أن تنقله عن مسماه الأصلي الى شيء آخر ثابت معلوم فتجربة عليه وتجعله متناولا له تناول النصفة مثلا للموصوف وذلك قولك رأيت أسدا وأنت تعنى رجلا شجاعا ورننت لنا ظبية وأنت تعنى امرأة وأبديت نورا وأنت تعنى الهدى وبيانا وحجة وما شاكل ذلك فالاسم في هذا كله كما تراه متناولا شيئا معلوما يمكن أن ينص عليه فيقال انه عنى بالاسم وكنى به عنه ونقل عن مسماه الأصلي فجعل اسما له على سبيل الاستعارة والمبالغة في التشبيه •

ثانيهما : أن يؤخذ الاسم عن حقيقته ويوضع موضعا لا يبين فيه شيء يشار اليه • فيقال هذا هو المراد بالاسم والذي استعير له وجعل خليفة لاسمه الأصلي ونائبا منابه ومثاله قول
ليبيد :

وغداة ريح قد كشفت وقررة

اذ أصبحت بيد الشمال زمامها

وذلك أنه جعل للشمال يدا ومعلوم أنه ليس هناك مشار اليه يمكن
(م ٤ — التصوير المجازى والكنائى)

أن تجرى اليد عليه بل ليس أكثر من أن تخيل الى نفسك أن الشمال في تصريف الغداة على حكم طبيعتها كالمدير والمصرف لما في زمامه بيده ومقاداته في كفه وذلك كله لا يتعدى التخيل والوهم والتقدير في النفس من غير أن يكون هناك شيء يحس وذات تحصل (١) .

فكلتاها يقوم على التشبيه لأن الاستعارة بنت التشبيه الا أن التشبيه في التصريحه واضح جلي لأنه يقوم على أشياء ثابتة يمكن أن ينص عليها وهذا بخلاف التشبيه في المكنية فإنه مستور لأن أساس التشبيه وهو المشبه به محذوف ومرموز اليه بشيء من لوازمه وهذا انلازم مثبت للمشبه عن طريق التخيل في النفس .

أقسام التصريحية

لاحظ البلاغيون أن الألفاظ المستعارة ليست على درجة واحدة في قبول اجراء التشبيه . فقد يدخل التشبيه نفس الأطراف دخولا ذاتيا كما في استعارة الأسد للرجل الشجاع . فان التشبيه يجرى في الطرفين بالأصالة .

وذلك بخلاف استعارة الفعل والمشتقات . فان التشبيه لا يدخل فيهما مباشرة وانما في أصل اشتقاقهما وهو المصدر فمثلا في استعارة — أحيا لهدى — نشبه الهداية بالاحياء ونستعير الاحياء للهداية ونشتق من الاحياء بمعنى الهداية أحيا بمعنى هدى وكذلك المشتقات كما سيتضح بعد وقال عبد القاهر : « فاذا استعير الفعل لما ليس له في الأصل فإنه يثبت باستعارته له وصفا هو شبيه بالمعنى الذي ذلك الفعل مشتق منه » (٢) .

ولذلك سمي النمط الأول بالاستعارة التصريحية الأصلية لدخول التشبيه فيها بالأصالة أو لأنها أصل للتبعية أو لأنها الكثير من قولهم هذا أصل أي كثير (٣) .

(١) أسرار البلاغة ١/ ١٣٨ .

(٢) أسرار البلاغة ١/ ١٤٤ .

(٣) ينظر الرسالة البيانية ٣١٢ .

وسمى النمط الثانى استعارة تصريحية تبعية لأنها تابعة لاستعارة أخرى جرت فى المصادر أولا على رأى الجمهور أو لتثبيته سابق على رأى العصام •

التصريحية الأصلية : ما كان اللفظ المستعار فيها اسم جنس وهو ما دل على ذات صالحة لأن تصدق على كثيرين من غير اعتبار وصف من الأوصاف فى الدلالة (٤) • ويصدق هذا على اسم العين كالأسد والقمر والشمس واسم المعنى كالمصادر والعلم المؤول باسم الجنس — مثل — حاتم — فان شهرته بالوصف صيرته فى حكم الكلئ الذى يصدق على كثيرين • وبذلك يتأتى أن المشبه فرد من أفراده وداخل فى جنسه و (وانما ألحق بأسماء الأجناس دون الصفات — المشتقات — لأن المعنى الذى اشتهر به خارج عن مفهومه وانما لم يجعل اسم جنس حقيقة لأن مفهومه يتضمنه الوصف لم يصر كليا بل هو باق على جزئيته) (٥) •

وبذلك يخرج عن دائرة الأصلية • الأعلام غير المشتهرة بوصف لأنها جزئيات والأسماء المشتقة مثل — قاتل — لأنها وضعت باعتبار الوصف • فقاتل • وضع لذات متصفة بالقتل وأما لفظ — أسد — فانه وضع للذات — الحيوان المفترس — من غير اعتبار وصف من الأوصاف ولذلك فهو يصدق عليه حتى ولو لم تكن فيه صفة اشجاعة • وكما يشبه بحاتم فى الكرم يشبه بمادر فى البخل وبقاقل فى العى وبعمر فى العدل وبأحنف فى الحلم ويايس فى الذكاء وبابليس فى الشيطنة وبالحجاج فى الظلم كما قال البارودى :

يستعظمون من الحجاج صولته

وكل قوم بهم للظلم حجاج (٦)

(٤) شروح التلخيص ١٠٨/٤

(٥) الرسالة البيانية ٣٠٩ •

(٦) ديوان البارودى ١٥٥/١

والمراد باسم الجنس المتقدم هو في اصطلاح البلاغيين وأما عند النحاة فيطلق على النكرة الشاملة للمشتقات والجوامد ويلزم عليه أن يخرج من الأصلية رأيت أسامة يرمى أوفى الحمام مع أنه منها وأن يدخل فيها الاستعارة في المشتقات كاسمى انفاعل والمفعول والصفة المشبهة واسم الزمان والمكان والآلة مع أن استعارتها تبعية (٧) •

ومع وضوح كون استعارة أسماء الأجناس والأعلام المشتهرة بالوصف أصلية وهو ما عليه الجمهور والعصام في بعض شروحه ولكنه خالفهم في الأطول في الأعلام المشتهرة وذهب الى أن استعارتها تبعية لأن حاتم مؤول بالمتناهي في الجود فيكون صفة تأويلا وقد استعير من مفهوم المتناهي في الجود لتكامل فيه • فاستعارته من مفهوم مشتق لمفهوم مشتق ولا يصلح ذلك لاجراء التشبيه بينهما بالأصالة • فينبغي أن يعتبر التشبيه بين المصدرين ويجعل حاتم في حكم المشتق • فيشبه كمال الجود بتناهيه ويعتبر سريان التشبيه منهما للرجل الكامل في الجود والرجل المتناهي فيه ويستعار لفظ الثاني للأول بناء على هذه السراية (٨) •

ولكن الفرق واضح بينهما من جهة الوصف • ف — حاتم — وضع أصلا لذات معينة ثم طرأ الوصف عليها فصارت في حكم الكلي الذي له أفراد وأما مثل — قاتل — فقد وضعت لتدل على ذات متصفة بالقتل فالوصف فيها ليس دخيلا عليها وإنما هو أصيل فيها • فطروء الوصف في الأول وأصالته في الثاني هو الفرق بينهما •

المصدر المول : هل استعارته أصلية أم تبعية ؟

ويقصد به دخول — أن — المصدرية على الفعل المستعار مثل — أحزننى أن يطغى السيل على أهالى سيناء — هل تجرى الاستعارة في الفعل — يطغى — أم في المصدر المنسبك منه مع — أن — وهو الطغيان ؟

(٧) شروح التلخيص ٤/ ١٠٨ •

(٨) الرسالة البيانية ٣٧٨ •

قال الدسوقي : (و الحق الأول لأن الاستعارة ينظر فيها الى
اللفظ لا للتأويل) (٩) .

أى أن الاستعارة تكون تبعية باجرائها فى الفعل المفروض به
وأما — أن — فلا دخل لها فى الاستعارة وإنما هى آلة لمجرد السبك
فإذا أدت غرضها طرحت .

وان اعتبرت استعارتها فى المصدر المنسبك من الفعل و — أن —
كانت أصلية .

وذلك بخلاف الأعلام المؤولة فإنه قد نظر فيها للتأويل لا لذات
اللفظ المستعار اذ لو نظر له فقط ما جرت الاستعارة فيه (١٠) .

فالتأويل فى الأعلام المشتهرة بصفة كان من أجل اجراء الاستعارة
ولكن التأويل فى الفعل المقترن بالحرف المصدرى كان من أجل غرض
آخر لا يمس الاستعارة وليست الاستعارة متوقفة عليه . فتجرى فى
الفعل و — أن — بمعزل عنه .

فنقول فى المثال السابق . شبه زيادة الماء زيادة مفسدة
بالطغيان بجامع مجاوزة الحد واستعير المشبه به للمثبه واثنتق
من الطغيان بمعنى الزيادة يطغى بمعنى يزيد على سبيل التصريحية
التبعية .

أو نقول بعد السبك . شبه الزيادة بالطغيان واستعير المشبه به
للمثبه على طريق التصريحية الأصلية . والمختار الأول لما سبق .

وقد علل البلاغيون لكون الاستعارة فى أسماء الأجناس أصلية
بأنها (تعتمد على التشبيه والتشبيه يقتضى كون المشبه موصوفا بوجه
الشبه أو كونه مشاركا للمشبه به فى وجه الشبه وإنما يصلح
للموصوفية الحقائق أى الأمور المتقررة الثابتة كقولك جسم أبيض
وبياض صاف دون معانى الأفعال والصفات المشتقة منها لكونها

متجددة غير متقررة بوساطة دخول الزمان في مفهومها أو عروضه لها
دون الحرف وهو ظاهر (١١) •

وسأشير الى طرف من هذه التعليقات في الحديث عن التبعية •

جمال التصوير في التصريحية الأصاية

عندما نتحسس ملامح الجمال في صور هذه الاستعارة نرى أن اللفظ المستعار تبعث فيه روح جديدة تثبت فيه حيوية الحركة ومرونة الاتحاد وأصالة الجمال •

أما حيوية الحركة فلأن اللفظ يترك مجراه المعتاد ومسلكه المؤلف ويتحرك في اطار جديد • يخطر فيه باشعاعاته ودلالاته التي رصد لأدائها في الوضع الجديد وبذلك يكتسب في هذه الزورة ثنيات حسنة تنفض عنه الف الرتابة وجمودية الوضع اللغوى ويصبح من أهل المقامات ومقتضيات الأحوال الذين تزدان بهم الأمكنة بما يبثونها من عبير المعانى ولطيف الاشارات وبذلك يتحقق المعنى من وجوده • فليست الألفاظ مخلوقة للدلالة القاموسية لتظل علامة عندها ومرتبطة بها ولكنها وضعت أو ولدت هناك لتكون الأرض الصلبة التي تنطلق منها الى أجواء المشاعر ودنيا العواطف وربيع المعانى • فاللفظ المستعار بهذا الاعتبار يزيد اللغة ثراء وتطورا بهذه الحركات الجادة في محيط الاستعارة وأما مرونة الاتحاد فتمثل في اقتحامه الدوائر الغريبة على جنسه وتلونه بلون أفرادها حتى يدعى أنه واحد من بنى جنسها • تثبت له أبرز صفاتها وبذلك تتحطم الحدود وتذوب الفوارق بين المشبه والمشبه به ويتحدان في ظلال المبالغة •

وأما أصالة الجمال فلأن اللفظ لم يبتز عن قديمه بقرا وانما صار ببزته التي نسجها الخيال جديدا وكأننا أحدثنا بالاستعارة أمرا قديما وجديدا معا وهذه هي طرافة الجمال والجدة حيث نحصل على عناصر ونماذج غير معروفة لدينا في بعض جوانبها كالزهرة التي تختال وتتكلم والأسد الذي يحمل المدفع وغير ذلك •

صور وتحاليل :

تأمل لفظي الظلمة والنور في قوله تعالى : « الحمد لله الذى خالق السموات والارض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » تجد أنهما مذكوران في اطار الثناء عليه تعالى لخلقه هذه النعم الكبرى وهى تمثل قدرته وعظمته وتخطب العقل والقلب للايمان بخالقها ومع وضوح هذه الآيات الكونية التى يعايشها الانسان فى كل مكان وزمان فقد سلك الكافرون منها قاسطا وساواوا بالله غيره من معبوداتهم وهذا شئ لا ينبغى أن يكون ولذلك عطف نهاية الآية بالحرف — ثم — الدالة على استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح قدرته •

فالظلمة والنور هنا لم يتعديا مظهرهما الكونى الذى يراه الانسان ويحسه وكان استخدامهما فيما وضعنا له لأن السياق هو الذى حدد المراد بهما وكانا لبنتين ملتحمتين فيه • تؤديان الدور الذى رسدا من أجله •

ولذلك كان قول ابن القيم (وكل ما فى القرآن من الظلمات والنور مستعار) (١٢) غير دقيق • وكانت عبارة الرماني أدق حيث قال (كل ما جاء فى القرآن من ذكر — من الظلمات الى النور — فهو مستعار) (١٣) فقد حدد القلب الذى يخرجان فيه وهو — من — و — الى •

وتأملهما مرة أخرى وقد تحركا من هذا المجال الحقيقى المحسوس الذى خلقنا له وتركنا هذا الكون الفسيح الى كون الصدور والقلوب فى قوله تعالى : « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور » أى من الضلال الى الايمان فقد استحالت الكلمتان بالاستعارة الى شئ آخر غير ما يعرفه الناس فالضلال الذى يقطع الصنة بالله ظلمة والانقياد للأهواء ورغائب النفس ظلمة والحياة التى يشيع فيها العقوق وتهدر فيها الحقوق وتضيع فيها القيم ظلمة • ظلمات بعضها فوق بعض • لكنها من نوع جديد لا تراه الأبصار وانما تدركه البصائر • والذى يبدد هذه الظلمات هو نور الايمان الذى يسكن

(١٢) الفوائد المشوق ٤٨ •

(١٣) ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن ٩٢ •

القلب ويحرك الجوارح حركة هادية الى الله والنفس والناس والكون كله • فليس هو نور الشمس الذى يضىء جزءاً من الأرض ولا نور المصباح الذى يضىء ركننا من البيت وانما هو نور البصيرة الذى يجعل صاحبه فى نور وان جلس فى ظلمة ومؤانس وان كان فى وحدة وفى أخوة وان كان فى غربة وفى معية الله وان كان فى هجرة •

وتأمل لفظ « **النور** » فى قوله تعالى : « **وانزلنا اليكم نورا مبينا** » انه يعبر هنا عن مصدر نور البصيرة السالف • القرآن الكريم • فهو النور الكامل والخالد •

أما كماله فلأنه لم يدع شيئا الا أرشد اليه ودل العقل عليه وأما خلوده فلأن نوره يسع الدنيا المتراحبة بأحقابها الى الآخرة السرمدية بثوابها وجنانها • وفى هذا امتاع للعقل والعاطفة معا • فان العقل لو فكر وقدر التقدير المنطقى السليم لاختار هذا الكتاب دستور حياة وقانون عمل وطرح هذه المذاهب البشرية التى يدعيها أصحاب انتهوييمات الفلسفية والأفكار العلمانية • كما أن العاطفة تشرب الى كل نعيم • وكأن هذه الاستعارة ترسم لنا طريق الحياة السوية والنسير على الصراط المستقيم •

وأنظر الى لفظ « **النور** » فى قوله تعالى « **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين** » تجد أنه استعير للنرسول ﷺ فهو المرسل بالكتاب المبين الذى يضع المعالم الهادية ويزيل الظلمات العاتية وينير البصائر ويرشد الحائر • وبذلك تكتمل الدائرة النورانية من انقرآن والرسول والايمان • نور على نور • فتجعل الداخل فيها فى حالة من الاشراق النفسى والانشراح الصدرى والاطمئنان القلبى والامتاع الروحى ، شبيهة بتلك الحالة التى يكون عليها من يعيش فى حومة الأضواء الحسية حيث تتضح الرؤية وتنقشع الظلمات •

وإذا كان النور من جنس النار كما قال الزمخشري • فانظر اليه وقد تغيرت مادته للتعبير عن الطرف المقابل الذى ينخرط فى سلك الظلام المفضى الى انوار • قال ﷺ • لا تستضيئوا بنار المشركين • فالرسول يلفت أنظار أمته لتأخذ حذرهما ممن لا يدينون بدينها

ويعلمهم أنه مهما كانت ألسنتهم معسولة ومشورتهم مجدية فان مشورتهم ظاهرها الاضاعة وباطنها الاحراق • فلا ينبغي أن نخدع بها لأنهم كما قال الله تعالى : « ان تهسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها » فهم يعضون أناملهم كلما وجدوا بارقة أمل أو صحوه ضمير أو يقظة دينية تشرق في سماء الأمة الاسلامية •

فهذه الاستعارة ترسخ فينا الاعتصام بحبل الله المتين فهو النور الهادي وأما مشورة المشركين فهي نار محرقة لأن القول السديد والمشورة الصادقة لا يخرجان الا من معين التقوى والايمان بالله •

ويقول ﷺ في كلام آخر • ولا تسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم — فيستعير — البيضة لمجتمع أمته وموضع سلطانهم ومستقر دعوتهم وكأنه ﷺ يرمى بهذه الاستعارة الى وجوب المحافظة على المجتمع الاسلامي وبقائه بعيدا عن كل شغب من شأنه أن يخدش لبناته ويعرضه للانصباب في نار المشركين • وعلى أقويائه أن يصونوا ضعافه حتى يكون السياج المنيع الذي يحمى دولتهم من أنفسهم لا من غيرهم شأنهم شأن البيضة في اجتماع عناصرها وتلاحقها وحماية ظاهرها لداخلها وذلك مرهون بصيانتها • وقد يجوز أن يكون المراد بالبيضة • المغفر الذي يلبسه المحارب • وأنه استعير لقوتهم واتفاقهم ووجوب التمسكهم من أجل النصر والمدافعة والتستتر وحماية بعضهم البعض (*) •

ولا مانع من ارادة المعنيين • فالمعنى الأول في حالة السلم والمعنى الثاني في حالة الحرب •

ونتأمل بعد ذلك صوب العقول لتتعرف على سمات الجمال من خلال تحرك الكلمات بالاستعارة •

قال المتنبي في وصف قلم :

(*) ينظر المجازات النبوية •

يمج ظلما في نهار لسانه ويفهم عن قال ما ليس يسمع (١٤) •
فالشاعر نقل لفظ الظلام الى معنى آخر غير المعانى التى شاهدها
فى استعارة القرآن • وبذلك أضفى على اللفظ معنى آخر غير المعانى
العقلية وهو المداد الذى تسود به الصحائف • التى يحبها أهل العلم
وتتعشقها القلوب المثقفة •

وكذلك نقل لفظ — النهار — من دلالاته الزمنية المعروفة الى
القرطاس • وبذلك ولدت له دلالة جديدة على لسان الشاعر وقد أحكم
التأليف بين الألفاظ المستعارة بالطباق البديع الذى يحدث لونا من
ألوان الاثارة والتنافس بين المعانى •

وأنظر الى تعبير الشعراء عن القصائد تجد كلامهم يستخدم
اللفظ الذى يفوح بالمعانى النفسية العميقة ويكشف عن أحاسيس
جمّة فى قلب الشاعر فالمتنبى يجعل — القصائد — قلائد فى قوله :

وما الدهر الا من رواة قلائدى

إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

فسار به من لا يسير مشمرا

وغنى به من لا يعنى مفردا (١٥)

ان كل كلمة تنم عن احتفال الشاعر بصنعتة وتوفره عليها حتى أضحت
نبرات العزة والاختيال تفوح من صياغتها • وتأمل ما نحن بصددده
وكيف عبر عن القصائد بالقلائد التى تنتزين بها الحسان لتكون موضع
الزينة ومثار العجب ورمز الافتتان وحديث الركبان • ويقف الدهر منها
موقف الاجلال فيرويها وينشدها وكأنه خلق لذنك كما يدل على ذلك أسلوب
انقصر بالنفى والاستثناء — وما الدهر الا فهذا القالب لا يأتى
الا فى المعانى التى تساق بقوة ووكادة حتى تصيغ لها الآذان
ويعيها الوجدان •

(١٤) ديوان المتنبي ٢/ ٣٥٣ •

(١٥) ديوان المتنبي ٢/ ١٤ •

وشوقى يعبر عنها بالعرائس فى قوله :

لى فى مدحك يا رسول عرائس

تيمن فىك وشاقهن جـلاء

هن الحسان فان قبلت تكـرما

فمهورهن شـفاعـة حسناء (١٦)

فهو يحتفل بالقصائد التى يسوقها الى رسول الله ﷺ • ويختار لها هذا اللفظ الذى يهتز له الوجدان وتتراقص له القلوب المحبة ولا تمل دن ترداده • وكأن هذا اللفظ المستعار لا يدل على مجرد قصائد وانما يبوح بعواطف مشبوبة وبفؤاد تواق الى الذكرى العطرة ومن ثم فهو لا يسوق كلاما وانما يهدى عرائس تختال بحايها وتجـرر اليه اذيالها بفؤاد متيم وقلب وامق •

وجرير يجعل القصائد كأسامرة فى قوله :

أعددت للشعراء كأسامرة

فسقيت آخرهم بكأس الأول

فقد ضاق ذرعا بالشعراء الذين ناصبوه العداة ولكنه أعد لهم (١٧) ما يفـت فى عضدهم ويثلم أسننتهم • فجعل قصائد الهجاء كأسامرة ليجـهز عليهم جميعا • وزاد هذه الاستعارة عمقا فى المجاز بهذا الترشيح فى الشطر الثانى (فسقيت آخرهم بكأس الأول) •

فصنع هؤلاء الشعراء يؤكد ما قررناه سابقا من أن النقل فى الاستعارة ليس مجرد نقل ألفاظ بقدر ما هو نقل مشاعر وأحاسيس ورؤى قلبية نطلع عليها من خلال تحرك الكلمات •

فالمتنبى يختار — القلائد — لقصائده لأنه يتفاخر بشعره ويتباهى به على ممدوحيه ويدل على أقرانه • وانقللائد توحى بذلك بل وتمهد السبيل لاجازته • ومن يخطب الحسنا لم يغلها المهر وشوقى

• (١٦) الشوقيات ٤١/١

• (١٧) ديوان جرير ٥٣٧

يختار - العرائس - لأنه يتحدث عن قصائد مديح مهداه الى سيدنا رسول الله وكذلك شأن العرائس تتزين في بيت أبيها ثم تذهب الى مستحقيها •

وجرير يختار - الكأس المرة - لأنه بصدد المعركة مع أنداده ويريد أن يلاقوا حتفهم على يديه بهذا انسلاح اللسانى وتجمل هذه الاستعارة عندما ينتزع الشاعر لفظا يندر حضوره في الذهن عند ذكر المشبه كما في قول المتنبي :

لا ناقتى تقبل الرديف ولا
بالسوط يوم الرهان أجهدها
شراهما كورها وشفرها
زمامها والشسوع مقودها
أشد عصف الرياح يسبقه
تحتى من خطوها تأيدها (١٨)

فقد وضع تصويره وضع من يتحدث عن ناقة فعلا • فهى لا تقبل الرديف - الذى يركب خلف اراكب - وأنه لا يجهدا بالسوط • ولكن مراده بالناقة - النعل - ولكنها براعة الشاعر • الذى جعل الشىء المنقول ناقلا والمتجرد عن الحركة ذاتى الحركة وبذلك بثت الاستعارة الروح فى هذا اللفظ واقتنصت له لفظا ليس من وإديه وتتم الصورة بالتشبيه البليغ فى البيت الثانى بهذه الجمل المتوازنة فى صياغتها والمتوازنة بحركاتها التى تمثل حركات الناقة فى سيرها وزان ذلك كله بالمبالغة التى جعلت أهون سيرها أشد من الرياح العاصفة لتذهب النفس كل مذهب اذا تخيلت سرعة الناقة وهذا المجاز المعبر وهذه المبالغات الواصفة • أدلة رصدها الشاعر لبيان سرعته الفائقة فى تخطى البيداء • وكأنه ينطلق من هذا المجاز ليؤسس كناية عن وصفه بالسرعة الفائقة •

الاستعارة التبعية

تعليل تبعيتها والأصل المتبوع فيها :

الاستعارة التبعية تقابل الأصلية وكلتاها فرع التصريحية وقد مضى الحديث عن التصريحية الأصلية .

وأما التصريحية التبعية فهي ما كانت في الأفعال والمشتقات والحروف . وقد عكس السكاكي ذلك بقوله : (هي ما تقع في غير أسماء الأجناس كالأفعال والصفات المشتقة منها والحروف بناء على دعوى أن الاستعارة تعتمد التشبيه والتشبيه يعتمد كون المشبه موصوفا والأفعال والصفات المشتقة منها والحروف عن أن توصف بمعزل وإنما المحتمل لها في الأفعال والصفات المشتقة منها مصادرها وفي الحروف متعلقات معانيها فتقع الاستعارة هناك ثم تسرى فيها . وأعنى بمتعلقات معانى الحروف ما يعبر عنها عند تفسيرها مثل قولنا من معناها ابتداء انغاية والى معناها انتهاء الغاية) (١) .

ومعتمد السكاكي في هذا الأساس على أن « الأصل في الموصوفية هي الحقائق » وأسماء الأجناس صالحة للموصوفية لأنها حقائق بخلاف الأفعال والمشتقات والحروف فلا يتأتى فيها تشبيه أو استعارة إلا بعد جريانها فيما هو صالح للموصوفية وهو المصدر أو متعلق معنى الحرف .

وقد أشرت سلفا الى أن ساعد الدين ذكر سبب عدم تقسّر الأفعال والصفات المشتقة منها وهو دخول الزمان المتجدد في مفهوم الفعل إذ أنه يدل عليه دلالة تضمنية ويعرض للصفات لأنها تدل عليه دلالة التزامية وبذلك يكون الزمن عاملا أساسيا في القول بتبعية الاستعارة . ولكنه يقول بعد شرحه لعبارة السكاكي (وههنا نظر

وهو أن هذا الدليل بعد تسليم صحته غير متناول لأسماء الزمان والمكان والآلة لأنها تصلح للموصوفية نحو مقام واسع ومجلس فسيح ومنبت طيب وغير ذلك ولا تقع أوصافا ألبته وهم أيضا قد خصصوا ما يشتق من الفعل بالصفات المشتقة وهذه ليست بصفات باتفاق ألبته ولهذا صرحوا بأن تعريف الصفة بما دل على ذات باعتبار معنى هو المقصود غير صحيح لانتفاضة باسم الزمان والمكان والآلة فإن المقتل مثلا اسم للمكان باعتبار وقوع القتل فيه فيجب أن تكون الاستعارة فيها أصلية لا تبعية وأن يقدر التشبيه في نفسها لا في مصادرها ولا شك أنا إذا قلنا بلغنا مقتل فلان أى الموضع الذى ضرب فيه ضربا شديدا كان المعنى على تشبيه ضربه بالقتل وكذا إذا قلنا هذا مرقد فلان إشارة إلى قبره فهو على تشبيه الموت بالرقاد •

فالأولى أن يقال • ان المقصود الأهم فى الصفات وأسماء الزمان والمكان والآلة هو المعنى القائم بالذات لا نفس الذات وهذا ظاهر فإذا كان المستعار صفة أو اسم مكان مثلا ينبغى أن يعتبر التشبيه فيما هو المقصود الأهم • اذ لو لم يقصد ذلك لوجب أن يذكر اللفظ الدال على نفس الذات وحينئذ تكون الاستعارة فى جميعها تبعية (٢) •

وكأنه يهدف الى بيان وجهة أخرى فى التعليل غير عدم الصلاحية للموصوفية وهو أن المقصود الأهم والأولى بالاعتبار فى الصفات واسم الزمان والمكان والآلة هو المعنى القائم بالذات • وأما اعتبار أن الحقائق هى الأصل فى الموصوفية فان الصفات وأسماء الزمان والمكان والآلة تجرى فيها الاستعارة الأصلية لأنها تصلح للموصوفية مع اتفاق الجميع على تبعيتها •

وقد أكد هذا الذى ذهب اليه فى المطول واعتبره أساس تبعية الأفعال كذلك فقال (بل التحقيق أن الاستعارة فى الأفعال وجميع المشتقات التى يكون القصد بها الى المعانى القائمة بالذوات تبعية لأن المصدر

الدال على المعنى القائم بالذات هو المقصود الأهم الجدير بأن يعتبر فيه التشبيه والا لذكرت الألفاظ الدالة على نفس الذوات دون ما يقوم بها من الصفات (٣) •

وقد كانت هذه انتشيقات التي أثارها البلاغيون على أثر عبارة السكاكي ميدانا فسيحا للاعتراض والحوار والمناقشة • وهذا ان دل على شيء فانما يدل على بصيرة القوم بفقهِ اللغة وقدرتهم العلمية الفائقة في وضع الحدود والتمييز بين الدلالات • وتمحيص المسائل تمحيصا علميا بالبراهين والأدلة • ولكن توجيه التبعية هو أيسر من أن يحتاج الى هذه المعارك الجدلية فسواء كان السبب في عدم اعتبار الاستعارة في الفعل والمشتقات بالاستقلال يرجع الى عدم الصلاحية للموصوفية أو كان السبب في أن الأولى بالاعتبار هو المعنى أى المصدر أو كان السبب • أنها غير مستقلة بالمفهومية • فان الاستعارة تعود الى الأصل المتين الذى ذكره عبد القاهر وهو المصدر فهو الحدث المقصود الأهم من الفعل وبذلك تسير الاستعارة في أفق التعبير وفي محيط الدلالة لتؤدى المغزى من وضعها • وكيف لا يكون المصدر هو المقصود وهو الأصل الذى اشتق منه الفعل ولا سبيل لمعرفة الفرع الا بالرجوع الى أصله •

الاستعارة التبعية • ألوان وفنون :

على الرغم من أن الاستعارة التبعية ليس لها صفة الاستقلال الذاتى لأنها تابعة لغيرها استعارة أو تشبيها • فان المساحة اللغوية التى تظهر فيها متراحبة كما أن ألوانها اللغوية متعددة ولذلك قسمتها من حيث مستوياتها اللغوية الى ثلاثة أقسام :

الأول : استعارة الأفعال •

الثانى : استعارة الأسماء المشتقة •

الثالث : استعارة الحروف •

(٣) شروح التلخيص ١١٥/٤٥ وما بعدها •

(م ٥ — التصوير المجازى والكنائى)

استعارة الأفعال

سنفصل الحديث في هذه الاستعارة مستلهمين منهج عبد القاهر الذى يقوم على مراعاة اندلالات اللغوية وأنساب المعانى ودراسة الأساليب مع بيان فروقها وخصائصها الفنية .

ومن المعلوم أن الفعل له دلالتان • حدث وزمن والاستعارة متصورة في كلتا الدالتين • وسنعرض لهما بالتفصيل وكذلك ما يتصل باستعارة الفعل كاسم الفعل والفعل الذى لا مصدر له • لتتعرف على كيفية استعارته • وعلى هذا يتوزع موضوع استعارة الفعل على النحو الآتى :

أولا : استارة الفعل باعتبار الحدث :

ان النقل الذى هو أساس الاستعارة اما أن تنقل به الكلمة بعيدا عن المعنى الأول واما أن تكون قريبة منه لأن الكلمات تجمعها رابطة مشتركة وان كانت كل كلمة تنفرد بعد ذلك بخصوصية تميزها عن غيرها • فاذا تحركت الكلمة فى نفس اندائرة التى تجمعها وبين جنسها وسمت استعارتها بالقرب وان تحركت فى اطار أبعد وسمت بالبعد وقد قسمها عبد القاهر من حيث هذا الاعتبار الى ثلاثة أضرب :

الضرب الأول : وعماده — أن يرى معنى الكلمة المستعار موجودا فى المستعار له من حيث عموم جنسه على الحقيقة الا أن لذك الجنس خصائص ومراتب فى الفضيلة والنقص والقوة والضعف فأنت تستعير لفظ الأفضل لما هو دونه) •

فالحركة جنس عام ودائرة واسعة تدخل فيها حركة الطيران والعدو والسباحة والتدويم والدوران • وقد اختلفت كل حركة بصدورها من فاعل مخصوص • فالطيران لذى الجناح والعدو فى انبر والسباحة فى البحر •

فقول الشاعر :

وطرت بمنصلى فى يعملان

دوامى الأيدى يخبطن السريحا

وقول الآخر :

قوم اذا انشر أبدى ناجذيه لهم

طاروا اليه زرافات ووحدانا

وقول النبى ﷺ : (خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيلة طار اليها) •

استعير الطيران للعدو وسرعة ملاقاتة الأعداء وبعده التناسى والادعاء واستعارة المشبه به للمشبه • اشتق من الطيران بمعنى العدو • طار بمعنى عدا •

فالعدو والطيران يشتركان فى عموم الحركة عنى الاطلاق ولكن كما سبق أن الطيران مخصوص بذى الجناح واستعير لغير ذى الجناح • ويلاحظ أن استعارته كانت فى مقام ملاقاتة الأعداء والخفة للجهاد وهو شىء تتناقل عنه النفوس الحريصة على حياة • وأما النفوس الأبية فانها تلبى الدعوة الى الجهاد والنفرة اليه وهى مغتبطة لأنها تعلم أن فيه عزها فلا يسعها الا أن تطير اليه فرجا وسرورا باللقاء وكأنها تقول — فاسقنى بالعز كأس الجنظل — فاستخدام هذا الفعل — طار — فى هذا المقام يوحى بالخفة والنشاط والمسارة شأن الطائر فى جو السماء لا يعجزه شىء ولا يحول بينه وبين غايته شىء وانما ينحاح الى أى بقعة يريدتها •

والفعل — نثر — تجرى استعارته فى هذا المحيط • وأصله (للأجسام الصغار كالدرهم والدنانير والجواهر والحبوب ونحوها لأن لها هيئة مخصوصة فى التفريق لا تأتى فى الأجسام الكبار ولأن القصد بالنثر أن تجتمع أشياء فى كف أو وعاء ثم يقع فعل تتفرق معه دفعة واحدة والأجسام الكبار لا يكون فيها ذلك لكنه لما اتفق فى الحرب تساقط المنهزمين على غير ترتيب ونظام كما يكون فى الشىء المنثور

عبر عنه بالنثر ونسب ذلك الى المدوح اذ كان هو سبب الانتثار (٥) •
وذلك كما في قول أبي تمام :

وقد نثرتهم روعة ثم أحدقوا
به مثلما ألفت عقدا منظمًا

وقول المتنبي :

نثرتهم فوق الأحياء دب نثره
كما نثرت فوق العروس الدراهم

استعير — النثر — من معناه الحقيقي نتساقط الرجال المنهزمين
وتفرقتهم على غير نظام واشتق من النثر بالمعنى المراد نثر بمعنى —
فروق وأسقط على غير نظام •

ثم ان النثر الحقيقي الذى يكون للأجسام الصغار يكون الانسان
قابضاً عليه ومتمكناً من التصرف فيه • فاختيار لفظ — النثر — يدل
على التمكن والأخذ بنواصي الأعداء أخذ عزة واقتدار وليس عن فرصة
سنحت في ليل أو نهار •

واحذر النقد الطائش الذى يوجه الى مثل هذا التصوير الدقيق
ويصفه بالانفصال وعدم تناسق الأجزاء • لأن صور انقتال
والدماء تثير في النفس الانقباض وتقشعر منها الجلود • وأين هذا من
صورة نثر الدر أو الدراهم على تاج العروس • ذلكم المنظر الذى تطمئن
له القلوب وتنسبط له الأسارير •

فهذا التصور غافل عن مقام الصورة ودقائق التصوير • فالشاعر
يصور فعل المدوح — سيف الدولة — مع الأعداء ويعبر عن
أحاسيسه الفرحة وقد ظفر بالأعداء وتمكن منهم وأسقطهم شر اسقاط
فكان هذا التردى ومنظر هذه الجثث المخضبة بالدماء هو الذى يبهجه
ويغتنب له لأنه يعنى نصره على الأعداء بل هو الغاية التى كان يطمح
وراءها •

فجاء تصوير الشاعر مرآة عاكسة لكل ما يختلج في نفسية المدوح وانتقى أجزاء تفوح بالبهجة والسرور لارتباطها بما يبهج • وهو النثر لأنه يستعمل مع الجواهر واللآلئ كثيرا كما قال الله تعالى :
« **وإذا رأيتهم حسبتهم لأثأا منثورا »** •

وقال شوقي :

قم في غم الدنيا وحى الأزهر—را

وانثر على سمع الزمان الجوهرا

ثم تمم الصورة بهذه الهيئة الحسبية التي تدل على السرور دلالة أصلية وهي قوله (كما نثرت فوق العروس الدراهم) وبذلك اتحد النظم مع الاحساس وتناسقت أركان التصوير في الدلالة على الغرض المقصود •

والفعل — قطع — موضوع لازالة الاتصال من الأجسام المتلاصقة أجزاءها — وإذا جاء في تفريق الجماعة وابعاد بعضهم من بعض كقوله تعالى : « **وقطعناهم في الأرض أهما** » كان شبة الاستعارة وان كان المعنى في الموضوعين على ازالة الاجتماع ونفيه (٦) •

ويلاحظ أن — التقطيع — هنا مستعار لتفريق الجماعة والنثر هناك مستعار لتفريق المنهزمين المتساقطين فمع أن المستعار له وهو التفريق في الموضوعين الا أن اللفظ المستعار اختلف فيهما مرة بالقطع ومرة بالنثر • ولعل هذا التنويع يكمن في أن اللفظ المستعار يطوى وراء احساسات ومشاعر هي التي تقود الى اختياره وتفضيله في موطنه لأداء المعنى المراد من وضعه في السياق وهذا يؤكد ما سبق من أن الاستعارة ليست حركات فارغة تنقل بها الألفاظ وانما هي خطرات روحية ومثيرات نفسية وراء اللفظ المستعار •

فالنثر يستعار لتفريق المتساقطين لأنه تفريق يلاحظ فيه سرور المدوح وتمكنه من الأعداء فهو تفريق يقع به الاغتباط لأنه في مقام المدح •

وليس الأمر كذلك في التفريق الحاصل بالتقطيع فليس فيه سرور وانما هو تمزيق لعلائق الأخوة ووشائج القربى لقللة الألفة حتى صارت كل جماعة تؤم خلاف ما تؤمه الأخرى • ولذلك عبر عنهم بلفظ — أمما — كما قال الزمخشري فالتقطيع أبرز هذه المعانى فى صورة مجسدة وكأن ذهابها شىء محسوس تراه العين وتحسه الأيدى • لأنه فى مقام العقوبة والقـدح •

ومثل هذه الكلمات الواصفة قوله تعالى : « **فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق** » • فجعل تفرقهم تمزيقا و التمزيق للشوب فى أصل اللغة ولكن التفريق لا يبلغ مبلغه فى تصوير المعناة التى لحقتهم وتمزيق شبكة الود الواصل بينهم • فخيوط النسج عندما تتضام يقوى الثوب ويصبح ذا فائدة ويقى صاحبه الحر والقر ولكن عندما تتسلط عليه قوى حداد تمزقه وتذهب قوته وبريقه وفائدته ويصبح أثرا بعد عين • فهذا الفعل — مزق — ينضح بكل أبعاده المادية والنفسية على هذه الجماعة التى ظلمت نفسها •

ومنه قول المتنبى :

وتولى بنى اليزيدى بالبصرة حتى تمزقوا فى البلاد (٧) •

وتولى بنى اليزيدى أى تولاهم الخلف • وبنى اليزيدى — كتائب وثبوا بالبصرة واستولوا عليها فى خلافة المنصور وأخرجوا ابن رائق • فعظم شأنهم ثم اختلفوا وذهب ملكهم وخوى نجمهم • وقد صور الشاعر هذا التفرق أبدع تصوير باستعارته الفعل — تمزقوا — لأنه لم يدل فقط على مجرد التفريق وانما دل على صعوبة التفريق والمعاناة النفسية التى رسمها الاختلاف بينهم وقد كانوا قبل ذلك كالجسد الواحد اتحادا وقوة ووثوبا • يصعب نزع العضو منه • فكان لفظ — التمزيق — دالا على هذا التاريخ الذى تولاهم الخلف فيه وتأمل لفظ — تولى — وكأن الخلف هو وليهم ولا شىء يدبر أمرهم ولا هم يخرجون عن طاعته وهو الجدير بالذكر ولا يتعلق الغرض بشىء يذكر

سواه وكذلك لفظ — حتى — التي تطوى وراءها قصة هذا الخلف الذي ظلوا عاكفين عليه حتى تفرقوا شر تفرق •

ويدخل في هذا الاطار الفعل — سبى — كما في قول سويد :

يسبى الآل على أعلامها

وعلى البيد اذا اليوم متسع

فالسباحة • العوم والحركة في الماء • استعارها لحركة الآل — السراب — في الليونة والسهولة وان كانت الحركتان متصلتان بجنس واحد وهو الماء لأن السراب يلوح كأنه ماء •

ومما يدخل في جنس هذه الحركة المشاهدة استعارة الفعل — يموج — كما في قوله تعالى : « وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا » استعير المومج للتزاحم والتدافع والاضطراب اللانهائى في هذا اليوم الموعود وكان الناس حينئذ في بحر محيط تتدافع أمواجه وتتكاثر ظلماته ولا عاصم من أمر الله الا من رحم •

ومنه قول المتنبي :

وقد خفقت لك الرايات فيه

فظل يموج بالبيض الحداد (٨)

انه يصور تكاثف الجيش وتزاحم أسلحته التي تتدافع فيه تدافع المومج فهي مشرعة يلاحظ فيها القسوة والعتو والخسوف الذى يقض مضاجع الأعداء • فالمومج هنا دليل العظمة والاقتردار والقسوة الغالبة ولكن مومج الخلق في الآية السابقة مظهر الصيرة والدهش والخوف والرعب •

الضرب الثانى : وعماده أن يكون المستعار منه والمستعار له من جنسين مختلفين وذلك (أن الاشتراك ههنا فى صفة توجد فى جنسين

مختلفين مثل أن جنس الانسان غير جنس الشمس وكذلك جنسه غير جنس الأسد وليس كذلك الطيران وجزى الفرس فانهما جنس واحد بلا شبهة (٩) •

وهذه الاستعارة انتى تجرى بين الأجناس المختلفة فى الأسماء قد مضت أمثلتها فى الحديث عن الاستعارة التصريحية الأصلية فلنراجع هناك وأما الحديث هنا فخاص بالأفعال •

قال الشاعر :

وأقرى المسامع اما نطقت بيانا يقود الحرون الشموسا
فالقرى فى الأصل هو ما يقدم للضيفان — استعارة الشاعر لما يقدم من البيان الساحر •

ومنه قول ذى الرمة :

فأظلت بأجماد الزجاج سواخطا

صياما تغنى تحتهن الصفائح

فالشاعر جعل صوت الحجر تحت الحوافر غناء والبون شاسع بين الصوت الصادر عن الأجسام الصلابة وبين صوت الغناء الرقيق • ولكن النابغة الذبياني يقرب هذا البعد فيجعل هديل المحائم غناء فى قوله :

إذا تغنى الحمام الورق ذكرنى

ولو تعزيت عنها أم عمار (١٠)

فصوت الحمام وهديلها فيه من الرقة والتطريب ما يطرب القلوب ويميل الأسماع وبذلك يقترب من الغناء الذى يثير المشاعر ويراكض أفراس الصبا •

وقد يستعار الفعل الواحد باعتبارين مختلفين فيسالك باعتبار

(٩) أسرار البلاغة ١/ ١٥٥ •

(١٠) ديوان النابغة ١٢٥ •

أحدهما في الضرب الأول وبالإعتبار الآخر في الضرب الثاني ومرد ذلك الى المقام والغرض من السياق وتلك جماليات التعبير •

فالفعل — فاض — وضع في الأصل لحركة الماء على وجه مخصوص وذلك أن يفارق مكانه دفعة فينبسط • كما ذكر عبد القاهر وقد استعاره المتنبي في مقامين مختلفين •

أحدهما : في التعبير عن انبساط الفجر وظهور شعاعه كما في قوله :

يتراكمون على الأسنة في الوعى

كالفجر فاض على نجوم الغيب

وهو بهذا الاعتبار يسلك في الضرب الأول — لأن للفجر انبساطا وحالة شبيهة بانبساط الماء في حركته وفيضه (١١) •

ثانيهما : في التعبير عن الجود وكثرته وفيضه كما في قوله :

ان في الموج للغريق نعـــــذرا

واضحاً أن يفـــــوته تعداده

للنـــــدى الغلب انـــــه فاض

والشعر عمادى وابن العميد عماده (١٢)

انه يعبر عن تقصيره في تعداد فضائل الممدوح وكيف يعدها وهو غارق بين أمواجها • فعذره واضح • ثم صور جوده الغالب بتدفق الماء حين يفارق مكانه فينبسط ويمتد الى الجوانب • فاستعار الفعل — فاض — لكثرة الجود • والعطاء والماء جنسان مختلفان وبذلك تسلك هذه الاستعارة في الضرب الثاني •

الضرب الثالث : وعماده هذه الجوامع العقلية التي لا تكون متحققه في الأطراف وانما هى أشياء يدركها العقل ويؤولها انذهن الى

(١١) أسرار البلاغة ١/ ١٥٠ •

(١٢) ديوان المتنبي •

شئ يقوم بالمشبه ويكون منه بسبيل • ففى استعارة النور للحجة نجد أن الظهور والانكشاف الذى يحدثه النور أمر يحس ويرى بالعين ورد وجه الشبه بهذا المعنى الحسى انى الحجة لا يستقيم الا على معنى أن القلب يصير فى وضوح الادراك وزوال الشكوك ونفى الريب فى حالة شبيهة بما يحصل للعين من وضوح الرؤية عند سطوع النور وزوال الظلمة وهذا الشبه صورة عقلية تستشف بالفكر والتأمل وطريق التأويل •

ولذلك اعتبر عبد القاهر هذا الضرب هو الصميم الخالص من الاستعارة • ومما يمثل هذا الضرب من الأفعال قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » قال الزمخشري : (فاجهر به وأظهره • يقال • صدع بالحجة اذا تكلم بها جهارا كقولك صرح بها من الصديع وهو الفجر والصدع فى الزجاجة الابانة) (١٣) •

فالصدع مستعار للجهر والابانة • جهرا تتميز به حقائق الدين وتستبين به مناهجه • واذا كان الصدع موضوعا لتمييز الأشياء المحسوسة كالزجاجة والحائط فانه شئ يدرك بالعين ولكن بيان حقائق الرسالة وكشف أغراضها شئ يدرك بالقلب والمعنى الذى تجتمع فيه الأطراف وهو قسوة التأثير الذى لا ينمحي أثره انما يتوصل اليه بطريق التأويل •

والفعل - صدع - المرتبط بالدلالة الحسية جسد هذه المعانى المتصلة بالرسالة وأبرزها فى معرض المحسات التى يتناولها الشق والكسر • وأبان عن القوة التى يجب أن يتذرع بها الداعية لمنهج الله حتى يشق حجب الظلام ويحطم ما حوله من قتام وينشر تعاليم الاسلام ويرسخ معانيه فى قلوب الأنام ترسيخا يزيد بمرور الأيام • ولذلك كانت هذه الاستعارة تجسيدا حيا لفصال الرسول ﷺ مع جبهة الكفر الرافضة التى كانت تطوقه بالحديد والنار ومع ذلك لم تلت قناته وصدع بالحق الذى حطم عقائدهم وكشف أباطيلهم وهدم أعرافهم الموروثة وهكذا ينبغى أن يكون مسلك الداعى لمنهج الله

قوة و إخلاصاً وتفانياً ومصراحة و إعلاناً لأوامر الشرع ومسائل الدين
مهما قعد له المثبطون بكل سبيل يبيغونها عوجاً • ولنا في رسول
الله الأسوة الحسنة •

مسور تحليلية للاستعارة في حدث الفعل :

ونشير إلى بعض أنماذج التي تظهر من خلالها الدقائق الفنية
في أسلوب الاستعارة وبخاصة الاستعارة القرآنية حيث تكمن وراء
اللفظ المستعار ملامح جمالية لا تظهر إلا بالتأمل الصادق والفكر
الدقيق فيما وراء الدلالة المباشرة • وهناك تلوح المعاني الهامسة
وتتولد من جوانب اللفظ غلالات شفافه كضوء الفجر الهامس •
لا ترمقه إلا عيون نشطت من سباتها • تتحسس مسرى النسيم
الباكر • فليس فيه وهج الشمس انذى يعرفه الناس • وليس فيه
دكنة الليل التي تعمى الأشياء على الناظرين •

ففى قوله تعالى : « **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم
مظلّمون** » تعبير عن ظاهرة كونية ترى فى كل زمان ومكان وهى زوال
النهار و اقبال الليل وقد عبر عن هذا الزوال بالانسلاخ الذى يعنى
زوال الجلد عن جسم الحيوان وبسلاخ الحيوان يذهب جلده الذى كان
يحفظ عليه حياته بما عليه من شعر ووبر وبما فيه من مراكز
الاحساس ولذلك جعل موطن العذاب فى قوله تعالى : « **كلما
نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها** » وبزوانه يصير الجسم الى
همود وسكون فلا حركة ولا نشاط ثم ان كشطه عن الجسم لا يكون
دفعه واحده وانما يتبدى الجسم من تحته شيئاً فشيئاً وبحركة
متدرجة لا تكاد تحس حتى ينكشف كاملاً وذلك لشدة التحامه وقوة
اتصاله •

وبالنظر فى المقابل وهو زوال النهار نجد أنه زمن الحركة والحس
والنشاط والسعى الذى يحفظ على الانسان ماء وجهه ويقيه ذل
السؤال و اقبال الليل تمكن الحركة ويركن الجسم الى مضجعه
وصيرورته الى حالة شبيهة بتلك الحالة التى يكون عليها الجسم الذى
كشط عنه جلده فالنهار معاش والليل سبات وهذه دلالة واضحة على

قدرة الله ورحمته — ومن رحمته جعل لكم الليل لتسكنوا فيه وانهار
مبصرا — فلم يكن الزدن نهارا كله ولا ليلا كله وانما نهار ولييل •
ليتحرك الانسان حركة نافعة في نهاره ثم بعد كلاله يأوى الى
فراشه ليجدد نشاطه ليعود مرة أخرى وهكذا دو اليك حتى يأتيه
اليقين •

ثم ان اقبال الليل عقب النهار يكون بحركة خافتة حثيثة
لا مفاجئة وذلك شأن نزع جلد الحيوان •

وهذا اللفظ المستعار من جهة أخرى قد جمع بين ظاهرتين متباعدين
ظاهرة كونية وظاهرة حيوانية ومع ذلك ظهرتنا على غاية من الاتحاد
التام وهذا من أسرار الروعة الجمالية التي تظهر بها الاختلافات متفقات
والمتنافرات متحدات في ربقة واحدة واذا ظهر الشيء من غير موطنه
كانت النفوس به أعجب واليه أميل •

وأنظر الى هذا اللفظ — الانسلاخ — في موطن آخر في قوله
تعالى : ((وائل عليهم نبا الذي آتينا آياتنا فانسأخ منها فأتبعه الشيطان
فكان من الفأوين)) فقد استعير للخروج من دائرة الايمان وزواله من
القلب الى الكفر والضلال ولا شك أن الايمان حياة بل هو الحياة
الكاملة لأنه يهذب النفوس فتمضى على فطرها السليمة ونظرها الرشيد
الى نور الحق المبين • وبالخروج عن ذلك • تزول من القلب هذه الحيوانات
ويسير الانسان معطل الادراك • منطفىء البصيرة • تحجبه ظلمات
الضلال عن منارات الحق الراضدة فيعيش وكأنه ميت فأشبهه من
هذه الناحية الحيوان الذي فقد الحس والنفس كما أن التدرج
الملحوظ في فعل السأخ ملاحظ كذلك في تلك الحركات المغوية التي ينزلق
بها الانسان وراء الشيطان • فهو لا يصد الانسان عن الايمان
دفعاً واحدة وانما يستهويه بخطواته خطوة خطوة أو بتدلياته شيئاً
فشيئاً كما يتدلى الحبل مثل قوله تعالى : ((فدلأهما بفرور))
وقال تعالى : ((ولا تتبعوا خطوات الشيطان)) •

وبذلك كثفت هذه الاستعارة الجوانب المعنوية والحسبية

لوسوسات الشيطان واخرجه الانسان من الايمان الى لهب النيران • كما أوجدت اتحادا بين ظاهرة حيوانية وظاهرة انسانية •

وأنظر الى اللفظ نفسه في قوله تعالى : « **فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** » فقد استعير لذهاب هذه الأشهر وزوالها وكانت هي المدة التي يكف القتال عنهم فيها • فكانوا يتحركون حركة منطلقة لا تنعيس فيها ولا تقييد فكانت بمثابة الحياة لهم وبعدها يقاتلون فتضيق حركتهم وينكمش مسعاهم ويتوارون عن الأنظار فيكون وجودهم كلا وجود وحياتهم كلا حياة وكأنهم بهذا الاعتبار أهوات • فكان اللفظ المستعار — السلخ — دالا على الحالين جميعا • حياتهم في الأشهر الحرم وقتالهم بعد زوالها •

ومنه قول المتنبي :

انما يفخر الكريم أبو المسك بما يبتنى من العلياء
وبأيامه التي انسلخت عنه وما داره سوى الهيجاء
وبما أثرت صوارمه البيض له في جماجم الأعداء (١٤)

فقد استعار السلخ لزوال أيامه انتى كان يفتخر بها بما بنى فيها من العلياء وأذل الأعداء اذ كانت داره هي ساحة الهيجاء وهذه المآثر هي التي تخلد ذكرى الرجال فتجعلهم أحياء وان كانوا موتى فصح له أن يستعير السلخ الذى هو ابطال لشيء كان يموج بالحركة وانحياة لذهاب هذه الأيام •

وأنتقل الى حدث آخر في قوله تعالى : « **قال رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا** » نجد أن التركيب كله يفوح بريح الوهن انذى دب فى جسم سيدنا ذكريا باطنا وظاهرا وتعانقت الظواهر البلاغية من حقيقة ومجاز وكناية وغيرها على تجسيد هذا الضعف •

فقد دفعه ايمانه بربه وبخاصة عندما شاهد أعطياته تنزل على

مريم في محرابها دون أسباب بشرية الى طالب الولد للحفاظ على ميراث النبوة • وقد بدأ طلبه بهذا النداء الخفى — اذ نادى ربه نداء خفيا — ثم جاءت الآية التالية بصياغتها مفصحة عن حيثيات هذا النداء كاجابة سريعة لتساؤل يثار حول مقول النداء وتعلقت بها عن طريق كمال الاتصال • وكان عليه السلام قد بلغ مبلغا كبيرا في الضعف وقهولة المفاصل وتقنص الحركة ولذلك فهو يهمس بهذا النداء • وحذف حرف النداء — يا — من — رب — تشير الى هذا الهمس الخاطف في تصوير النداء الخفى الذى ينم عن الشيخوخة والمهزم ولما كان هذا الضعف قد ألم به باطنا وظاهرا • فقد عبر عن الضعف المستور بالكناية اذ أنها تدور في اللغة حول الستر والخفاء وذلك قوله : **« ائى وهن العظم منى »** وقدم لها بهذا التأكيد — ائى — الدال على صدق هذا الحكم وأنه ممتلىء النفس والاحساس به وأن الوهن قد شمل كل عظامه ولذلك جاء التعبير بالمفرد — العظم — دون الجمع — العظام — لأن استغراق المفرد أعم وأشمل من استغراق الجمع ثم ربط هذا الوهن به مرة أخرى بقوله : **« منى »** واذا كان هذا حال العظم وهو أمتن ما فى الجسم فغيره من باب أولى أضعف وأوهن وأما ضعفه الظاهر فقد دل عليه بأبرز شيء وهو شيب شعر الرأس وذلك قوله **« واشتعل الرأس شيبا »** فعبر بالاشتعال عن الشيب وقد وضعت الجملة على أدق ما يكون لتصوير • فيلاحظ أولا أن حرف الشين فى كلمة — اشتعل — يدل بصوته على تفشى هذا الحدث فى المكان بسرعة كما تتضمن النار فى الهشيم ثم ان الفعل أسند الى المكان والذى يشيب هو الشعر وذلك يوحى بشمول الحدث للمكان كله • ثم بينت حقيقة هذا الاشتعال بقوله : **« شيبا »** فكشفت عن المراد ووضحت المقصود من الفعل السابق ونسبته الى الرأس وبذلك تعانق المجازان • اللغوى والعقلى فى بيان سرعة الحدث وشموله واستقراره — حتى لم يبق من السواد شيء أو لم يبق منه الا ما لا يعتد به وهذا ما لا يكون اذا قيل اشتعل شيب الرأس أو الشيب فى الرأس بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة (١٥) •

والفرق واضح بين هذه الاستعارة التي أبرزت بياض الشيب
لامعا قد أتى على الرأس في شمولية واستقرار وبين هذا التشبيه في
قول الفرزدق •

والشيب ينهض في الشباب كأنه

ليل يصيح بجانبه نهار

فالشيب هنا ما زال جادا مسرعا في محاولة محو الشعر الأسود
ومحاولته ما زالت مستمرة • يدل على ذلك الفعل — ينهض — فلم يستقر
بعد لأن الاستقرار يكون بعد الشيوخ والشمول للرأس جملة •
فالبياض والسواد في حركة تفاعلية لمغالبة الأول للثاني وهذه الصورة
هى التى تلتئم مع صورة المشبه المكون من الليل والنهار وحركة صائحة
من النهار فى أعقاب الليل لأضاءة مكانه • وهنا نقع على مكن
الاعجاز والإيجاز لبلاغة الاستعارة • فقد كثف لفظ — اشتعل — معنى
السرعة المفادة من صورة المشبه المكون من ثلاث كلمات — والشيب
ينهض فى الشباب — وزاد عليها معنى الشمول والاستقرار والبريق
واللمعان • وبقي التشبيه بهيئته التركيبية لم يبرح الدلالة الأولى
من دلالات الاستعارة المتعددة •

وأما قول الآخر :

لا تعجبى يا سلم من رجل

ضحك المشيب برأسه فبكى

فقد وقف عند نقطة البداية وهى ظهور الشيب واستعار الضحك
لظهوره وهو لا يفيد أكثر من وقوعه بصورة جامدة لا حركة فيها •
فهذه الاستعارة تمثل البداية لمرحلة الشيب يليها هذا التشبيه المركب
السابق الذى انطلق من نقطة البداية فى محاولة سريعة للانتشار
والشيوخ يثلثهما هذه الاستعارة القرآنية التى شملت تصوير الحدث
من بدايته حتى نهايته بتركيز معجز فى كلمة واحدة •

وتأمل قوله تعالى : « أو من كان ميتا فأحييناه » تجد أن

الاستعارة قد حركت الألفاظ من مجالها انذى وضعت له الى مجال جديد

تتولد فيه أحداث جديدة • فلم يعد الموت هو أبطال الحواس وانما أصبح له معنى غير متعارف وهو الضلال لأن الهدف من الحياة أن يكون الانسان سوى الفطرة يعرف الحق ويهتدى اليه فان لم يكن كذلك كان في عداد الموتى • وكأن الضلال اكتسب معنى جديدا هو الآخر فلم يعد هو الحيدة عن طريق الحق وانما هو الموت • وكذلك الحياة لم تعد هي الوجود من العدم وانما هي الهداية الى نور الايمان • الحياة أصبح لها معنى غير متعارف بين الناس • ليست هي حياة المطعم والمشرب وانما هي حياة القلوب والأرواح •

وقد أحكم التصوير بالربط بين الموت والحياة بالطباق البديع لأن الانسان لا يخلو من التابيس بواحد منهما اما الموت واما الحياة وكذلك لا يخلو في رحلته من الضلال والهداية • وفي جعله الضلال موتا اشارة الى وجوب توقي الأسباب التي تنزلق بالأقدام انى دائرة الضلال كما يتوقى الانسان أسباب التردى فى المهالك • وفى جعله الهداية حياة اشارة الى حفز النفس على وجوب التخلص من نزعات الشيطان والمسارعة الى الاعتصام بحبل الله والحرص على منهجه حرصه على الحياة • وبذلك ترسخ هذه الاستعارة فى النفس انفرة من الضلال واعتناق الهداية •

وتأمل لفظتى الحياة والموت مرة ثانية فى قوله تعالى : « **وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه ياكلون** » تجد أن التصوير بالاستعارة دفع اللفظتين دفعة أخرى من حيز الانسان الى حيز الجماد • فجعل تجرد الأرض من مظاهر الانبات والخصوبة موتا كما جعل الخضرة والنضرة التى يظهرها الله عز وجل فيها من النبات والأنوار والأزهار حياة لها • فالموت له هنا معنى جديد وهو انقفار الأرض من مظاهر الانبات وكذلك الحياة لها معنى جديد وهو النضرة والخصوبة وعجائب الصنع • وقد تولدت هذه المعانى الجديدة من حركة اللفظ المستعار فى السياقات المختلفة وهو فى كل موطن يشع البريق الدال على الغرض المقصود •

ولعللى أكون بعد هذه الجولة المتواضعة قد كشفت اللثام عن قول عبد القاهر فى شأن الاستعارة (ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تبرز هذا البيان فى صورة مستجدة تزیده قدرا ونبلا وتوجب له بعد الفضل فضلا وانك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد حتى تراها مكررة فى مواضع ولها فى كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد وشرف منفرد وفضيلة مرموقة وخلافة موموقة) (١٦) •

(١٦) أسرار البلاغة ١/١٣٧ •

ثانياً - استعارة الفعل باعتبار الزمن :

ان هذا النوع من الاستعارة تولد من النظرة المزدوجة الى دلالة الفعل - الحدث • والزمن • وقد اعتبرهما السيد من باب الاستعارة بقوله (وإعلم أن التعبير عن الماضي بالمضارع وعكسه يعد من باب الاستعارة بأن يشبه غير الحاصل بالحاصل في تحقق الوقوع ويشبهه الماضي بالحاضر في كونه نصب العين واجب المشاهدة ثم يستعار لفظ أحدهما للآخر فعلى هذا يكون الاستعارة في الفعل على قسمين :

أحدهما : أن يشبه الضرب الشديد مثلاً بالقتل ويستعار له اسمه ثم يشتق منه قتل بمعنى ضرب ضرباً شديداً •

والثاني : أن يشبه الضرب في المستقبل بالضرب في الماضي مثلاً في تحقق الوقوع فيستعمل فيه ضرب فيكون المعنى المصدرى أعنى الضرب موجوداً في كل واحد من المشبه والمشبه به لكنه قيد في كل واحد منهما بقيد معاير لقيد الآخر فيصح التشبيه لذلك (١) •

ويلاحظ أنه اعتبر هذا اللون من التعبير المتحد حدثاً والمختلف زمناً من باب الاستعارة انتبعية مخالفاً ما ذهب اليه البعض من أنه من باب المجاز المرسل الذي علاقته الاطلاق والتقيد أو المجاورة (٢) •

أو من باب الالتفات فقد عمم العلوي حده بقوله (هو العدول من أسلوب في الكلام الى أسلوب آخر مخالف للأول وهذا أحسن من قولنا هو العدول من غيبة الى خطاب ومن خطاب الى غيبة لأن الأول يعم سائر الالتفاتات كلها والحد الثاني إنما هو مقصور على الغيبة والخطاب لا غير ولا شك أن الالتفات قد يكون من الماضي الى

(١) حاشية السيد على المطول ٣٧٥ •

(٢) ينظر حاشية الانباجي ٣٥٧ •

المضارع وقد يكون على عكس ذلك) (٣) •

كما أنه أشار الى أن المعتمد في استعارة الفعل باعتبار الزمن ليس هو الزمن المجرد وإنما هو المصدر المقيّد بالزمن • وعلى الرغم من أن الحدث واحد في المشبه والمشبه به إلا أنه لما قيّدا بقيدين مختلفين فكأنه حدث مغاير للآخر نظرا لارتباط الحدث بالزمن وحلوله فيه ولذلك صح التشبيه من هذه الزاوية •

وقد ذهب مذهب الجمهور في كون استعارة الفعل باعتبار الحدث تابعة لاستعارة مصدره وذهب مذهب العصام في استعارة الفعل باعتبار الزمن في كون استعارته تابعة لتشبيهه سابق •

قال الصبان (وان شئنا نعتبر مجرد تشبيه أحدهما بالآخر وسريان التشبيه الى القتل في المستقبل وانقتل في الماضي الجزئيين اللذين في ضمنى قتل ويقتل فنستعير بناء على هذا التشبيه الحاصل بالسراية قتل لمعنى يقتل • وعلى هذا العصام وموافقوه وكلام السيد ظاهر فيه لأنه رتب استعارة ضرب لضرب في المستقبل على مجرد التشبيه وهذا ظاهر في أن استعارة الفعل باعتبار هيئته من حيث دلالتها على الزمان ليست تابعة لاستعارة المصدر المقيّد ••••• وإنما كان الأمر كذلك لأن استعارة المصدر إنما هي لأجل الاشتقاق منه والاشتقاق لم يحصل إلا من لفظ الضرب لا من مجموع الضرب في الماضي ولفظ الضرب يصدق على الضرب في المستقبل والضرب في الماضي يصدق على جزئياته فهو حقيقة فيهما والتجوز إنما هو في قيده مع أن هذا القيد لم يشتق منه) (٤) •

فاستعارة المصدر في الحدث أو لا تكون مجدّية حيث يترتب عليها اشتقاق الفعل منه ولكن في استعارة الفعل باعتبار الزمن فإن الحدث واحد والتجوز إنما هو في هذا القيد أو الزمن فهو أساس هذه الاستعارة فليست هناك حاجة لاستعارة المصدر المقيّد بالزمن والاشتقاق منه ولكن يكفي التشبيه الذي تنبنى عليه الاستعارة •

(٣) الطراز ٢/١٣٢ •

(٤) الرسالة البيانية وحاشية الانبأى ٣٦٢ وما بعدها •

ولذلك فرق السيد بينهما في الأصل المتبوع من هذه الزاوية وهى الحاجة الى الاشتقاق وعدمه •

وهناك من ركز على الزمن وحده لأنه يمثل جهة الاختلاف • فيجرى التشبيه في انزمانين المطلقين فيسرى في جزئيهما ثم يستعير بناء على هذا التشبيه الحاصل بالسراية لفظ الماضى للمضارع أو المضارع للماضى •

كما فى قوله تعالى: « **وناد أصحاب الجنة أصحاب النار** ... » •

فنشبه مطلق الزمان المستقبل بمطلق الزمان الماضى فى تحقق الوقوع فيسرى التشبيه الى الزمانين الجزئيين اللذين فى ضمنى — نادى وينادى فنستعير بناء على هذا التشبيه الحاصل بالسراية — نادى — لـ ينادى فيتحصل من ذلك أن استعارة الفعل باعتبار الزمن تكون تابعة اما :

١ — لتشبيهه فى المصدر المقيّد بالزمن أو للاستعارة فيه •

٢ — لتشبيهه فى مطلق الزمن •

وأشير الى أوجه هذه الاستعارة :

١ — التعبير بالماضى عن المضارع :

يدل الفعل الماضى بطبيعته الأصلية على أن حدثا قد وقع فى الزمن الماضى و فرغ منه ولم يعد هناك شك فى امكان وقوعه • ولذلك كانت استعارته للمضارع الذى سيقع أبلغ وأكد وأعظم موقعا فى النفس لدلالته على تحقيق الوقوع و كينونة الأحداث بما فيها من رغبة ورهبة وفرح وترح وغير ذلك من الأمور التى يلتقط الماضى مشاهدها من المستقبل القريب أو البيعيد فيطوى هذا الزمن القصى طيا دانيا تظهر أحداثه ظهورا ما ضويا يعيشه الانسان تاريخا ينفعل به ويتأثر ويطرح عن نفسه الشك فى امكان الوقوع بل يعيش الوقوع وأثره على نفسه •

وهذا النوع من التعبير أكثر وضوحا فى القرآن الكريم لأنه كلام من عنده علم الغيب فما سيكون فى حكم ما كان وتحقق وبخاصة فى

مشاهد القيامة كالنفخ والحشر والعرض والحوار بين المستكبرين وأتباعهم وسوق المؤمنين والكافرين • وغير ذلك • يقول الدكتور محمد أبو موسى : (والقرآن الكريم يعرض كثيرا من مشاهد القيامة في صورة الماضي وكأنها أحداث قد وقعت وذلك ليؤكد كينونتها وأن زمن الدنيا في حساب الحق كأنه زمن قد انتهى ليواجه بهذا الأسلوب الحاسم دواعي الانصراف عن أمر القيامة) (٥) •

ومنه قوله تعالى : « ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا • وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن نجعل لكم موعدا • ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا » •

وقال : « وتركنا بعضهم يومئذ يهوج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا » (٦) •

فهذه الآيات قد طوت الزمن المتراحم بين الدنيا والآخرة • فبعد أن ذكرت الآيات السابقة صور الدنيا الزاهية واقبالها وسرعة فنائها جاءت هذه الآيات لتصور هذه الأحداث المستقبلية في يوم القيامة بهذه الصياغة الماضية — حشرناهم — عرضوا — وضع الكتاب — ووجدوا — ونفخ — وذلك ليؤكد وقوعها وأنها كائنة لا محالة وما على الانسان الا أن يفكر في موقعه من هذه الأحداث لا في امكانها فهو أمر مفروغ منه • فلا ينبغي أن يرتع ويلعب في الدنيا ومظاهرها من المال والبنين وانما عليه أن يكبح جماح نفسه ليفوز بالباقيات الصالحات فهي خير ثوابا وخير عقبا •

وقال تعالى « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ودن في الأرض الا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون •

(٥) خصائص التراكيب ٢٠٨ •

(٦) سورة الكهف ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٩٩ •

وأشرفت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون • ووفيت كل نفس بما عملت وهو أعلم بما يفعلون وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا حتى اذا جاؤوا فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا • قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين • قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاؤوا وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض ننتبؤ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين • وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين « (٧) •

ان كثيرا من أفعال هذا الموقف المستقبلى صيغت صياغة ماضية مثل نفخ وصعق وأشرفت وضع وجيء وقضى وفيت وسيق وجاؤها وفتحت وقال وقيل وقالوا وأورثنا •••••••••• وذلك ليتجاوز الانسان أمر امكانها الى الأحداث نفسها فيعيش هذا المشهد المتكامل ويفكر فى أمر النفخ الأول الذى يخبر له من فى الكون مغشيا عليه والنفخ الثانى الذى يقوم فيه الناس ناظرين هنا وهناك وما توحى به كلمة — قيام — من الحركة والاستعداد واجالة النظر فى الموقف الرهيب ولذلك كانت أدل على هذا المعنى من كلمة الوقوف مثلا التى تعنى السكون والجمود • وكيف يتأتى الجمود فى هذا اليوم الذى تنكشف فيه مسارب الضلال وينتصر الحق بنور العدل الذى يزين الأرض وذلك معنى قوله — وأشرفت الأرض بنور ربها — ويوضع الكتاب الذى هو رمز الحساب والجزاء ويجيء دور الشهداء على الأمم وتصدر كلمة الفصل بالحق وتوفى كل نفس عملها ثم ينقسم الموقف الى قسمين • فريق يساق الى جهنم سوقا محفوا بالاهانة والتصايح والتوبيخ حتى اذا جاؤوا فتحت أبوابها وكأنها كالمسجن الذى يظل مغلقا ولا يفتح أبوابه الا عند استقبال المجرمين • وفريق يساق الى الجنة سوقا محفوا بالاكرام والتعظيم حتى اذا جاؤوا وفتحت أبوابها وكأنها

كالدار التي أعدت للضيف الكريم • توضع فرشها وتفتح أبوابها وتهيباً لاستقباله قبل مجيئه • ولذلك خولف بين الصياغتين فقال في شأن دار المتقين وفتحت وحذف جواب — اذا — لدلالة على ما لهم من الكرامة والحفاوة ما لا يحيط به الوصف ولا يحتمله التعبير • ثم ينتهون إلى أماكنهم ويتصرفون فيها تصرف الوارث فيما يرثه ويحمدون الله على فضله وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين •

٢ — التعبير بالمضارع عن الماضي :

والفعل المضارع يدل بطبيعته على وقوع الحدث في الزمن الحالي • فصيغته من أقدر الصيغ على تصوير الأحداث واحضارها وكأنها ترى بالعين ، وقد — قصدت العرب بالآخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل لأن الآخبار بالفعل المضارع اذا أتى به في حالة الآخبار عن وجود كان ذلك أبلغ من الآخبار بالفعل الماضي وذلك لأن الفعل المضارع يوضح الحال التي يقع فيها ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها (٨) •

والإنسان يستحضر الأمور العجيبة والمواقف الصعبة التي مرت في الماضي وذلك لأن المضارع مما يدل على إنحال الحاضر الذي من شأنه أن يشاهد كأنه يستحضر بلفظ المضارع تلك الصورة ليشاهدها السامعون ولا يفعل ذلك الا في أمر يهتم بمشاهدته لغرابة أو فظاعة أو نحو ذلك (٩) •

ولذلك كان الاستحضار خاصاً بالأحداث الماضية وذهب بعضهم إلى أن الاستحضار قد يكون للمضارع كذلك لكن قيل — ان استحضار المستقبل لم يوجد في كلامهم بل هو مختص بالماضي (١٠) •

والمضارع المعبر به عن الماضي اما أن يدل على حكاية الحال الماضية واستحضار الصورة كما في قوله تعالى : « كَلِمَاتٍ جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ » • قال الزمخشري :

(٨) الفوائد المشوق ٣٣ •

(٩) المطول ١٧٣ •

(١٠) شروح التلخيص ٩٠/٢ •

فان قلت لم جىء بأحد الفعلين ماضيا وبالأخر مضارعا ؟ قلت • جىء •
يقتلون على حكاية الحال الماضية استفظاءا للقتل واستحضارا لتلك
الحال الشنيعة للتعجب منها) (١١) •

ومنه قول تأبط شرا فى حديثه عن لقاءه الغول :

فأضربها بلا دهش فخرت

صريعاً لليدين وللجـران

فهو ينقل لنا مشهد لقاءه الغول وضربه اياها • فعدل عن الماضى
الى المضارع فى قوله — فأضربها — لاستحضار تلك الحالة العجيبة التى
تشجع فيها على ضرب الغول وصرعها ليشاهد قومها شجاعته
الفائقة •

واما أن يدل على الاستمرار كما فى قوله تعالى : « **الله يستهزى بهم**
ويجدهم فى طغيانهم يعمهون » • فان قلت : هلا قيل الله مستهزى بهم
ليكون طبقا لقوله : « **إنما نؤمن مستهزؤن** » قلت : لأن يستهزى يفيد
حدوث الاستهزاء وتجدهم وقتا بعد وقت • ويعلق السيد على كلام
الزمخشري قائلا : (أما افادته الحدث والتجدد فنكونه فعلا وأما كون
ذلك وقتا بعد وقت فلأن المضارع لما كان دالا على الزمان المستقبل
الذى ينقلب حالا شيئا بعد شيء على الاستمرار ناسب أن يقصد به اذا
وقع موقع غيره أن معنى مصدره المقارن لذلك الزمان يحدث على
منواله مستمرا استمرارا تجديدا لا ثبوتيا كما فى الجملة الاسمية) (١٢) •

وهكذا تفعل هذه الصيغ فعلها فتثير الخواطر وتحرك المشاعر •
الماضى يستل الحدث من الزمن المستقبل وكأنه قد وقع وثبت والمضارع
يعيد شريط ما وقع وكان العين تراه • وبذلك تكون اللغة الفنية العالية •
عندما تنفلت عن مجاريها الأصلية وتتبادل الصيغ أمكنتها الطبيعية •

(١١) الكشف •

(١٢) الكشف، وحاشية السيد عليه ١ / ١٨٨ •

٣ — أثر التقيد بالشرط في توجيه زمن الفعل :

سنتناول هذا الموضوع من خلال أدوات الشرط الثلاث — ان — اذا — لو — فكل أداة لها ارتباط بمدلول فعلي معين وقد يأتي استخدامها على غير هذا الخصوص الوضعي فتكون النطائف البلاغية والدقائق الأسلوبية وسحر البيان وراء هذه الاستخدامات •

وهذه الأدوات يجمعها معنى الشرط الا أن لكل منها وجهة في أصل الاستعمال فكل من — ان — و — اذا للشرط في المستقبل والشرط يعني تعليق أمر بغيره أى تعليق حصول الجزاء على حصول الشرط وهذا يستدعى أن يكون الجواب و الشرط غير ثابتين لأنه ينافي التعليق فان قلت: ان تكرمنى أكرمك فاكرامك معلق على اكرامه • فالفعلان غير حاصلين الآن وانما يحدث في المستقبل • ولما كان الفعل يدل بأصل وضعه على الحدوث والتجدد كان هو المناسب للشرط • بخلاف الاسم الذى يدل بأصل وضعه على الثبوت • والثبوت ينافي التعليق • فاذا كانا — أى ان واذا — بهذه المثابة أى للشرط في الاستقبال • امتنع في جملتيهما أن تكونا ماضيتين لفظاً ومعنى •

قال الخطيب : (واعلم أنه لما كانت هاتان الكمتان لتعليق أمر بغيره أعنى الجزاء بالشرط في الاستقبال امتنع في كل واحدة من جملتيها الثبوت وفي أفعالهما المضى) (١٣) •

وقال السكاكى : (أما ان فهى للشرط في الاستقبال والأصل فيها انخلو عن الجزم بوقوع الشرط ••••• واذا للشرط في الاستقبال والأصل فيها القطع بوقوع الشرط) (١٤) •

وقال الزمخشري فارقا بين — ان — و — لو — (أن — ان — تجعل الفعل للاستقبال وان كان ماضياً ولو جعله للمضى وان كان مستقبلاً) (١٥) •

(١٣) بغية الايضاح •

(١٤) مفتاح العلوم ١١٥ •

(١٥) شرح المفصل ١٥٥/٨ •

وقال التفتازانى (ولو للشرط أى لتعليق حصول مضمون الجزاء
لحصول مضمون الشرط فرضاً فى الماضى مع القطع بانتفاء الشرط فيلزم
انتفاء الجزاء كما تقول • لو جئتنى لأكرمك معلقاً الاكرام بالمجىء
مع القطع بانتفائه • فيلزم انتفاء الاكرام • فهى لامتناع الثانى أعنى
الجزاء لامتناع الأول أعنى الشرط) (١٦) •

وبذلك يتضح أن الأصل فى استخدام هذه الأدوات اختصاصها
بالفعل عموماً • غير أن — ان واذا • تختصان بالفعل المضارع وتنفرد
إذا بالقطع بوقوعه وتنفرد ان بعدم الجزم بوقوعه • وتختص لو بالفعل
الماضى وتنفرد بدلالاتها على القطع بانتفائه •

وهذه الأصول واضحة فى قوله تعالى : « وهو على جمعهم اذا يشاء
قدير » وقوله : « ان يشاء يذهبكم ويأت بخلق جديد » وقوله :
(! واطلعت عليهم لوليت منهم فرارا) •

وقول الشاعر :

فزحلفها بأزفلها اليه

أمير المؤمنين اذا تشاء

فالمضارع والماضى فى ظلال هذه الأدوات جاء على طريق الأصل
فى التعبير •

ويلاحظ أن القطع وعدمه فى وجود الفعل انما هو بالنظر لمن
يجوز عليه الشك كما فى المخاطبات البشرية ولذلك قال السعد
(المراد بانقطع أو الاحتمال بالنظر الى حال الشئ فى نفسه وفرض
الكلام مقولاً على لسان من يجوز عليه الشك أو التردد والافبالنظر الى
علم الله تعالى ليس الا القطع بالوقوع أو اللاوقوع) (١٧) •

(١٦) المطول ١٦٦ •

(١٧) حاشية السعد على التسم الثالث من المفتاح ٣٦٠ •

خروج هذه الأدوات عن هذا الأصل :

علم مما سبق أن -- اذا -- تدل على الأمر المقطوع بوقوعه
والماضى كذلك يدل على تحقق الوقوع • ولذلك وجدنا الأمور المستقبلية
المقطوع بوقوعها تأتي في حيز -- اذا -- بلفظ الماضى وان كان بالنظر
الى المعنى على الاستقبال -- لأن -- اذا -- الشرطية تقلب الماضى الى
معنى المستقبل مثل -- ان -- (١٨) •

كما فى قوله تعالى : « **اذا وقعت الواقعة** » وقوله : « **ثم اذا اشاء**
أنشره » فهذه الأحداث لما كان مقطوعا بوقوعها لصدورها عن لا خلاف
فى اخباره سيقى فى قالبين من قوالب التحقيق والقطع وهما -- اذا
والماضى ولكنه نقل من ناحية أخرى الى المستقبل من جهة المعنى لأن
-- اذا -- ظرف لما يستقبل من الزمان •

وقال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا اذا نودى الصلاة من يوم
الجمعة فاسمعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون •**
فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا
الله كثيرا لعلكم تفلحون • واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها وتركوك
قائما قل ما عنده الله خسر من اللهـو ومن التجارة والله خسر
الرازقين » (١٩) •

نجد أن -- اذا -- دخلت على الأفعال -- نودى -- قضيت -- رأوا --
وهى أفعال ماضية لكنها فى الأولين ماضية لفظيا لا معنى بدليل
ما بعدهما من الأوامر -- اسمعوا -- ذروا وغير ذلك • وفى الثالث --
رأوا -- ماضى لفظيا ومعنى •

وبذلك يكون فى الفعلين الأولين تجوز بالاستعارة التبعية فى زمن
الفعل وهو العدول عن المضارع الى الماضى •

وأما قوله -- واذا رأوا ••• فالفعل ماضى لفظيا ومعنى لأن الآية

(١٨) المطول ١٥٤ •

(١٩) سور الجمعة ٩ - ١١ •

نزلت بعد وقوع حادثتها وهي أن تجارة قدمت المدينة والرسول
ﷺ يخطب فروع أكثر الجالسين الا القليل منهم الى التجارة وتركوا
النبي قائما يخطب •

فموطن التجوز اما أن نجعله في الأداة — اذا — واما أن يكون في
الفعل نفسه •

وذلك بأن نشبه مطلق ظرف ماضى بمطلق ظرف حال بجامع
استحضار الصورة في كل ثم يسرى التشبيه من الكلين الى الجزئيين •
فنستعير بناء على هذا التشبيه الحاصل بالسراية الظرف الموضوع
للمستقبل وهو اذا للظرف الموضوع للماضى وهو اذا •

واما أن نشبه الرؤية في الماضى بالرؤية في الحال بجامع استحضار
الصورة ثم استعير الرؤية في الحال للرؤية في الماضى واشتق منه —
يرون — وكان هذا المضارع هو المناسب للتعبير ولكنه حذف ورمز
اليه بشيء من لوازمه وهو — اذا — وذلك على سبيل التبعية في زمن
الفعل والمكتيبة في حذف الفعل الأساسى الجدير بايلاء الأداة والرمز بها
اليه •

ومنه قول الشاعر :

وندمان يزيد الكأس طيبا

سقيت اذا تغورت النجوم

وقال شوقي :

فاذا سخوت بلغت بالجود المدى

وفعلت ما لا تفعل الأنواء

واذا عفوت فقادرا ومقدرا

لا يستهين بعفوك الجهلاء

واذا رحمت فأنت أم أو أب

هذان في الدنيا هما الرحماء

وإذا غضبت فانما هي غضبة

في الحق لا ضغن ولا بغضاء (٢٠)

فكل هذه الأحداث التي ذكرت في حيز — اذا — صيغت صياغة ماضية ولكنها برزت في معرض المضارع والتجوز فيها على غرار ما سبق في واذا رأوا تجارة ...

ومعلوم أن الغرض هو استحضار الصورة ولكن مواقف الاستحضار مختلفة • فالاستحضار في الآية واذا رأوا — لهذا الموقف المشين انذى صنعه هؤلاء الماديون مع رسولنا ﷺ • وتوبيخهم على هذا المسلك الذي تركوا فيه تجارة الأرواح الى تجارة الأجساد وقد وجه إليهم هذا التوبيخ والتفريع بالالتفات بطريق الغيبة لتبعيدهم عن شرف المخاطبة وعز الحضور • وفي هذا تنفير لمن يحذو حذوهم فيترك منهج الله وراءه ظهريا •

والاستحضار في — اذا تغورت النجوم — لهذا المجلس الحالم الذي يضم الندماء في أوقات السحر حيث تدار الكؤوس وتترنح الرؤوس وتتراقص النفوس •

والاستحضار في أبيات شوقي لهذه المعاني السامية التي انفل بها وصاغها شعرا ليستحضرها المسلمون ويعيشوا بها واقعا في حياتهم فيكون لهم بها في كل لحظة احتفال بنبينهم •

وأما — ان — فقد علمنا أنها خاصة بالمضارع فاذا جاء بعدها ماضيا قلبته مستقبلا ما عدا — كان — فقد ذهب البعض الى أنها متمحضة للدلالة على المضى (وقد نص المبرد والزجاج على أن — ان — لا تقلب كان الى معنى الاستقبال وذكر كثير من النحاة أنه اذا أريد ابقاء معنى الماضى مع ان جعل الشرط لفظ كان نحو قوله تعالى : « ان كنت قلتة فقد علمته » « وان كان قميصه قد من قبيل » وذلك لقوة دلالة كان على المضى لتمحضا له لأن الحدث المطلق الذى هو مدلوله مستفاد

من الخبر فلا يستفاد منه الا الزمان الماضي ونذا ذكر صاحب الكشف في قوله تعالى : « **واما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى** » انه يجوز أن يراد وان كان الشيطان ينسينك قبل النهي قبسح مجالسة المستهزئين لأنه مما يذكره العقول فلا تقعد بعد أن ذكرناك قبسها فلما أراد جعل الشرط ماضيا قدر كان ليستقيم المعنى) (٢١) •

واذا كان السعد يرى أن الزمخشري سار على رأى المبرد في تخريج آية الأنعام فإنه انتحى منحى آخر في تخريج آية يوسف — أن كان قميصه •• قال (كيف جاز الجمع بين ان الذى هو للاستقبال وبين كان ؟ قلت لأن المعنى أنه يعلم ان كان قميصه قد ونحوه قولك • ان أحسنت الى فقد أحسنت اليك من قبل لمن يمتن عليك باحسانه تريد ان تمتن على أمتن عليك) (٢٢) •

فالماضى عبر به عن المضارع على سبيل الاستعارة الزمنية •

وعلى ذلك اذا جاء بعدها ماضى لفظا فإنه يكون من باب التعبير بالماضى عن المضارع لابرار غير الحاصل فى صورة الحاصل لهذه الأمور :

١ — قوة الأسباب التى يترتب عليها وجود الشئ فيعبر عنه بما يبرزه فى صورة الحاصل وهو الماضى الدال على تحقق الوقوع كما يقال عند انعقاد أسباب الاثراء • ان اشتهيت كذا كان كذا •

٢ — أن يكون المعنى الاستقبالى من شأنه الوقوع فيعبر عنه كالأوقع كقولك ان مت كان كذا وكذا •

٣ — التفاؤل و اظهار الرغبة فى وقوعه مثل : ان ظفرت بحسن العاقبة فهو المرام لأن النفس اذا رغبت فى شئ كثر لديها تصوره وربما تخيلته واقعا فتعبر عنه بالماضى كما فى قوله تعالى : « **ولا تكرر هو** فتياتكم على البغضاء ان أردن تحصنا » فعبر بالماضى — أردن — عن

(٢١) المطول ١٥٨ •

(٢٢) الكشف ٣١٤/٢ •

المضارع — يردن — لاظهار الرغبة في الوقوع • وأما استخدام ان — دون — اذا — فلأنه كان بمثابة الفعل النادر •

وقد يظهر ما بعدها في معرض الحاصل على سبيل الفرض والتقدير على جهة التعريض بمن صدر منه الفعل كما في قوله تعالى : « **لئن أشركت أحبطنك** » فالمخاطب بذلك سيدنا رسول الله ﷺ ويستحيل وقوع الاشراف منه وانما هو تعريض بمن وقع منه وهو يحمل على توبيخ الكفار على أعمالهم التي تموت حبطا كالأنعام التي تنفق في الربيع ولا تنال من رتوعها في المأكل والمشرب الا مرارة الألم وازهاق وقد نسب ذلك إليهم على أبلغ وجه • فاذا كان اشراك المعصوم يحبط عمله فما بالك بأعمالهم ؟

وقد ألقى لهم ذلك بالتعريض دون الخطاب المباشر تبعيدا لهم عن أهلية المخاطبة •

وهل التعريض هنا لازم للفعل الماضي دون المضارع ؟ ذهب السكاكي الى الأول ولكنه لم يسلم من المناقشات • وخلاصة القول في ذلك أن التعريض • هو نسبة الفعل الى من لا يقع منه والمراد غيره وهذا المعنى حاصل سواء كان الفعل ماضيا أو مضارعا • فلو قيل — لئن تشرك لتحقق معنى التعريض أيضا (٢٣) •

وقد يكون ما بعدها مقطوعا بوجوده فينزل حينئذ منزلة الأمر المفروض كما يفرض المحال أو ينزل منزلة غير الحاصل اثارا وتهيجا لكماله •

فمن الأول قوله تعالى : **أفمن شرب عنكم الذكر صفحا ان كنتم قوما مسرفين** » عنى قراءة كسر همزة — ان — فان كونهم مسرفين أمر مقطوع به و — ان — خاصة بالحكم المحتمل لوقوعه وعدمه فكأن شبهه القطعي الحصول بالمشكوك فيه لقصد التوبيخ والتقريع على هذا المسالك الذي لا ينبغي أن يكون الا على سبيل الفرض والتقدير بوجود ما يقلعه من أصله •

ومن الثانى قوله تعالى : « وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين »
فالمخاطبون بذلك هم مؤمنو بدر وايمانهم مقطوع بالحصول ولكن
الغرض من ايقاع الماضى بعد — ان — أى موقع المضارع الذى
لا يجزم بوقوعه لاثارة مشاعرهم وتهيجا لنفوسهم والهابا لأرواحهم
فى بلوغ الكمال الايمانى •

وأما — لو — فتخرج عن حقيقة الاستخدام السابق وهو الماضى
لفظا ومعنى الى هذه المواطن :

أولا : أن يليها المضارع لفظا كما فى قوله تعالى : « **واعلموا**
أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم » فاذا كان الاسم
يفيد الاستمرار الثبوتى فان الفعل المضارع يفيد الاستمرار التجددى
فاذا وقع بعد — لو — وهى حرف امتناع أفاد امتناع الاستمرار
وهو ما اختاره ساعد الدين •

فوضع المضارع — يطيعكم — موضع الماضى — أطاعكم — لقصد
استمرار الفعل فيما مضى وقتا بعد وقت • ليفيد أن رسول الله
لو كان كلما عن لكم أمر واستصوبتموه أطاعكم فيه لأصابكم العنت
والهلاك (٢٤) •

ثانيا : أن يليها المضارع لفظا ومعنى كما فى قوله تعالى :
« **ولو ترى اذ وقفوا على النار — ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا**
رؤوسهم عند ربهم — ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم » •
فهذه الرؤية من مشاهد القيامة المستقبلية وكان الأصل مع — لو —
الفعل الماضى ولكنه عدل عنه الى المضارع تشبيها له بالماضى فى تحقق
الوقوع •

وليس هناك تناقض بين تحقق الوقوع وبين الامتناع الذى تدل
عليه — لو — لأن الامتناع باعتبار الاسناد الى المخاطب والتحقق
باعتبار أصل الفعل فالمنزل منزلة الماضى لتحققه هو أصل الرؤية والذى
فرض وقوعه وأدخل عليه — لو — هو الرؤية بالنسبة للمخاطب فذكر

(٢٤) المرجع السابق ٧٩/٢ •

(م ٧ — التصوير المجازى والكنائى)

— لو — يدل على أن الرؤية بمثابة من الفضاءة يمتنع معها رؤية
المخاطب (٢٥) •

وبالنسبة لدخول — لو — نشبه أصل الفعل وهو الرؤية المستقبلية
بالرؤية الماضية في التحقق والحصول في كل واستعير ببناء على هذا
التشبيه الرؤية الماضية للرؤية المستقبلية واشتق من الرؤية الماضية
الفعل الماضي الدال على التحقق ولكنه حذف ورمز إليه بشيء من لوازمه
وهو — لو — ووضع مكانه الفعل المضارع المنزل منزلته بالتأويل
على سبيل الاستعارة المكنية التبعية ويمكن أن يكون موطن التجوز في
الأداة نفسها • بأن نشبه مطلق ظرف مستقبل بمطلق ظرف ماضى في
حصول الحدث فيسرى التشبيه من الكليين الى الجزئيين واستعير ببناء
على هذا التشبيه الحاصل بالسراية — لو — ل — اذا الخاصة
بالمضارع •

ثالثا : أن يابها المضارع وليس الغرض منه ما سبق ولكن — للدلالة
على أن الفعل من الفضاءة بحيث يحترز عن أن يعبر عنه بلفظ الماضي
لكونه مما يدل على الوقوع في الجملة كما تقول • لقد أصابتنى حوادث
لو تبقى إلى الآن لما بقى منى أثر (٢٦) •

ومنه قول الشاعر :

ولو يدفن التيمى ثم دعـوته

الى فضل زاد جاء يسعى من القبر

ويحصل مما سبق في — لو — أنها تدخل على المضارع
للدلالة على :

- ١ — امتناع الاستمرار •
- ٢ — تحقق الوقوع •
- ٣ — استحضار الصورة •
- ٤ — فضاءة الفعل •

(٢٥) المرجع السابق ٨٤/٢ •

(٢٦) المطول ١٧٣ •

ثالثا : استعارة اسم الفعل والفعل الذى لا مصدر له :

واسم الفعل مثل - هيهات - وتبعية الاستعارة فيه تكون بالنظر الى مصدر الفعل الذى يكون اسم الفعل بمعناه • فهيهات بمعنى بعد فاذا استعيرت لمعنى عسر تجرى الاستعارة بين العسر والبعد اللذين هما مصدرى الفعلين • عسر وبعد وذلك على النحو التالى :

أولا : مذهب الجمهور شبه العسر بالبعد واستعير البعد للعسر واشتق من البعد بمعنى العسر بعد بمعنى عسر وجعلت - هيهات • بمعنى بعد المستعار لمعنى عسر •

ثانيا : مذهب الصام • شبهنا مطلق العسر بمطلق البعد فيسرى التشبيه الى فرد يهما اللذين فى ضمنى بعد وعسر واستعرنا بناء على هذا التشبيه الحاصل بالسراية بعد لمعنى عسر •

وأما الأفعال التى لا مصادر لها تحقيقا مثل يذر ويدع ونعم وبئس فان استعارتها تاتبع المصادر المقدرة من معانى هذه الأفعال • (فيقدر لها مصادر ويقدر التشبيه فى أحداث هذه الأفعال ثم الاستعارة فى مصادرها المقدرة ثم اشتقاق هذه الأفعال منها) (١) •

ففى استعارة يذر لمعنى يذهب يجرى التشبيه بين مصدر الفعل • ذهب والمصدر المقدر من معنى الفعل • يذر وهو الترك • فنشبه الذهاب بالترك فى مطلق الاعراض ويستعار الترك للذهاب ويشتق منه يترك بمعنى يذهب ويجعل يذر بمعناه •

وفى استعارة نعم لبئس نجرى التشبيه فى المصدر المقدر • فنشبه المدح بالذم فى ارتياح النفس وانبساطها تنزيلا للتضاد منزلة التناسب تهكما ونستعير المدح للذم ونشتق منه مدح بمعنى ذم ونجعل نعم بمعناه ومن استعمال - هيهات قول المتنبى •

اليوم عهدكم • فأين الموعد
هيات ليس ليوم عهدكم غد
الموت أقرب مخلباً من بينكم
والعيش أبعد منكم لا تبعدو

فهو يخاطب أحبته في لقاء الوداع الذى جعله يزفر زفرات
حارة من غروب حياته وتسلط شبح الموت عليه وكأنه حيوان يمد مخلبه
اليه ويتساءل • متى اللقاء ؟ فيستأنف الجواب مصدراً بهذه الكلمة —
هيات — الدالة على معنى التباعد والتعسر • اذ ليس ليوم وداعه غد •

والعسر الحسى والمعنوى في اعتبار الاستعارة سواء (ودعوى
أنه متى كان لأمر حسى لم يكن وجه الشبه في المشبه به أقوى لا يخفى
بطلانها) (٢) •

استعارة الأسماء المشتقة

والمراد بهذه المشتقات • هى اسم الفاعل والمفعول والصفة
المشبهة والتفضيل والمكان والزمان والآلة • وتشارك جميعها في أن
الأهم والمقصود منها هو المعنى المصدرى وأن استعارتها تبعية • ولكنها
تفترق في أن منها ما وضع لذات مبهمه باعتبار وصف معين وهو
المسمى بالصفة وهى الأربعة الأولى — فالوصف فيها لا يدل على تعيين
الذات مثل قائم • فان معناه ذات ما متصفة بالقيام ولذلك يجد
العقل ليربطه بشيء يتعين عنده فلا تقع موصوفة وانما تقع واصفة
لغيرها •

ومنها ما وضع لذات معينة باعتبار وصف معين وهو اسم
الزمان والمكان والآلة كمقتل ومفتاح فانه يدل على خصوصية تلك
الذات من أنها زمان أو مكان أو آلة (٣) •

وجعل اسم الزمان والمكان والآلة من المشتق هو احدى طريقتين

(٢) المرجع السابق •

(٣) ينظر حاشية الانبىابى ٣٢٣ •

والأخرى أنها جوامد وسبب الخلاف هو اختلافهم في المشتق هل هو ما أخذ من المصدر للدلالة على ذات متصفة بحدث أو ما أخذ منه للدلالة على ذات وحدث فهي على الثانى مشتقة وعلى الأول غير مشتقة (٤) •

وفرق البلاغيون بين الفعل والمشتق بحسب الوضع • فالفعل دال على حدث وزمان ونسبة والمشتق دال على حدث وذات ونسبة والهدف من هذا التفريق هو بيان أن الزمن لا يدخل في المشتق وإذا كان كذلك بعدد عن استعارة الزمن : (وإنما حققنا المقام ليظهر عدم دخول الزمان في مفهوم شيء من المشتقات سوى الفعل واسم الزمان ••••• والفرق بينهما من جهة النسبة • فالنسبة في الفعل هي النسبة إلى الفاعل على جهة القيام به أو الوقوع منه وفي اسم الزمان على جهة الوقوع فيه (٥) •

فاستعارة اسم الفاعل كقوله تعالى : « **فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين** » أى ساكنين وهادئين وأصل الخمود للنار كما قال لبيد :

وجدت أبى ربيعاً لليتامى

وللضيفان اذ خمّد الفئيد

فبعد أن جعلوا كالزراع المحصود في الاستئصال عبر عن سكونهم بالخمود وهو المناسب لقوله - حصيداً - إذ السكون يترتب على الحصد فهنا ترتب في وقوع الأحداث فشبهه سكون هؤلاء الظلمة وانقطاع أصواتهم وحركاتهم بخمود النار وكأن وجودهم كان وجوداً محرقة ومؤذياً ولكن الله أخمّد جذوتهم وأسكن لهيبهم • واستعير المشبه به للمشبه واشتق منه بالمعنى المذكور • خامدين بمعنى ساكنين • ومعلوم أن ذلك بعد التناسي والادعاء ومثله (ان كانت الاصيحة واحدة فاذاهم خامدون) ومنه قوله تعالى : « **وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية** » استعير العتوة للشدة والتمرد •

(٤) المرجع السابق ٣٧٥ •

(٥) المرجع السابق •

وقال الشاعر :

أنت في خضراء ضاحكة

من بكاء العارض الهن

جعل تفتح الأزهار ضحكا وبعد التشبيه والتناسي والادعاء استعير الضحك لتفتح الأزهار واشتق من الضحك بمعنى التفتح ضاحكة بمعنى متفتحة أزهارها •

وقال الشاعر :

أغرك منى أن حبك قاتلى

وأنتك مهما تأمرى القلب يفعـل

جعل ما أصابه به من السقم والاضناء بسبب الحب قتلا واستعار القتل له • واستعارة اسم المفعول كما في قوله تعالى : « **ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك** » وحقيقته لا تمنع نائك كل المنع والاستعارة أبلغ لأنه جعل منع النائل بمنزلة غل اليد الى العنق وذلك مما يحسن حال التشبيه فيه بالمنع فيهما الا أن حال المغلول اليد أظهر وأقوى فيما يكره (٦) •

والرمانى يفسر المنع كذلك من الوجهة النفسية فليس هو مجرد منع وانما هو المنع عما يكره ولذلك كان اللفظ المستعار أبلغ لدلالته على هذا الكره فثبته المنع بالغل واستعير الغل له واشتق منه بمعنى المنع مغلولة بمعنى ممنوعة ولعل التعبير عن هذا المنع باسم المفعول يشير الى أن من طبيعة الفطرة الانسانية الجود اعترافا بفضل المنعم الأكبر ولكن النفس الأمارة بالسوء هى التى تقيد براءة الجوارح عن طاعة الفطرة • فكان النفس حينئذ آمرة واليد مأمورة بهذا البخل ومنقادة لغيرها فى هذا الفعل • ولذلك برز هذا المعنى بصيغة اسم المفعول الذى يعنى وقوع شئ على شئ آخر وان أخذت الهيئة المكونة من اليد والغل لفعل الشحيح فى منعه كانت استعارة تمثيلية •

ومنه قول الشاعر :

مقدوفة بدخييس النحض بازلهما

له صريف صريف القعو بالمسدد

مقدوفة أى لعظم خنقها وتراكب لحمها كأنها قد رميت باللحم رميا •
والدخييس الكثير المتداخل والنحض • اللحم • والقعو • الذى فيه البكر
إذا كان من خشب وان كان من حديد فهو خطاف • والبازل • الناب
والصريف صوته والمسدد الحبل •

يصور النابغة قوة ناقته ونشاطها فيجعل احكام خلقها وتراكب
لحمها قذفا باللحم واستعير القذف باللحم لعظم الخلق واحكامه واشتق
منه مقدوفة بمعنى عظيمة الخلق قوية الاحكام •

ومن استعارة اسم التفضيل :

ولئن نطقت بشكر برك مفصحا

فلسان حالى بالشكاية أنطق

شبهت الدلالة بالنطق واستعير النطق لها واشتق منه أنطق بمعنى
أدل ومن استعارة الصفة المشبهة قوله تعالى : « **وفى عاد إذ أرسلنا
عليهم الريح العقيم** » وأصل العقم • هزمة تقح فى الرحم فلا تقبل
الولد • وكذلك الريح المهلكة • لا ثمرة لها من تلقيح شجر وارسال
مطر • شبهت هذه الحالة بحالة العقم فى المرأة بجامع الخلو عن الفائدة فى
كل •

وكانت كلمة — العقم — أدل على الاهلاك التام لما لها من دلالة على
الانقطاع التام عن الخير ولذلك تجيء فى القرآن الكريم وصفا للعذاب
الذى لا تعقبه رحمة إذ (لم يستعمل القرآن كلمة العقيم وصفا للعذاب
الا فى وصف عقاب الذين كفروا ولا يزلون) : « **فى مرية منه حتى تأتيهم
الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم** » • وقد جاءت وصفا للريح — فى
الآية السابقة — وأفادت نفس المعنى لأن عاد لم تر لهم باقية (٧) •

ومنه قولهم لشعيب « انك لانت الحليم الرشيد » استعير الحليم
والرشيد للسفه والغى قاصدين السخرية والاستهزاء •

ومن استعارة اسم المكان قوله تعالى : « قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعثنا
من مرقدنا » • فكلمة — مرقد — اما أن نعتبرها اسم مكان واما مصدرا
ميميا •

فان كانت اسم مكان للرقاد وهو القبر كانت استعارته تبعية •
ولما كان المعنى القائم بالمكان هو المقصود • نقول • شبه الموت
بالرقاد في عدم ظهور الأفعال الاختيارية واستعير الرقاد للموت واشتق
منه بمعنى الموت — مرقد — بمعنى مكان الرقاد •

وان كانت مصدرا ميميا كانت استعارته أصلية •

وحكى الألوسى مذهباً ثالثاً وهو أن يكون المرقد على حقيقته والقوم
لاختلاط عقولهم ظنوا أنهم كانوا نياماً ولم يكن لهم ادراك لعذاب
القبر لذلك استفهموا عن موقظهم (٨) •

واستعارة اسم الزمان مثل هنا مقتل محمد — تشير الى زمان
ضربه ضرباً شديداً واسم الآلة كقولك عن الوزير — مفتاح السلطان •
شبهت الوزارة بالفتح لنحو الباب المغلق بجامع التوصل الى المقصود
واستعير الفتح للوزارة واشتق منه مفتاح بمعنى وزير •

وأمثلة المبالغة مثل • قتال الفسقة بمعنى كثير الضرب لهم • ومنه
قول البارودي في وصف سحابة :

ضحكة كثيرة النواح

منشورة في الأفق كالوشاح (٩)

شبه لمعها البسارق بالضحك في الاشرار والتهلل واستعار الضحك
للمع واشتق منه بالمعنى المذكور • ضحكة — صيغة مبالغة على وزن فعالة
بمعنى كثيرة اللمع والبرق •

(٨) روح المعاني ٢٣/٣٢ •

(٩) ديوانه ١/١٧٣ •

واستعارة المشتقات السابقة كانت بالنظر الى المادة أى الحدث وقد يستعار المشتق باعتبار الهيئـة من حيث دلالتها على الذات • كاستعارة المرقد بكسر الميم اسم آلة لمعنى المرقد بفتحها اسم مكان قصدا للمبالغة في وصف مكان الرقود بأن له دخلا عظيما في ارقاد كل من استقر فيه بحيث كأنه يتوسط بين الحدث الذى هو الرقود وفاعله الذى هو الرائد في اتصافه به توسط الآلة والأصل في هذه الحالة الذات (.....) •

وتتبيها للحديث عن المشتقات نذكر أن العلامة الصبان بعد أن فرغ من الحديث عن استعارة المشتقات الحقيقية قال : (هل يدخل في المشتق المصغر والمنسوب لأنهما مشتقان حكما ؟) (١٠) •

وقد أجاب بأن بعضهم صرح بأن المراد بالمشتق ما كان مشتقا حقيقة أو حكما وعلى ذلك يدخلان في اطار الاستعارة التبعية ولكن ليس هذا محل اتفاق من البلاغيين لأن منهم من قاسها على العلم المشتهر بصفته واستعارته أصلية عند الجمهور وتبعية عند العصام في أحد أقواله •

والصبان يفرق بين — حاتم — وبين ما هو مشتق حقيقة أو حكما فيقول لأن كونه في تأويل المشتق ليس بالوضع الأصلي بخلافهما فان كونهما في تأويل المشتق بالوضع الأصلي فيهما كاسم الفاعل والذى ينبغى عندى أن تكون استعارتهما تبعية أى تابعة لاستعارة مصدرى المشتقين اللذين هما بمعناهما أعنى بهذين المشتقين لفظ صغير ولفظ منتسب الى كذا مثلا قياسا على مذهب الجمهور في مثل ذلك أو مجرد تشبيهه قياسا على مذهب العصام (١١) •

فهو يرجح كون استعارتهما تبعية ويفرق بين حاتم والتأويل في هذه الأسماء المشتقة بأن كون حاتم متأولا بالمتناهى في الجود أمر عارض على أصل الوضع وذلك ما رجح كون استعارته أصلية وهذا

(١٠) الرسالة البيانية ٣٧٧ •

(١١) المصدر السابق ٣٧٨ •

بخلاف الأسماء المشتقة حكما فهي بانوضع الأصلي فنقول في — هذا رجيل — اذا أريد به رجل كبير يتعاطى ما لا يليق به • شـبـه تعاطى ما لا يليق بالصغر بجامع سـقـوط الهيبة في كل وبعد التشبيه والادعاء استعير لفظ الصغر لتعاطى ما لا يليق واشتق منه بهذا المعنى لفظ صغير بمعنى متعاطى ما لا يليق به أو نشبه مطلق تعاطى ما لا يليق بمطلق الصغر فيسرى التشبيه من الكليين الى فرديهما من المشبه والمشبـه به اللذين في ضمنى متعاطى ما لا يليق ورجيل ويستعار بناء على هذا التشبيه الحاصل بالسراية لفظ رجيل لتعاطى ما لا يليق •

ومثله في لفظ — قرشى — لمصرى يتخلق بأخلاقهم الحسنة • فنشبه التخلق بأخلاق قریش بالانتساب اليهم واستعير الانتساب للتخلق واشتق منه المنتسب الى قریش بمعنى المتخلق بأخلاقهم •

أو نشبه مطلق التخلق بمطلق الانتساب اليهم فيسرى التشبيه الى فردى المشبه والمشبـه به الذين في ضمنى متخلق وقرشى ويستعار بناء على هذا التشبيه الحاصل بالسراية لفظ قرشى للمتخلق بأخلاقهم •

وألجـراء الأول على رأى الجمهور والثانى على مذهب العصام •

ومنه قول الشاعر :

أيوعدنى الأخيطل من بعيـــــــــد

وقد لاقى اســـــــــننتا شـبـاكا

فالشاعر ينكر أن يتوعده الأخطل وكأنه اعتبر أن هذا الوعيد منه تعاطى ما لا يليق من الهجاء وبخاصة في هذا الوقت الذى أحاطت به الأسنة كالشباك ولعله لذلك استخدم صيغة التصغير التى تدل على هذا المسلك المشين • وتجـرى استعارته كسابقة •

وكذلك عرض لاستعارة المبهمات أى الضمير واسم الاشارة واسم

الموصول •

وقد اختلفت وجهة نظر العلماء في تحديد نوع استعارتها من حيث الأصلية والتبعية • وكان منطلق القول بأصلتها أو تبعيتها هو

الاختلاف حول أصل الوضع فيها فمن ذهب الى أنها جزئيات وضعا واستعمالا أى أنها لم توضع لمفهوم كلى كاسم الجنس الذى تختص به الأصلية فتكون استعارتها تبعية وهو مذهب العُضد والسيد ••

وأما على مذهب السعد والجمهور فهى كليات وضعا جزئيات استعمالا فيحتمل اعتبار الوضع فتدخل فى اسم الجنس وتكون استعارتها أصلية (١) •

ورأى السبكي احتمالين فى أن الضمير واسم الإشارة موضوعان على أن يعودا على ما يراد منهما من حقيقة أو مجاز وعلى ذلك فلا تجوز فيهما وأما أن يتجوز فيهما تبعا للتجوز فيما يرجعان اليه فتكون استعارتهما تبعية وليست التبعية هنا كالتبعية التى تتبع المعنى المصدرى بالتشبيه أو الاستعارة ولكن التبعية هنا معناها أن تتبع التجوز فى المرجع ففى قولك - رأيت أسدا فى الميدان فأكرمته - فيستعار الضمير بناء على التشبيه والاستعارة فى الأسد من المرجع الحقيقى أى الحيوان المفترس للمرجع المجازى أى الرجل الشجاع • (فالتبعية - هنا - بمعنى أعم من التبعية المتعارفة عند القوم إذ المتبوع فيهما وهو المرجع ليس أحد المتبوعات فى التبعية المتعارفة (٢) •

قال السبكي (واعلم أن الاستعارات الواقعة ضمائر أو أسماء اشارات لها حكم ما يطابقه من مفسر ان كان ضمائر ومشار اليه ان كانت أسماء اشارة والظاهر أنها كلها داخله فى التبعية فان الاستعارة فيها باعتبار الاستعارة فيما ترجع اليه أو يقال انها لا يتجوز بها فان وضعها أن تعود على ما يراد بها من حقيقة ومجاز فاذا قلت رأيت أسدا يرمى فأكرمته فضمير المفعول حقيقة لعوده على مفسره وذلك وضعه واذا قلت يا أيها الأسد الرامى بالنبل مشير الى الانسان فالضمير فى قولك الرامى حقيقة (٣) •

(١) حاشية الانباجى ص ٣٩٨ •

(٢) الرسالة البيانية ص ٣٩٩ •

(٣) شروح التلخيص ٤/ ١١١ •

والأرجح أنها تتبعية لدليلين :

الأول : أنها ليست باسم جنس لا تحقيقا ولا تأويلا لأن معانيها جزئيات والأصلية مختصة به أى باسم الجنس •

الثانى : أن أصالة الاستعارة تتوقف على أصالة التشبيه أى على جريانه فى نفس مفهومي الطرفين وهذا لا يتصور الا فيما يصلح لأن يكون موصوفا ومحكوما عليه بسبب الاستقلال فى الانفهام ومفهومات المبهمات ليست كذلك لأنها محتاجة الى ضم ضميمة حتى يتم فهمها من الألفاظ الدالة عليها ومما يرشدك الى هذا ما يقال فى توجيه بنائها أنها شابهت الحروف وأنها لا يتم معناها ولا تصلح لأن يحكم عليها بشيء ما لم يذكر تصريحاً أو تقديراً ما يتم به معناه فى الفهم مثل المشار اليه والصلة والمرجع وغيرها وإذا كان الأمر كذلك فلا يتصور فيها التشبيه والاستعارة أصالة بل لا بد أن تعتبر التشبيه أولا فى كلييات تلك المعانى الجزئية ثم يعتبر سريان التشبيه منها اليها فتبنى الاستعارة على ذلك التشبيه الحاصل بالسراية فتكون تتبعية (١) •

وعلى ذلك فاسم الاشارة الذى وضع فى الأصل لأن يشار به الى محسوس مشاهد اذا استعمل فى غير هذا الأصل يكون استعماله فى غير ما وضع له على سبيل التبعية •

فاذا استعمل فى المعقول فلتنزيهه منزلة المحسوس المشاهد بالبصر • وكذلك لو استعمل فيما يستحيل احساسه كقوله تعالى : « **تلك الجنة** » فلتصويره كالمحسوس المشاهد وذلك على سبيل المجاز (١) فى كونه قطعى الوجود لا شك فيه •

فاذا قلت : هذا رأى عظيم • فقد استعرت اسم الاشارة من المحسوس الى المعقول فيقال فى اجرائها • شبه المعقول مطلقا بالمحسوس مطلقا فى قبول التمييز والتعيين فسرى التشبيه من الكليين الى الجزئيات

(١) الرسالة البيانية ٣٩٨/٣٩٩ •

(١) ينظر المطول ٧٧ وحاشية الصبان على الاشمونى ١/١٣٨ •

فاستعرنا بنساء على هذا التشبيه الحاصل بالسراية لفظ هذا من
جزئى المشبه به الى جزئى المشبه •

وعليه قول الشاعر :

(لا أستطيع لهذا الحب كتماننا)

وكذلك يستعار اسم الاشارة المفرد لغيره كما فى قوله تعالى :
« عوان بين ذلك » أى الفارض والبكر (٢) •

وينزل التقريب منزلة البعيد لعظيم منزلته كما فى قولها عن
يوسف : « فذلكن الذى لمتننى فيه » فقالت - ذلك - وهو حاضر بدليل
قولهن « ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم » رفعا لمنزلته الفائقة
فى الحسن وأنه جدير بأن تفتتن فيه النساء وكأنها تعتذر عما فعلته
معه بذلك • وكأن اسم الاشارة بهذه النصيغة المجازية يرمى بفكرتين
مزدوجتين •

الأولى : تقرير المنزلة العالية التى تبوأها يوسف بحسنه الملائكى
الذى خرج به عن مراتب البشرية فكأنه أمر غريب وبعيد •

الثانية : ما يلزم هذا من التماس المذرة لها حيث لم تملك
السيطرة على نفسها أمام رغبتها الجامحة •

وذهب بعض المفسرين الى أن اسم الاشارة يعود على (حب
يوسف) فعلى فرض هذا يكون من باب تنزيل المعقول منزلة المحسوس
أيضا كما سبق •

وكذلك ينزل البعيد الذى لا يرى منزلة القريب المرئى كما فى قوله
تعالى « هذا وان للطاغين لشر مآب » فقوله - هذا - استعارة لأنه
انما يستعمل حقيقة فيما كان قريبا مشارا اليه (١) •

(٢) حاشية الصبان على الاشمونى ١/١٣٨ •

(١) الطراز ١/٢٥٤ •

أى أن الإشارة هنا راجعة الى ما أعده الله للمتقين من ألوان النعيم والكرامات فى الجنة فنزل ذلك منزلة القريب المرئى فى كونه قطعى الوجود والتحقيق لا شك فيه ولذلك جاءت الصياغة عنه فى مواضع أخرى بلفظ الماضى للتحقيق كما فى قوله تعالى : « أعدت للمتقين » وصياغته على هذا الوضع تحمل فى طياتها التبشير للمتقين والتقريع للطاغين .

« وقد يجرى المجاز فى أسماء الإشارة كقولك أعجبنى هذا الرجل وان كان غائبا عنك لأن الحقيقة فيه لمن كان حاضرا بقربك » (٢)

وكذلك يستعار اسم الموصول المؤنث للمذكر والعكس فى صفة مشتركة بينهما ففى استعارة - التى - للذى - نقول • شبه المذكر مطلقا بالمؤنث مطلقا بجامع اتخذت وعدم الشهامة فسرى التشبيه من الكلين الى الجزئيين واستعرنا بناء على هذا التشبيه الحاصل بالسراية اسم الموصول الجزئى الموضوع للمؤنث لاسم الموصول الجزئى الموضوع للمذكر •

وكذلك يستعار ضمير المؤنث للمذكر والعكس • فاذا قلت لنسوة - انى منتظركم • فقد شبهت مطلق مخاطبة فيها عظمة بمطلق مخاطب فيه عظمة بجامع العظمة فى كل فسرى التشبيه من الكلين الى الجزئيات فاستعير ضمير جماعة الذكور من جزئى المشبه به لجزئى المشبه استعارة تبعية (١) •

ولو قلت لجماعة الذكور - انى منتظركن - كان على تشبيه مطلق مخاطب فيه تخنث بمطلق مخاطبة فيها تخنث بجامع التخنث فى كل وهو الصفة المشتركة بينهما فيسرى التشبيه من الكلين الى الجزئيات فنستعير بناء على هذا التشبيه الحاصل بالسراية الضمير الجزئى الموضوع للمؤنث للضمير الجزئى الموضوع للمذكر •

ومن استعمال ضمير المذكر فى المؤنث للتعظيم قول الشاعر :

(٢) السابق ١/١٠١ •

(١) علم البيان ١٤٦ •

قد يتم القلب حتى زاده خبلا
من لا يكلم الا وهو محبوب

فهو يتحدث عن صاحبه التي قاسى في سبيلها أشد أنواع العذاب
ولكنها حجت عنه فعبر بضمير المذكر - هو - عن ضمير المؤنثة -
هي - قصدا الى التعظيم فيقال - شبه مطلق غائبة بمطلق غائب
فسرى التشبيه من الكليات الى الجزئيات وبناء عليه استعير الضمير
المذكر من جزئى المشبه به لجزئى المشبه •

ومن استعمال ضمير الجمع في المفرد قول الشاعر :
ونحن لدى أعضاد خوص مناخه

أصاب عظاما من أخشيتها المبرى

فهو يتحدث عن نفسه حيث ألم به طيف صاحبه وهو يقيم بالقرب
من نياقه الغائرة الأحداق المجهدة من السير • فوضع ضمير الجمع
- نحن - موضع - أنا - للتعظيم • فنشبه مطلق فرد متكلم معظم
بمطلق جماعة متكلمين في التعظيم فيسرى التشبيه من الكليات الى
الجزئيات ونستعير بناء على هذا التشبيه الحاصل بالسراية ضمير
الجمع الجزئى لضمير المفرد الجزئى ••

وقد أشار العلوى الى مثل ذلك بقوله : (••• نحن فانه حقيقة
في الجمع وقد يقال للواحد العظيم مجازا) (٢) •

استعارة الحروف

عرضنا طرفاً من مناقشات البلاغيين في التعليل لتبعية الاستعارة في الفعل والمشتقات والحروف وتبين أن الحروف غير مستقلة بالمفهومية لأنها عبارة عن آلات وروابط لا يظهر أثرها إلا في السياق مع غيرها .

ويتفق الخطيب والسكاكي في القول بتبعية الحرف ولكن نكل وجهة في تحديد هذه التبعية . فالخطيب يرى أن تبعية الاستعارة في الحرف إنما هي تابعة للتشبيه في مدخول الحرف أما السكاكي فيرى أن تبعية هذه الاستعارة تابعة للاستعارة في متعلق معنى الحرف الكلي الذي يرجع إليه معنى الحرف الجزئي (١) .

وهذان الرأيان قد صدرا عن أصل واحد وهو تحليلات الزمخشري في المكشاف للآيات التي تضمنت هذا النوع من الاستعارة ولذلك قال أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى « وقد فكرت كثيراً في كلام الزمخشري في هذا الموضوع لأقف على مراده وأتبين في أيهما يكون التشبيه والاستعارة في الحرف أم في مدخوله وكلماته في نظري وجه نظرت فوجدت الآخر لا يقل عنه قوة فكلامه صريح في أن التشبيه والاستعارة يجريان في مدخول الحرف وكلامه صريح أيضاً في أن اللام مستعارة كاستعارة الأسد للرجل الشجاع وقد بان لي أن كلام الزمخشري يصح أن يستدل به على الجهتين » (٢) .

وأشير كذلك إلى أن القول بمجازية الحرف إنما هو مسابير لمذهب البصريين الذين يرون أن كل حرف وضاع لمعنى حقيقى واحد ويمنعون نيابة بعض الحروف عن بعض فاذا انتقل الحرف من معناه الوضعى أولوا ذلك تأويلاً يتفق مع مدلول اللفظ أو ضمنوا الفعل معنى فعل آخر .

(١) ينظر المفتاح ١٨٠ وبغية الايضاح ٣ .

(٢) البلاغة القرآنية ٤٢ .

ولكن الكوفيين يرون أن الحرف قد أعطى أكثر من معنى فأجازوا نيابة بعض الحروف عن بعض وكأن الحرف ليس مرتبطاً عندهم باندلالة على معنى معين بحيث إذا انتقل إلى معنى آخر يحكم بمجازيته وإنما له من سعة الاستخدام وكثرة المعاني ما يجعله في مواطن كثيرة له في جميعها سمة الأصالة التي تطبعه بطابع الحقيقة ولذلك قال المرادى (٧٤٩ ت هـ) وما تقدم من نيابة انباء عن غيرها من حروف الجر هو جار على مذهب الكوفيين ومن وافقهم في أن حروف الجر قد ينوب بعضها عن بعض ومذهب البصريين ابقاء الحرف على موضوعه الأول إما بتأويل يقبله اللفظ أو تضمين الفعل معنى فعل آخر يتعدى بذلك الحرف (١) .

والمواقع أن الكوفيين بذلك يهملون شطرا كبيرا من هذه الصور التي قامت على أساس نقل الحرف من مكانه الموضوع له إلى استعماله في مكان مجازي جديد وهي ذات خصوصية فنية وعمق في الدلالة ولذلك كان المذهب البصري أقرب إلى روح التصوير والبيان .

ومثالها قوله تعالى : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » (٢) . والآية تصور حالة التمكّن والاستقرار للمتقين الذين ترقوا في مراقى الإيمان بالغيب وإقامة العبادات وما أنزل على الأنبياء وبيوم القيامة وما فيه حتى أصبحوا على هذه الأرض الصلبة من الهدى تمسكا به واستعلاء عليه وتمكنا منه تمكن الفارس الماهر من فرسه الجواد الذلول ينطلق برشد ويمشى على بصيرة بلا تعثر ولا كبوة وكانت النتيجة الحتمية لذلك أنهم هم المفلحون .

وشاهدنا هو (على هدى) لأن — على — موضوعه للاستعلاء الحسى ومدخولها ليس كذلك فتخرج على المجاز فيقال . شبه مطلق الارتباط بين الهدى وهؤلاء بمطلق الارتباط بين مستعل ومستعل عليه بجامع التمكّن والاستقرار في كل فسرى التشبيه من الكليين إلى انجزئيات واستعير ببناء على هذا التشبيه الحاصل بالسراية لفظ على من جزئى من جزئيات المشبه به لجزئى من جزئيات المشبه .

(١) الجنى الدانى فى حروف المعانى ١٠٨ / ١٠٩ .

(٢) البقرة ٥ .

أو يقال : شبه الهدى بالمستعنى عليه الحسى ثم استعيرت — على —
تبعاً لهذا التشبيه من جزئى المشبه به لجزئى المشبه •

أو يقال استعير المشبه به للمشبه وحذف ورمز اليه بشيء من
لوازم وهو على سبيل الاستعارة المكنية واثبات اللازم تخييل — وهو
قرينة المكنية •

وإذا أخذنا فى الاعتبار أن المركب يمكن أن يدل عليه بلفظ مفرد
كما هو مذهب السعد وانذى انطلق منه الى تجويز اجتماع التبعية
مع التمثيلية كما فى الآية السابقة : « حيث كانت الحروف من حيث
الوضع تدل على معانى اضافية تستدعى عدة أمور تكون هيئة وان كان
لفظها مفردا مثل — على — فانها تستدعى مستعليا ومستعليا عليه
واستعلاء بينهما ولذلك كان المركب عنده على صورتين المركب الذى
يقصد فيه الى عدة أشياء مختلفة أو المركب الذى يقصد فيه الى عدة
أوصاف لشيء واحد فتنتزع منها هيئة وتجعلها مشبعا أو مشبها به أو
وجه شبهة » (١) •

هذا وقد جاءت تعليقات الزمخشري مؤيدة مذهب السعد كما فى
قوله : (ومعنى الاستعلاء فى قوله — على هدى — مثل لتمكنهم من الهدى
واستقرارهم عليه وتمسكهم به شبعت حالهم بحال من اعلى الشيء
وركبه) (٢) •

وذلك بخلاف السيد الذى حذب أن يكون المركب بالمعنى المشهور
ومنع الاجتماع المذكور • وعلى ذلك فقوله (على هدى) يمكن أن تخرج
كذلك على التبعية التمثيلية • أما تبعيتها فلكونها واقعة فى الحرف
وأما كونها تمثيلية فلأن طرفى التشبيه حالة منتزعة من عدة أوصاف
فنقول • شبعت حالهم فى تمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه وتمسكهم
به بحال من اعلى الشيء وركبه وتمكن من أزمته ثم استعيرت
حالة المشبه به لحالة المشبه ودل عليها بحرف الاستعلاء — على •

(١) ينظر المطول ٣٢٢ والرسالة البيانية ٤٥٤ وحاشية الانبأى عليها •

(٢) الكشاف ١/١٤٢/١٤٣ •

وبذلك تكون جملة التخريجات لهذا التركيب وأمثاله على النحو التالي :

١ — على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية كما هو مذهب الجمهور •

٢ — على سبيل الاستعارة المكنية كما هو مذهب ابن يعقوب المغربي •

٣ — على سبيل الاستعارة التبعية التمثيلية كما هو مذهب السعد •

٤ — على سبيل الاستعارة التبعية أو التمثيلية كما هو مذهب السيد •

وعلى نفس المنوال قوله تعالى : « **وانك لعلى خلق عظيم** » والآية ترسم صورة سامقة للأخلاق السامية والشمائل الفاضلة التي تجسدت في شخص الرسول ﷺ ولذلك صيغت الآية بأكثر من مؤكد وبثت في تضاعيف الآية بدءا بـ (ان) ووسطا بـ (اللام) وخاتمة بالاستعارة الحرفية في (على خلق) ووصف الخلق بـ (عظيم) كل ذلك كان بين يديه القسم بالقلم وما يسطره على حصافة عقله وديمومة أجره وكأن كل هذه خلال سطرته أقلام الحفظة في عالم الغيب ويشهدها الناس في عالم الشهادة •

وتأمل قوله : « **على خلق** » تجد أن الاستعارة قد كثفت الأخلاق وجسدتها وذلللتها حتى صارت كالشئ الذي يمتطيه صاحبه وهو متمكن منه • يصرفه كيفما يشاء ونذلك اختار لفظ — الخلق — دون الشمائل أو الفضائل مثلا لأنها يذوب معها كل معنى من معاني التكلف أو الرياء أو التظاهر بالفعل الجميل لأن الخلق هو الكيفية النفسانية التي تصدر عنها الأفعال بسهولة وأريحية وهكذا كان سيدنا محمد ﷺ •

واجراء الاستعارة على النحو السابق :

وواضح أن — على — فيما سبق للاستعلاء المجازي وأما الاستعلاء الحقيقي فكقوله تعالى : « **عابها وعلى الفاك تحداون** » أو فلان على الفرس أو على الجبل •

وأما قولنا : توكلت على الله • فهو بمعنى الاضافة والاسناد أى أضفت توكلت وأسندته الى الله اذ لا يعلو على الله تعالى شيء لا حقيقة ولا مجازاً (١) •

ومنه قوله تعالى : « **قال الملا الذين كفروا من قومهم انا لنراك في سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين** » فعاد لا تكتفى بأن تجعل هود موصوفاً بالسفاهة فقط بل تجعله كأنه مغموس فيها وهي محيطه به كاحاطة الظرف بالمظروف توكيداً لعدم اتباعه ورمياً له بسخافة العقل (لأن حقيقة — فى — أن يكون للظرف احتواء وللمظروف تحييز مثل زيد فى المسجد) قانوا ذلك واجراؤها على الوجه التالى :

شبه الارتباط الحاصل بين هود والسفاهة بالارتباط الحاصل بين الظرف والمظروف بجامع التمكن والاحاطة فى كل فسرى التشبيه من الكليين الى الجزئيات واستعرنا لفظ (فى) من جزئى من جزئيات المشبه به لجزئى من جزئيات المشبه — على سبيل التبعية •

أو • شبه السفاهة بالظرف بجامع مطلق الارتباط والتعلق ثم استعيرت (فى) تبعاً لهذا التشبيه من جزئى المشبه به لجزئى المشبه • على سبيل التبعية •

أو يقال • شبه السفاهة بظرف حقيقى ثم استعير الظرف الحقيقى للسفاهة ثم حذف ورمز اليه بشيء من لوازمه وهو اللفظ (فى) على المكنية ويظهر جمال هذه الحروف عندما تتقابل فى الجملة الواحدة ويجسد كل حرف المعنى المرصود للكشف عنه تجسيدا يترشح من

(١) ينظر حاشية الصيوان على الاشمونى ٢/٢٢٢ •

(٢) المرجع السابق ٢/٢١٨ •

المعنى الومضعى للحرف كما فى قوله تعالى : « وانا اوا اباكم لعلى هدى اوا فى ضلال مبين » • قال الزمخشرى فان قلت كيف خولف بين حرفى الجر الداخلى على الحق والضلال ؟ قلت لأن صاحب الحق كأنه مستقل على فرس جواد ىركضه حيث شاء والضال كأنه منغمس فى ظلام مرتبك فيه لا ىدرى أن ىتوجه (١) •

ومنه قوله تعالى : « فالنقطة آل فرعون لىكون أهم عدوا وحزنا ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين » فاللام فى -- لىكون -- للتعليل المجازى وحقيقة التعليل أن ىترتب على الفعل ثمرته المقصودة كما فى قولنا -- جئت لتكرمنى وضربتة لىتأدب • وحقيقة التعليل فى الآىة والذى التقطوه من أجله هو أن لىكون لهم قررة عىن وولد نافع وقد جاءت الآىة التالية مفصحة عن هذه العلة فقال تعالى : « وقالت امرأة فرعون قرت عىن لى ولك لا تقنأوه عسى أن ىنفعنا اوا نتخذة وادا وهم لا ىشعرون » •

فشبه ترتب العداوة والحزن على الالتقاط بترتب العلة الحقيقية عليه بجامع مطلق ترتب شىء على شىء فسرى التشبیه من الكليات الى الجزئيات فاستعرنا اللام الموضوعة لجزئى المشبه به وهو المحبة والتبنى لجزئى المشبه وهو العداوة والحزن على سبيل التبعية • وقيل ان اللام للصيرورة وعليه فلا شاهد فى الآىة ولكنه منكر من البصريين (٢) • •

ومنه قوله تعالى : « فهل لنا من شفعاء فىشفعوا لنا اوا نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل » فـ (هل) موضوعة للاستفهام الحقيقى وهو طلب الفهم والكفار لىعلمون أن لا شفیع لهم وانما مرادهم التمنى فاستعملوا -- هل -- فى التمنى مجازا على التبعية فى الحرف • بأن شبه التمنى المطلق بالاستفهام المطلق بجامع مطلق الطلب فسرى التشبیه من الكليات الى الجزئيات فاستعيرت هل الموضوعة للاستفهام الجزئى للتمنى الجزئى •

(١) الكشاف •

(٢) حاشية الصبان على الاشمونى ٢/٢١٧ •

أو على سبيل المجاز المرسل من استعمال المقيد في المطلق ثم استعماله في المقيد بيان ذلك أن — هل — لطلاب الفهم فاستعملت في مطلق الطلب ثم استعملت في طلب حصول الشيء المحبوب (٣) •

أو يقال — شبه مطلق التمني بمطلق الاستفهام بجامع تخييلي في المشبه وهو الامكان وعدم الجزم معه بالانتفاء ثم حذف المشبه به ودل عليه بشيء من لوازمه وهو — هل — (٤) • على سبيل الاستعارة الكنية •

ومن الحروف التي تستخدم استخداما مجازيا — يا — التي للنداء • فقد رأى ابن انحاجب أنها حقيقة في البعيد والقريب لاستخدامها فيهما على السواء الا أن الزمخشري يرى أنها حقيقة في البعيد وتستعمل في القريب مجازا لتنزيهه منزلة البعيد (٥) •

فنقول — يا فلان — لمن هو قريب منك • فنشبهه القريب بالبعيد لأمر في المنادى استدعى تبعيده وهو غفلته وعدم تنبيهه • فيسرى التشبيه من العام الى الخاص ونستعير — يا — من جزئى المشبه به لجزئى المشبه •

كما ينزل القريب منزلة البعيد للتنبيه على عظم الأمر وعلو شأنه وأن المخاطب مع تهالكه على الامتثال كأنه غافل عنه بعيده منه كما في قوله تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك » •

أو للحرص على اقبال المنادى أى الرضا والرغبة في ذلك وكأنه أمر بعيده • كما في قوله تعالى : « يا هوسى أقبيل » •

وأما قولنا — يا رب — وهو أقرب انينا من جبل الوريد • فقد استعمل فيه الحرف الذى ينادى به للبعيد لنداء القريب لأمر يرجع الى المتكلم لا الى المنادى وهو استقصار الداعى نفسه واستبعادها من

(٣) شروح التلخيص ٢/٢٤٠ •

(٤) فيض الفتاح على المطول ٣/٢٤٤ •

(٥) ينظر شروح التلخيص ٢/٣٣٤ والمطول ٢٤٤ •

مظان القرب من الله ومقامات الصانحين هضما لنفسه واعترافا
بالتفريط في جنب الله تعالى •

ويبتين مما سبق أن الحروف التي تجرى فيها الاستعارة تشمل
حروف الجر ولام التعليل وأدوات الاستفهام و — ياء — النداء •

كما أن دلالة أدوات الاستفهام على المجاز • لم تتفق كئمة
البلاغيين على تحديد نوع هذا المجاز هل هو استعارة أو مجاز مرسل
أو من مستتبعات التراكيب ؟ •

ولذلك ورد في المطول (ان هذه الكلمات الاستفهامية كثيرا
ما تستعمل في غير الاستفهام مما يناسب المقام بمعونة القرائن
وتحقيق كيفية هذا المجاز وبيان أنه من أى نوع من أنواعه مما لم
يحم أحد حوله • وذلك لصعوبة بيان علاقة المجاز وكيفية المناسبة
المجوزة له) (٦) •

ويرى الدكتور محمد أبو موسى أن عبد القاهر قد أشار الى ما يمكن
أن يكون أصلا لرأى في باب الاستفهام وهو أنه لم يستعمل في الإنكار
ولا في التقرير ولا في غيره وإنما استعمل في التنبيه فهو محض معناه
كما قال وعلى المخاطب أن يجد في التقاط المراد من السياق وحسبه
هذا التنبيه ويبقى في المسألة شيء واحد هو بيان وجه استعمال
الاستفهام في محض التنبيه هل هو حقبقة أو مجاز أو كناية ؟ (٧) •

(٦) دلالات التراكيب ٢٦٠ •

(٧) ينظر المطول وحاشية السيد عليه ٢٢٥ •

الاستعارة بالكناية :

وهذا وجه آخر من أوجه المجاز الذى يقوم عليه عمل المبدعين فى صياغة ما يدور فى أحاسيسهم أو يقع تحت بصائرهم • فاذا كان المجاز السابق فى التصريحية عماده جعل الشئ شيئاً آخر كما فى جعل الرجل الشجاع أسداً والفتاة الحسناء قمراً والذهب سنخاً والاضطراب موجاً وزلزلةً والاستعلاء المعنوى حسياً وما الى ذلك مما مضى •

فان هذا المجاز أساسه أن نجعل للأشياء أشياء ليست لها على طريق التخيل والتوهم وبذلك تبرز ملفعة بأثواب غيرها حاملة لصفات أخرى لا توجد فى بنى جنسها • فنرى بها الجماد مثلاً له صفات انسانية من الحس والحياة والحركة والمحادثة وما الى ذلك مما سيظهر عند عرض الأمثلة •

وقد مضى بنا حديث عبد القاهر الذى أشار فيه الى نوعى الاستعارة – التصريحية والمكنية – وقد بين أن جعل اليد للشمال قائم على التخيل والتوهم فى أن الشمال فى تصريف الغداة على حكم طبيعتها كالمدير والمصرف لما فى زمامه يبيده ومقادته فى كفه وذلك كله لا يتعدى التخيل والتوهم والتقدير فى النفس من غير أن يكون هناك شئ يحس وذات تتحصل (١) •

وكان عبد القاهر بارعاً فى تحليل الاستعارتين تحليلاً فنياً قائماً على النظر الفنى الدقيق الذى ينظر الى الغرض من تركيب من ناحية والى التشبيه الذى يقوم عليه التركيب من ناحية أخرى •

فبالنسبة للتصريحية الغرض منها هو المبالغة فى التشبيه (٢) • ويقول أيضاً : « ومعلوم أنك أفدت بهذه الاستعارة ما لولاها لم يحصل لك وهو المبالغة فى وصف المقصود بالشجاعة وإيقاعك منه فى

(١) ينظر أسرار البلاغة ١/١٣٩ •

(٢) المرجع السابق ١/١٣٨ •

نفس السامع صورة الأسد . . . » (٣) •

وبالنسبة للمكنية فالغرض منها هو المبالغة في تحقيق التشبيه فقال
« وغايتك التي لا مطمع ورائها أن تقول أراد أن يثبت للشمال في الغداة
تصرفا كتصرف الانسان في الشيء يقلبه فاستعار لها اليد حتى يسانع
في تحقيق التشبيه » (٤) •

وأما بالنسبة للتشبيه فهو في التصريحية واضح جلي وفي المكنية
دقيق لا يتوصل اليه الا بعد فكر فقال : « ويفصل بين القسمين أنك اذا
رجعت في القسم الأول الى التشبيه الذي هو المغزى من كل استعارة
تفيد وجدته يأتيك عفوا كقولك في رأيت أسدا رأيت رجلا كالأسد
ورأيت مثل الأسد أو شبيها بالأسد وان رمته في القسم الثاني وجدته
لا يأتيك تلك المواتاة اذ لا وجه لأن يقول اذ أصبح شيء مثل اليد للشمال
أو حصل شبيهه باليد للشمال وانما يتراءى لك التشبيه بعد أن
تخرق اليه سترا وتعمل تأملا وفكرا وبعد أن تغير الطريقة وتخرج عن
الحذو الأول كقولك اذ أصبحت الشمال ولها في قوة تأثيرها في الغداة شبه
المالك تصريف الشيء بيده » (٥) •

ولعل الخطيب نظر الى هذا التشبيه المستور فجعله هو الاستعارة
المكنية ولذلك قال : (قد يضم التشبيه في النفس فلا يصرح بشيء من
أركانه سوى لفظ المشبه ويدل عليه بأن يثبت للمشبه أمر مختص
بالمشبه به من غير أن يكون هناك أمر ثابت حسا أو عقلا أجرى عليه
اسم ذلك الأمر فيسمى التشبيه استعارة بالكناية أو مكنيا عنها
واثبات ذلك الأمر للمشبه استعارة تخيلية) •

فانخطيب يرى في مثل — أظفار الخيطة — أو — يد الشمال —
استعارتين الأولى هي التشبيه المضمرة في النفس وهو ما سماه استعارة
مكنية والثانية هي اثبات لازم المشبه به للمشبه به وهي الاستعارة

(٣) السابق ١/١٢٦ •

(٤) السابق ١/١٤٠ •

(٥) أسرار البلاغة ١/١٤٠ •

التخيلية وهما أمران معنويان وليس مدلولاً عليهما بالألفاظ المجازية التي هي المستعمنة في غير ما وضعت له ولذلك نوقش كثيراً في جعله التشبيه المضمرة استعارة مكنية وأيسر هذه التوجيهات أنه جعله استعارة لما فيه من الادعاء أى ادعاء دخول المشبه في جنس المشبه به وهذا عماد الاستعارة وأما جعله مكنياً فبالنظر الى أنه تشبيه مضمرة ومستور لا يدل عليه إلا لآزم المشبه به المثبت للمشبه فتحقق فيه معنى الكناية لغة وهو الستر والخفاء (٦) .

وأما عبد القاهر فقد رأى فيها استعارة واحدة وهي القائمة على التخيل والتوهم وبذلك تتلازم المكنية والتخيلية عند الخطيب لأن التخيلية قرينة المكنية ولا توجد استعارة بدون قرينة اذ هي المرشد اليها والادال عليها .

وأما مذهب الجمهور فيراها . لفظ المشبه به المستعمل في المشبه المحذوف والمرموز اليه بشيء من لوازمه أى أنه بعد التشبيه المضمرة يستعار المشبه به للمشبه ثم يحذف ويدل على هذه الاستعارة بلازم المشبه به المثبت للمشبه (فالمسألة لا تنتهي عند التشبيه المضمرة كما يقول الخطيب وإنما يقرر الجمهور مرحلة أعلى في الادعاء والدمج من هذه المرحلة هي تناسي التشبيه ودخول المشبه في جنس المشبه به — الخيال هنا يصعد الى مرحلة أعلى مما هو عند الخطيب) (٧) ويشير الدسوقي الى أن المراد بالسلف الكشاف ومن قبله ومن بعده (٨) .

والسيد في حاشيته على المطول يذكر أن كلام الزمخشري حول قوله تعالى : « ينقضون عهد الله » ما هو الا فهم لكلام القدماء بعينه (٩) .

(٦) ينظر تفصيل هذه التوجيهات في شروح التلخيص ١٥١/٤ وما بعدها .

(٧) التصوير البياني ٢٥٤ .

(٨) شروح التلخيص ١٥٩/٤ .

(٩) المطول ٣٨٣ .

ولكن أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى يرى أن كلام الزمخشري في هذا الموضوع ليس مسبوقا به من أحد قبله (ولهذا نرى أن ما سماه المتأخرون رأى الجمهور وقالوا انه مستمد من كلام السلف ليس الا رأى الزمخشري ولا وجه لهذه التسمية فيه الا أن يكون الجمهور هم أصحاب الحواشي وأكثرهم يختار هذا الرأى فى تحديد المكنية واطلاق الجمهور عليهم ليس صحيحا لأنهم هم أنفسهم الذين يطلقون على هذا الرأى رأى السلف أو رأى الجمهور فلا بد من أن يكون الجمهور غيرهم ثم ان كلام السلف أعنى جماعة المشتغلين بهذه الدراسة قبل عبد القاهر والزمخشري لم تكن لهم آراء بينة كما أشار عبد القاهر وانما هي اشارات ليس رأى الزمخشري أولى بها من رأى عبد القاهر لأنها عامة ويمكن أن تكون أساسا لكل هذه الآراء فى هذا الموضوع وان كنت أميل قليلا الى كلام عبد القاهر (١٠) •

وقد أفاد البلاغيون من كلام الزمخشري حول الآية السابقة أن قرينة المكنية قد تكون استعارة تصريحية ولا يجب أن تكون استعارة تخيلية الا أن يدعى أنها تصريحية باعتبار المعنى المقصود فى الحالة الراهنة وتخييلية باعتبار الاشعار بالأصل (١١) •

قال الزمخشري : (النقض الفسخ وفك التركيب • فان قلت من أين ساغ استعمال النقض فى العهد ؟ قلت من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة لما فيه من اثبات الوصلة بين المتعاهدين ومنه قول ابن التيهان فى بيعة العقبة يا رسول الله ان بيننا وبين القوم حبالا ونحن قاطعوها فنخشى أن الله عز وجل أعزك وأظهرك أن ترجع الى قومك وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشئ المستعار ثم يرمزوا اليه بذكر شئ من رادفه فينبهوا بتلك الرمزة على مكانة ونحوه شجاع يفترس أقرانه وعالم يعترف منه الناس •• (١٢) •

(١٠) التصوير البيانى ٢٥٩ •

(١١) شروح التلخيص ٤/ ١٦٠ •

(١٢) الكشف ١ •

فالحبل مستعار محذوف للعهد ومرموز اليه بشيء من لوازمه وهو النقص وقد لوحظ أن الزمخشري يجرى فيه استعارة تصريحية تبعية باستعارته للابطال والذي سوغ هذه الاستعارة في القرينة هو تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة المكنية فالعلاقة بين العهد والحبل هي التي آنست القول باجراء الاستعارة في الرادف ولذلك ترى أن اجراء الاستعارة في قرينة المكنية ليس على اطلاقه وانما وضع البلاغيون لذلك ضابطا وهو : (ان كان للمشبه في المكنى عنها لازم يشبه ما يرادف المشبه به كانت تلك القرينة منقولة استعارة تحقيقية كما في ينقضون عهد الله وشجاع يفترس أقرانه وان لم يكن للمشبه لازم يشبه الرديف كانت القرينة تخيلية كما في أظفار المنية) (١٣) •

والأولى أن تبقى هذه الروادف على حقيقتها دون اجراء استعارة فيها حتى تعطى التخيل المطلوب في الاستعارة المكنية فنتخيل أن العهد فعلا حبل له خصائصه من النقص والابرام وأن الشجاع فعلا أسد له خصائصه من الافتراس والفتك وبذلك يتحقق الدمج بين الطرفين ويظهر ان بالادعاء شيئا واحدا أما لو قلنا ان المراد من الآية — يبطلون عهد الله — وفي المثال — شجاع يبطش أقرانه فليس هنا ذلك التخيل هناك ومن ثم فلا حاجة الى القول باستعارة مكنية في العهد أو الشجاع لأن الكلام يستقيم بالحمل على الحقيقة •

وأما السكاكى فيراها لفظ المشبه المستعار للمشبه به دالا على ذلك بنصب قرينة تنصبها وهي أن تنسب اليه وتضيف شيئا من لوازم المشبه به (١٤) •

يوضح ذلك الدسوقي فيقول : (وتقرير الاستعارة بالكناية في المثال المذكور — أى فى قول أبو ذئيب — واذا المنية أنشبت أظفارها — على مذهب السكاكى أن يقال شبهنا المنية التى هو الموت المجرى عن ادعاء السبعية بالسبع الحقيقى وادعينا أنها فرد من أفرادها وأنها غير مغايرة له وأن للسبع فردين فرد متعارف وفرد غير

(١٣) شروح التلخيص ٤/ ١٦٠ •

(١٤) مفتاح العلوم ١٧٩ •

متعارف وهو الموت الذى ادعيت له السبعية واستعير اسم المشبه وهو المنية لذلك الفرد الغير المتعارف أعنى الموت الذى ادعيت له السبعية فصح بذلك أنه قد أطلق اسم المشبه وهو المنية الذى هو أحد الطرفين وأريد به المشبه به الذى هو السبع فى الجملة وهو الطرف الآخر (١٥) •

وكأنه يقىس هذا الاجراء على ما ادعينااه فى التصريحية فى تشبيه الرجل الشجاع بالأسد وادعينا أنه فرد من أفراده وداخل فى جنسه وكان أفراد الأسد نوعان • نوع متعارف وهو الحيوان المفترس ونوع غير متعارف وهو هذا الرجل الذى برز فى صورة الأسد والذى تعيينه القرينة •

والواقع أنه قياس مع الفارق لأن المشبه به فى التصريحية مستعمل فى غير ما وضع له ولكن المنية المستعارة هنا للسبع المفترس فمهما كانت درجة الادعاء فى أنها من أفراد السبع غير المتعارف أو هى السبع الذى فى صورة المنية فانها لم تخرج عن حقيقتها وهذا مما يقطع به السكاكى فقد قال — المراد بالمنية فيما ذكر الموت بادعاء السبعية لها فقد اعترف بأن المراد فى نفس الأمر الموت وأما ما ذكر من ادعاء السبعية لها فلا يخرجها عن معناها الحقيقى اذ الادعاء لا يخرج الأشياء عن حقائقها (١٥) •

وأيضاً استعمال المنية المطلقة فى المنية المقيدة يحتمل أن يكون من باب المجاز المرسل الذى علاقته الاطلاق والتقييد واندليل اذا تطرق اليه الاحتمال سقط به الاستدلال كما يقولون • وأما قرينتها عنده • أما أن تكون استعارة تخيلية واما أن تكون استعارة تحقيقية واما أن تكون حقيقة •

وأما الاستعارة التخيلية فهى — أن تسمى باسم صورة متحققة صورة عندك وهمية محضة تقدرها مشابهة لها (١٧) •

(١٥) شروح التلخيص ٢٠٥/٤ •

(١٦) شروح التلخيص ١٠٦/٤ وما بعدها •

(١٧) مفتاح العلوم ١٧٨ وحاشية الانبأى ٢٩٨ وما بعدها •

ففى تشبيهه المنية بالسبع فى اغتيال النفوس وانتزاع الأرواح بالقهر والغلبة أخذ الوهم فى تصويرها بصورة السبع ويخترع لها من الهيئات والأشكال ما به يكمل وجه الشبه فتخيل لها أظفاراً واستعار الأظفار المحققة للأظفار المتوهمة •

وفى تشبيه الشمال بالانسان يأخذ الوهم فى تصويرها بصورة الانسان ويخترع لها شيئاً شبيهاً باليد فى الانسان ويطابق — اليد — المحققة على — اليد — الوهمية •

ومعتمد هذا الرأى كما نرى على ابراز ناحية التشكيل والتخييل فى هذا الضرب وأن الأشياء فيه تتحول الى صورة ينهض الخيال بابداعها وتكاملها وإختراع هذه النواحق لها فيخترع الليل شيئاً يشبه الكاهل وللدهر شيئاً يشبه الحبائل وللصبا شيئاً يشبه الظهر وهكذا تجتهد القوة التخيلية وهى قوة لا يحد نشاطها فى خلق الأشياء وتصويرها طبقاً لضروب الحسن وأنواع الشعور (١٨) •

وهذه الاستعارة التخيلية لا يجب أن تكون مقارنة للمكنية عنده بل قد تنفك عنها كما فى قوله • أظفار المنية الشبيهة بالسبع فتكت بفلان ولكن رد عليه بأن الأظفار من باب ترشيح التشبيه وليس فى المثال استعارة لا مكنية ولا تخيلية •

وأما كون القرينة استعارة حقيقية كما فى قوله تعالى : « يا أرض ابأعنى ماءك » على ما ذكره هو من أن البلع استعارة عن غور الماء فى الأرض والماء استعارة بالكناية عن الغذاء (١٩) •

فشبه الماء بالغذاء فى النفع وحفظ الحياة وادعى أنه هو وليس شيئاً غيره واستعير الماء للغذاء على طريق المكنية • كما شبه غور الماء فى الأرض بالبلع الذى هو ادخال الغذاء فى الجوف فى مطلق الاخفاء والتغيب عن الأبصار وتنوسى التشبيه وادعى أن المشبه من جنس

• (١٨) التصوير البيانى ٢٦٣

• (١٩) الرسالة البيانية ٢٩٨

المشبه به واستعير المشبه به للمشبه واشتق من البلع بمعنى الغور
ابدى بمعنى غورى استعارة تحقيقية تبعية •

وأما الحقيقة فكالاتبات فى مثل — أثبت الربيع البقل أو الهزم فى
نحو هزم الأمير الجند وذلك على مذهبه من رد المجاز العقلى للاستعارة
المكنية •

وقد أوضحت سلفا أن هذه الروادف يجب أن تظل على حقائقها
وأن اثباتها للمشبه يكون هو المصدر لاثارة التخيلات والنشكيلات
حيث تضى على المشبه صورة المشبه به • ولذلك رأى عبد القاهر
أن جعلها مستعارة لأشياء شبيهة بها من باب الاستحالة • فقال فى بيت
لبيد — انك لا تستطيع أن تزعم أن لفظ — اليد — قد نقل عن شيء الى
شيء •••

وانما المعنى على أنه أراد أن يثبت للشمال فى تصريحها انغداة على
طبيعتها شبه الانسان قد أخذ الشيء بيده يقلبه ويصرفه كيف يريد
فلما أثبت لها مثل فعل الانسان باليد استعار لها اليد وكما لا يمكنك
نقدير النقل فى لفظ اليد كذلك لا يمكنك أن تجعل الاستعارة فيه من صفة
اللفظ •

وكذلك فى بيت الحماسة :

إذا هزه فى عظم قمرن تهلت

نواجذ أفواه المنايا الضواحك

فانه لما جعل المنايا تضحك جعل لها الأفواه والنواجذ التى يكون

انضحك فيها وكبيت المتنبي :

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه

وفى أذن الجوزاء منه زمام

لما جعل الجوزاء تسمع على عادتهم فى جعل النجوم تعقل
ووصفهم لها بما يوصف بها الأناسى أثبت لها الأذن التى بها يكون
السمع من الأناس فأنت الآن لا تستطيع أن تزعم فى بيت الحماسة أنه

استعار لفظ النواجذ ولفظ الأفواه لأن ذلك يوجب المحال وهو أن يكون في المنايا شئ قد شبهه بالنواجذ وشئ قد شبهه بالأفواه وكذلك لا تستطيع أن تزعم أن المتنبى قد استعار لفظ الأذن لأنه يوجب أن يكون في الجوزاء شئ قد أراد تشبيهه بالأذن وذلك من شنيع المحال (٢٠) .

وأما أمثلة المجاز العقلي فمجازها في الاثبات أو النسبة بين الفعل وانفاعل والألفاظ مستخدمة في حقائقها وسنتبين خطأ رد المجاز الى غيره في حديث خاص عن غرض المجاز وأهميته في تنويع التسمية .

وفي مذهب رابع ذهب العصام في الأطول الى جعل الاستعارة المكنية من باب التشبيه المقلوب ولكن لم يسلم له ذلك ورد بأكثر من وجه (٢١) .

جمال التصوير بالاستعارة المكنية

يظهر الأثر الفني لهذه الاستعارة في مجال التطبيق حيث نرى التخيلات الفنية الرائعة والخيال الحي يسرى في أوصال الأشياء التي ليست حية فيحيلها الى أجسام نامية لها وعى وحس وحركة وتأثر مثلما يكون للنفس الانسانية (وهذه الخصوصية أعنى اضافة الصفات الانسانية على الأشياء من خصائص النفس الانسانية التي تنزع في كثير من الحالات الى أن يصير ما حولها داخلا في جنسها وكأنها جادة في أن تحول الأشياء كلها الى أناس لتعيش معها في وئام ولتبثها سرائرها أو لتبوح نها الأشياء بدواخلها . هي تنزع الى اخراج الأشياء من حالة الصمت الذي ينطوى على رهبة وغموض الى حالة النطق المبين) (٢٢) .

ومن هذه الصور التي تفيض بالعطاءات النفسية والمسواقف

(٢٠) دلائل الاعجاز ٣٩٤ ، وما بعدها وينظر ص ٤١٣ .

(٢١) ينظر الرسالة البيانية ٢٨٤ .

(٢٢) التصوير البياني ٢٧٤ .

الشاعرية صور مخاطبة انجمادات والأشياء التي لا يتأتى منها الخطاب
كصورة الأطلال في قول النابغة :

وقفت فيها سراً اليوم أسألها
عن آل نعم أم—ونا غير أسفار
فاستعجمت دار نعم ما تكلمنا
والدار لو كلمتنا ذات أخبار
وقونه :

وقفت بها القلوص على اكتئاب
وذاك تفـارط الشـوق المعنى
أسألها وقد سفحت دمـوعى
كأن مغيضهن غروب شن (٢٣)
وقول عنتر (٢٤) :

يا دار عبلة بالجـواء تكلمى
وعمى صباحا دار عبلة واسلمى
وقال :

وقفت يوماً به أسأله
والدمع منى الحثيث ويسـتبق
يا ربع أنى تقـولهم سـلكوا
بأى وجه تراهم انصـفقوا

وانشعراء بهذه الوقفات التي يقنطون فيها لوعة الحزن ومرارة
الفراق يفرغون ما في حناياهم على هذه الآثار من شوق وحياة واحساس
وكانهم يصيغونها صياغة جديدة بعيونهم الشاعرة وبصيرتهم
الملتاعة حتى تنهياً هذه الديار لبث الأخبار وأحاديث الصبا لعلهم يتخففون

(٢٣) ديوانه ٢٠٢/١٢٥ .

(٢٤) شرح القصائد الطوال ص ٢٩٦ .

من نكبات الدهر وأثقال البين • الأطلال هنا بعد هذا الاضياف
الانساني صارت في أثواب أشخاص تتأتى معها المسائلة ويكون
منها الجواب • ويخاطبها اشاعر مخاطبة الانسان للانسان وهذا هو
معنى صيرورة المشبه والمشبه به بالدمج والادعاء شئ واحد فالشاعر
ليس أمامه أطلال جامدة وإنما هي آثار تحمل أجمل ذكريات الرتوع
واللعب - ولذلك يراها باحساساته الباطنية وبما اختزن في مخيلته من
شعور وانفعالات فتخيل وادعى أن في هذه الأطلال مثل ما في الانسان
من منازع السؤال والتكلم أو الاستعجاب •

وعلى هذا المنوال نسبح شوقي في قصيدته (على سفح الأهرام)
فقد وقف يناجيها ويناديها ويبيثها مشاعره حيث قال :

(قف ناج أهرام الجلال وناد)

وفي قصيدته (أبو الهول) أخذ يناديه وكأنه انسان يخاطبه
ويترجم له عن مشاعره • قال :

أبا الهول أنت نديم الزمان

نجى الاخوان سميذ انصر

بسطت ذراعيك من آدم

ووليت وجهك شطر الزمر (٢٥)

ويقول حافظ :

سائلوا الليل عنهم والنهارا

كيف باتت نسائمهم والعذارى (٢٦)

ومساحة السؤال هنا أوسع من مساءلة الأطلال إذ أن الأطلال
لا تعنى سوى الشاعر المحزون الواقف بها ولكن في بيت حافظ
كان الحريق مدمرا قد أتى على البلد بأكملها ونذاك فهو يتجه الى الليل
الذي يحل بكل مكان والى النهار انذى يطلع على كل بلد بالسؤال والخطاب
ويسند المسألة الى الجمع المبعوث في كل مكان وكأن الليل والنهار

• (٢٥) الشوقيات ١/ ١٣٢ •

• (٢٦) ديوانه ١/ ٢٥٠ •

أحياء ومن شهود عيان الصادقة فهما جديران بأن يخبرا الخبر
اليقين •

وقال البحتري يخاطب الريح :

ألا ياهبوب الريح بلغ رسالتى
سليمى وعرض بى كأنك مـازح
وعنى أقرئها السلام وقل لها
زعمت بالألا يكتـم السر بائح
فان سـألت عنى سليمى فقل لها
به غبر من دائه وهو صالح (٢٧)

انه يشخص الريح ويضفى عليه الصفات الانسانية فيناديه
ليكون سفيرا له يحمل رسالته الى سليمى ويعرض به عندها وكأنه
يمزح فى حديثه ويقرؤها السلام وأن يجيبها عند سؤالها عنه كل ذلك
اضفاء لصفات الأحياء على هذا الريح الأثيرى حتى جعله صاحب
السفارة بينه وبين سليمى • فهو الانسان المبلغ عنه رسالته •
وقال بعضهم فى البرامكة يخاطب الجود والندى :

سألت الندى والجود مالى أراكما
تبدلتما ذلا بعز مؤبد
وما بال ركن المجد أمسى مهـدما
فقـالا أصبنا بابن يحيى محمد
فقلت فهلا متمما عند موته
فقد كنتما عبديه فى كل مشهد
فقـالا أقمنا كى نعزى بفقد
مسافة يوم ثم نقتلوه فى غد (٢٨)

فالندى والجود حيان مخزونان لموت سيدهما الذى كانا بسيران

(٢٧) ديوان البحتري ١/ ٤٦١ •

(٢٨) نقلا عن دلائل الاعجاز ص ٣٠٢ •

في ركابه • شخصهما الشاعر وتوجه اليهما بالسؤال عن عدم غروبهما عند موته فكان جوابهما جواب انحنى الذي فقد كل أمل في الحياة وخبيا كل بصيص في عينه • فهما لا يقيمان الا ريثما يتقبلان العزاء فيه يوما ثم يتبعانه في غدهم •

وعلى مثال هذه المحاورات قال شوقي يخاطب القلب في يوم وداع :

سألت القلب عن تلك الليالى

أكن نياليسا أم كن سـااعا

فقال القلب بل مرت عجالا

كدقاتي لذكرها سـراعا (٢٩) -

فتصور السؤال والقول من القلب على سبيل التخيل والادعاء في كونه انسان يحادث آخر •

وهكذا تلعب الاستعارة المكنية دورا هاما في خلق الأشياء خلقا فنيا جديدا يقوم على هذا التخيل والتشكيل الذى يقرب بين المختلفات وتتعانق فيه المتناقضات فتبدو متحدة متجانسة بل ويعلن لازم المشبه به عن هذا الاتحاد ويفصح عن هذا التضام بين الطرفين واستعارة المشبه به للمشبه وحذفه وذكر خاصة من خواصه ليوّدى الفرع دور الأصل في الابانة عن الغرض المقصود • (وليس في الشعر أحلى ولا أعذب من هذه المواقف التى تتحول فيها الأشياء عن طبائعها وأوصافها المألوفة لتصير أشياء جديدة بعد ما نفقت فيها روح الشعر من غيظ حياتها وانما يكون ذلك حين يهتز الشاعر بالشعور القوى والانفعال الصادق أو قل حين تدور حميا الشعر برأسه فتتحرك الحياة من حوله حركة ثانية) (٣٠) •

وذلك كان حال الشعراء في تلك المخاطبات التى اتسعت ما في الكون من الليل والنهار والرياح والأطلال وتمائيل الأحجار والقلب وكذلك الأشجار كما في قول ليني : (أيا شجر الخابور ما لك مورقا •••) •

(٢٩) الشوقيات ١/ ١٥٤ •

(٣٠) التصوير البيانى ٢٧٣ •

فقد استطاع الشعراء أن يحركوا هذه العناصر من حولهم حركات تؤثر في النفس وتستولى على الاحساس • وهذا الذى أثارته هذه الاستعارة غفل عنه ابن الأثير وأبو هلال حيث اعتبر الأول أن مخاطبة الظلول ومساءلة الأحجار من باب التوسع كما اعتبره الثانى من فاسد التصوير (٣١) • وهذه مجانية للصواب •

وهناك متصرف آخر فى استخدام هذه الاستعارة وهو أن يعمد الشاعر أو المتكلم الى المعانى التى لا تدرك الا بالعقل فيجسدها ويبرزها فى صورة المحسوسات التى ترى وتحس • أنظر الى قول المتنبى يصف قصائده (٣٢) :

وعندى لك الشرد السائرا

ت لا يختصن من الأرض دارا

قواف اذا سرن عن مقبولى

وثبن الجبال وخضن البحارا

فالشاعر يصور قصائده بصورة الخيول الماهرة أو البعير الشارد الذى لا يستقر فى مكان أه يختص ببلد دون آخر ولكن سرعان ما تجد فى السير بمجرد خروجها عن لسانه وأثبت لها وثوب الجبال وخوض البحار حتى يكون لها من الذبوع والانتشار ما تبلغ به الآفاق وذلك يوحى بقوة شعره وعبقريته شاعريته وجزالة ألفاظه وعميق معانيه ولذلك كان أهل البادية بشعره أعجب •

وكذلك قول جرير :

وجهزت فى الآفاق كل قصيدة

شروء ورود كل ركب تنازع (٣٣)

وكذلك تناول الشعراء تصوير الخلافة • فالبحترى يقول (٣٤) :

(٣١) ينظر المثال السائر ٢١٩ والصناعتين ٨٦ •

(٣٢) ديوان المتنبى ١٩٨/٢ •

(٣٣) ديوان جرير ٤٥٣ •

(٣٤) نقلا عن الموازنة ٣٣٣/٢ •

سرت تتبغاه الخلافة رغبة
اليه بأوفى قصدها واعتمادها
فما علقته خبط عاشية الدجى

ونكنها إختارته بعد ارتيادها

فهو يجعلها تسير رغبة عن قصد الى المهدي وتختاره بعد
الارتياح عن طوعية لا عن قسر وتخط، وبينما يثبت لها البحري
هذا البحث والاختيار يجعلها أبو تمام تلوذ بحقوى المعتصم
وقد أحاطت رماحه بخدرها في قوله :

فلاذت بحقويه الخلافة والتقت

على خدرها أرماحه ومناصنه (٣٥)

والآخر يجعلها كالعروس المزدانة بحليها وأثوابها الفضفاضة في
قوله :

أنته الخلافة منقادة

اليه تجرر أذيالها

وهؤلاء الشعراء قد تناولوا الخلافة في حال عظمتها واقبالها
وشبابها ومن ثم كانت الاستعارة تفوح بذلك وبخاصة هذه اللوازم التي
كانت تضاف اليها إذ هي المؤشر الحقيقي لموضع البؤرة المعينة التي
يقصد الشاعر وضع المثبه فيها . ولذلك كان الفرق واضحا
بين التصوير السابق وبين قول شوقي في الخلافة :

كفنت في ليل الزفاف بثوبه

ودفنت عند تبلج الاصباح

شيعت من هلمع بعبرة ضاحك

في كل ناحية وسكرة صاح

ضجت عليك مآذن ومنابر

وبكت ممالك ونواح (٣٦)

(٣٥) المرجع السابق ٢/٣٣٢ .

(٣٦) الشوقيات ١/١٠٦ .

ان تصوير شوقى هو تصوير التائبين • تشيع فيه الذبرات الحزينة
على غروب الخلافة من العالم الاسلامى • فالمشهد هنا مشهد جسم
محمول الى مثواه الأخير وقد كفن بليل وشيع فى كل ناحية ودفن فى
الأصباح وضجت من أجلها من تربطهم بها وشائج انقربى الاسلامية
من الممالك والمنبر والمئذنة •

ويصورون — المجد — بحيوان ذل بعد شمس وسخر بعد اباء كما
فى قول البحترى :

علت هاشم من بعد ذلك كله

سنام العلاف فوق الذرى والغوارب

لهم ذل صعب المجد يعلون ظهره

ويأبى سواهم أن يذل لراكب (٣٧)

فالعلاله سنام وذرى وغوارب و — المجد — له ظهر وقد ذل لهم
بعد المعالجة والترويض حتى علون ظهره وهذه الاستعارة قائمة على
تبيخ هذه المعنويات كالحيوانات التى يتوفرون على كيفية قيادتها
وسياستها وما أشبهه هذا بقيادة الأمم •

والنابغة يجعل العيش الهزيل قليل الخير بعيرا مهزولا ذهب سنامه
وانقطع لشدة هزاله فى قوله :

ونمسك بعه بذياب عيش

أجب الظهر ليس له سنام (٣٨)

والمشبه به عند النابغة بعير أجب الظهر أى لا سنام له كأن
سنامه قد قطع مناسب للمشبه الذى هو العيش السىء الذى لا خير فيه
بينما عيش البحترى كان رغدا كثير الخير مقبلا عليه ولذلك جعله
متبسما ضاحكا فى قوله :

(٣٧) ديوان البحترى ١/٣٣٦ •

(٣٨) ديوان النابغة ١٠٦ •

ولرب عيش قد تبسم ضاحكا

عن طرتى زمن بهن مـدبج (٣٩)

وعلى طريق انتزاع المشبه به من محيط الحيوان قال امرؤ القيس :

فصرنا الى الحسنى ورق كلامنا

ورضت وذلت صعبة أى اذلال (٤٠)

فهو يصور محبوبته فى تأبيها عليه وتفلتها منه ثم تعطفها عليه
وتمكنه من مقادتها بالحيوان انشروا النافر الذى يلين ويذل بعد الترويض
والقتل له فى الذروة والغارب •

وكذلك حافظ يقول فى عمريته :

لا تمطى شهوات النفس جامحة

فكسرة الخبز عن حلواك تجزيها (٤١)

فهو يصور شهوات النفس بالحيوان الجامح الذى يورد ركبته
موارد الهلاك وكذلك الشهوات فيها شئ يشبه هذا الجموح والبعد
عن طريق الجادة • فاذا ما سار الانسان وراءها أوقعته فى موارد
الهلاك ولذلك فهو يحذرنا من امتطاء مثل هذا الحيوان •

وقد تتفق عدة استعارات فى المشبه وفى المشبه به • ولكن تكون لكل
منها وجهة يبرزها لازم المشبه به وينهض بها فى تصوير المشبه
بصورة المشبه به على سبيل الفرض والتقدير والادعاء كما فى قول
البحترى :

بك اشتد عظم الملك فيهم فأصبحت

تقر رواسيه وتعلو مراتبه

فانه يصور الملك بصورة انسان ولو بحثنا عن علاقة ظاهرة
تجمع الطرفين لأعيانا ذلك ولكن الشاعر افترض فى الملك صورة الانسان

• (٣٩) ديوان البحتري ١ / ٤٠٠ •

• (٤٠) شرح القصائد السبع ٣١ •

• (٤١) ديوان حافظ •

على سبيل التخيل والادعاء ولأنه يصور عظمة الملك واستقرار رواسيه
وعلو شأنه فقد أخذ من الانسان ما يقوم به بدنه ويصلب عوده وتقوى
أطرافه وهو العظم فقال — اثنتد عظم الملك •

وأما أبو تمام فيقول :

بيمن أبي اسحاق طالبت يد الهدى

وقامت قناة الملك واثنتد كامله

ونحو قول البحترى :

أقام قناة الملك بعد اعوجاجها

وأربنى على شغب العدو المشاغب (٤٢)

فانهما يتحدثان عن الملك الذى يقيم له دولة ويقضى على المناوئين
وأهل الشغب ويضع الأمور فى نصابها فيستقيم الأمر بعد اعوجاج
ويهدأ بعد لجاج • فصورة الانسان مفترضة فى الملك على هذه
الشاكلة تخيلا وادعاء وكان من المناسب أن يكون اللازم دالا على معنى
السيطرة واحكام الأمر وهذه الخصوصية تجدها فى — القناة •

وفى قول آخر لأبى تمام :

ساس الأمور سياسة ابن تجارب

رمقته عين الملك وهو جنسين

فصورة الانسان قوى الملاحظة دقيق المراقبة نافذ البصر
والبصيرة افترضها الشاعر فى الملك ومن هنا أضاف له عينا للدلالة
على هذا المعنى المقصود •

والملاحظ على هذه الاستعارات أنها تتكامل وتتآزر فى رسم صورة
الملك من حين نشأته وثبات أمره ووقت سيطرته على من حوله وقضائه
على الشغب واستمراره على قيوميته بالملاحظة والمراقبة لما يصلح
شأنه ويرفع مكانته ولذلك كان لازم المشبه به المضاف للمشبه فى كل منها
له أكبر دلالة على المعنى المقصود من أنتعير • فهو فى الأول (عظم الملك)
وفى الثانى (قناة الملك) وفى الثالث (عين الملك) •

وفي صور كثيرة لهذه الاستعارة نجد اللازم لفظ — اليد — وهو يدل على معانى كثيرة مثل • انعبث بالشئ أو الفتك به أو العطاء • وكل هذه المعانى يحددها السياق وتفيض بها الاستعارة • ف (يد الشمال) تعبت بالقررة و (يد البلى) تعبت في ديار الأحبة و (يد المنية) تفتك بفلان و (يد الهدى) طالبت بالعطاء ••••• وهكذا يفعل اللازم فعله في توجيه هذه الاستعارة وقد أوضحنا في دراسة سابقة أثره على الاستعارة من حيث الحسن والتقبح وأن كثيرا من استعارات أبى تمام التى عيبت عليه قد بنيت على شبه قريب ولكن لما كانت لوازمها مغربة فى بعدها وليست ملتئمة مع المشبه ردها النقاد (٤٣) •

ولأساسية اللازم فى هذه الاستعارة نرى الشئ الواحد قد يستعار باعتبارين مختلفين تبعا لتعدد لوازمه كما فى قولهم (رفعت عن معارفك قناعا وغلقا) فيمكن أن يقال شبه المعارف بالمعرائس المحجة وأستعارها لها وحذفها ورمز اليها بشئ من لوازمها وهو القناع ويمكن أن يقال شبه المعارف بالنفائس المخزونة واستعارها لها وحذفها ورمز اليها بشئ من لوازمها وهو الغلق (٤٤) •

أقسام المكنية :

اشتهر عنى الألسنة تقسيم الاستعارة التصريحية الى أصلية وتبعية حتى ظن أن هذا التقسيم خاص بالتصريحية ولكن المنتبـع لتصرفات الاستعارة المكنية وكذلك التخاريج التى تبرز من خلالها وبخاصة فى رحاب التبعية يجـدد أن التقسيم الى الأصلية والتبعية يجرى فيها كذلك •

فأما المكنية الأصلية • ففى الأمثلة الكثيرة التى عرضنا لها بالتحليل حيث كان اللفظ المشبه اسما كما فى (المنية والأطلال والمنايا والجوزاء والقصائد والريح والقباب والملك •••••) •

• (٤٣) التصوير البيانى

• (٤٤) الرسالة البيانية

وأما المكنية التبعية • فقد مثل لها الفزى بمثال مصنوع وهو
أعجبنى اراقاة الضارب دم زيد حيث شبه الضرب الشديد بالقتل
بجامع شدة الايلام فى كل واستعير القتل للضرب الشديد واشتق من
القتل بمعنى الضرب قاتل بمعنى ضارب ثم حذفه ورمز اليه بشيء من
لوازمه وهو الارقاة •

وعلق عليه بقوله (ونعلمهم لم يتعرضوا لها لعدم وجدانهم اياها فى
كلام البلغساء — وقال الانبأى تعليقا على قوله — لعدم وجدانهم
اياها — أى عى وجه التعيين أو انتبادر فيها فلا يقال انها متحققة فى
أبلغ كلام على تقرير المكنية فى مدخول اللام فى قوله تعالى : « **ليكون
أهم عدوا وحزنا** » وجعل اللام قرينة لها كما هو مختار السكاكى (٤٥)
أى أننا لو أخذنا بمذهب السكاكى فى رد التبعية الى المكنية فى هذه
الآية لأمكننا الحصول على استعارة مكنية تبعية لكون (**عدوا وحزنا**)
مشتقين والموجود فى الكلام المشبه وأما المشبه به فمحذوف ومرموز اليه
بشء من لوازمه وهو (اللام) •

وكما سبق فى الحديث عن الاستعارة التبعية فى زمن الفعل وبخاصة
تلك الأفعال التى جاءت على غير مجيئها المعهود فى حيز أدوات الشرط مثل
— اذا — و — لو — فقد خرجنا بعض الأمثلة على الاستعارة المكنية
التبعية فى زمن الفعل حيث حذف الفعل الأصلى ورمز اليه بشء من
لوازمه وهو الأدوات •

الأغراض هي الحاكمة بنوع المجاز

من المعلوم أن لكل تركيب غرضاً خاصاً يقصده المتكلم ولكل عبارة مدلولها الذي يفضى إليه السياق . فإذا أردنا أن نتعرف على ما يتضمنه الكلام من مجاز وما يحتويه من استعارة فإن المرشد السليم إلى هذا هو الاجتهاد في التعرف على الغرض المقصود في ضوء دلالات التركيب وسياق الكلام .

فقد تتشابه ظواهر الكلام ويظن للنظرة الأونى أن الغاية من نسبة الكلام واحدة وأن الأغراض متحدة أو متقاربة ولكن بالتنقيب في سياق الكلام وأعطافه ومراميه ندرك أن الأغراض متباينة وأن المقاصد مختلفة . وقد نبه عبد القاهر على أن تفسير الصور على غير مراد الشاعر أو المتكلم يفسدها ويخرج بنا إلى حديث تعافه النفس ويمجه الذوق ، وذلك في تعليقه على بيت زهير الذي يعتبر العلم في الاستعارة المكنية :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله

وعرى أفراس الصببا ورواحنه

فهو يرفض أن تكون الأفراس والرواحل مستعارة على حد استعارة الأسد للرجل الشجاع أي على سبيل التصريحية الأصلية فليس هناك ذوات أو شبه ذوات حتى تستعار لها الأفراس والرواحل . والتفسير الصحيح لهذه الصورة لا يكون إلا على سبيل المكنية أي - أنك أردت أن الصبا قد ترك وأهمل وفقد نزاع النفس إليه وبطل فصار كالأمر ينصرف عنه فتعطل آلاته وتطرح أدواته وكانجهة من جهات السير نحو الحج أو الغزو أو التجارة يقضى منها الوطر فتحط عن الخييل التي كانت تركب إليها نبودها وتلقى عن الأبل التي كانت تحمل لها

قتودها (١) •

ووصف التفسير الآخر وهو كون الأفراس والرواحل مستعار لدواعي النفوس وشهواتها أو للأسباب المتأخذة في الحمل على الصبأ كالمال والأخوان بالتكلف • ومن لم ينعم انظر في الغرض من المتأخرين حملها على جهتي التخيل أو التحقيق •

ونحن لو نظرنا الى تلك الثروة الضخمة من الأمثلة التي استعرضناها في المواقع المختلفة لوجدنا أن موطن المجاز يكمن في المنطقة التي أراد المتكلم أن يكشف عنها اللثام ويفوح منها الغرض انتام • ففي قوله تعالى : « يخرجهم من الظلمات الى النور » نجد أن نقطة الاهتمام لا تتعلق بالحيز الذي يبدأ منه الاخراج وينتهي اليه أي من الضلال الى الايمان فهذه هي الدائرة المعنية والتي تركز عليها الآية إذ هي المقصودة من التشريع لتنتقل الانسان من ضلاله الى الايمان انذى يصير به شيئاً آخر • فهنا يستحيل نقل المجاز الى موطن آخر •

وكذلك الأمر في قوله تعالى : **وآية لهم الابل نسلخ منه النهار** » فان الآية التي تتعلق بها الموعظة الدالة والعبرة انهادية ليست في هذا الزمن الموسوم بالنهار أو الليل وانما تتركز في كيفية اخراج هذا من ذاك اخراجاً تدريجياً لا يحس به أحد أو يسمع له ركزا ولذلك تركز المجاز في الفعل (نسلخ) دون غيره من لبنات التركيب فلو نقلناه الى الليل أو النهار لفات الغرض المقصود ولخرجنا الى شيء لا قيمة في تصويره إذ لا معنى لتصوير الليل أو النهار بحيوان يسلخ • وبذلك يتأكد أن مجازها تبعى في الفعل • ولا يمكن رده الى غيره •

وفي قوله تعالى — **بل نقذف الحق على الباطل فيدمغه** — نجد أن الغرض الأصلي من الآية هو بيان اذهاب الحق للباطل أي أن المجاز تبعى في الفعلين • وأما جعل الحق كالقذيفة التي يرمى بها الباطل

فيمحقه وجعل الباطل كالشيء الهش الذى لا ثبات ولا بقاء أمام قذائف الحق المتوانية وصيحاته العالية فهو كالظل الذى يتبع المجاز الأساسى فى الآية حيث نترشح هذه المعانى الجانبية على الغرض الأساسى من القذف والدمغ وهذا شيء يفيض به جمال الاستعارة التبعية .

وفى قول الرسول ﷺ (كلما سمع هيفة طار إليها) نجد أن التصوير ينصب على الحانة التى يكون عليها المجاهد المخلص عندما يسمع نداء الحرب فلا يتثاقط الى الأرض وإنما يخف عاديًا إليها ولذلك كان الأنسب بالمقام جعل المجاز فى الفعل على سبيل الاستعارة التبعية وكون عدوه طيرانًا هو الغرض الأساسى من التركيب وأما كونه كأنطائر فشيء يتبع الغرض الأصلى وليس مقصودًا لذاته حتى يكون من باب الاستعارة المكنية .

وأما فى قوله تعالى : « ينقضون عهد الله » نجد أن الآية هسوقة لبيان الأسباب الواصلة بين الله والناس والعهود الحافظة لهم من التبعثر فى أودية الهلاك أو التردى فى مجاهيل الهوى وانضالات . فالغرض ينصب أساسًا على هذا العهد الذى يجمع الناس على طريق الحق ويردهم الى الميثاق الأول الذى أئزموا به أنفسهم يوم أن قال لهم — **ألمست بربكم قالوا بلى** — وكأن الآية تصور مدى الجرم الذى ارتكبه هؤلاء عندما لم يحفظوا أمانتهم وخانوا عهدهم الذى قطعوه على أنفسهم فالتفسير الأنسب والأنيق يستقيم مع الغرض المقصود بجعل موطن المجاز هو — العهد — على سبيل المكنية وجعل النقض قرينتها . والآية على هذا الوضع تجسد هذه العهود وتجعلها فى صورة المحسوسات المرئية بجعلها كالحبال التى تقع تحت بصر الانسان فى كل مكان . ويستخدمها فى جمع حاجاته وحفظها من التفرق أو الضياع ويستخدمها فى صعوده وهبوطه حماية من الهلاك . كل هذه الأمور تنخلع على هذه العهود المعنوية التى تمنعه من التشتت فى الحال أو المآل وتمنعه من ضلال الدنيا وهلاك الآخرة .

وأما صرف المجاز من المفعول الى الفعل (ينقضون) فليس فيه هذا التخيل والتجسيم انذى أشاعته الاستعارة المكنية لأن الأمر

حينئذ لا يعدو أن يكون المراد — يبطلون عهد الله — وهو أمر معنوي
بحت .

وكذلك الحال في قوله صلى الله عليه وسلم (ما تجرع عبد جرعة أفضل عند الله
عز وجل من جرعة غيظ يكظمها ابتغاء وجه الله تعالى) فقوله — جرعة غيظ
— فيه تصوير الغيظ بشراب مكروه المذاق لحرارته ولكنه حلو المغبة
وكذلك المغتاط تتواني عليه الكربات ومع ذلك يتقبلها بنفس راضية
وبقلب صابر فيجزي بغير حساب . فالمناسب جعل المجاز في — غيظ —
على سبيل المكنية .

ومثله قول الشاعر :

شربنا الغيظ لو سـقينا

دماء بنى أمية ما روينـا

وأما الشعر فمنه قول البحتري :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا

من الحسن حتى كاد أن يتكنـما

وقد نبه النيروز في غسق الدجى

أوائل ورد كن بالأمسـس نومـا

يفتقها برد الندى فكـأنه

يبث حديثا كان قبل مكنـما (٢)

فالشاعر يصور الربيع وقد أقبل على الدنيا ببروده الخضراء
وحله السندسية وقد كسا الأشجار وفتق الأزهار وتعطر الوجود
بشذاه حتى كاد حسنه يبين عن زمنه في خيلاء . فانورود تعود الى
نضرتها بعد اليبس وكأنها تصحو من سبات وتفتح أكمامها وكأنها
تذيع حديثا بعد كتمان . فعين الشاعر هنا تنصب على الربيع
وما يحدثه في عالم النباتات فصوره بصورة الانسان الذي يقبل في
خيلاء على سبيل الاستعارة المكنية .

ولكن ابن جنى يصور البهجة التي يحدثها والحسن الذي ينشره
فيجعله ضحكا وبذلك يتجاوز الزمن (الربيع) الى أثره (الحسن) وذلك
في قوله :

رأيت محاسن ضحك الربيع

أطال عليها بكاء السماء (٣)

وأبو تمام تتركز عينه على الفاعل دون الفعل في قوله :

ويضحك الدهر منهم عن غطارفة

كأن أيامهم من حسنها جمع

فيشبه الدهر بالانسان ويستعيره له ويحذفه ويرمز اليه بشيء
من لوازمه وهو الضحك فتفسر على سبيل المكنية •

ويرتد المجاز مرة أخرى الى الفعل دون الفاعل في قول الشاعر :

وقد ضحك الشيب في لمتى

فلم لا أبكى ربيع الشباب

فموطن المجاز هو الفعل (ضحك) استعارة لظهور الشيب
وانتشاره فهو الغرض من التعبير لأن المقصود أن يصور الحدث
أما فاعله فلا معنى لتصويره بصورة الانسان وبذلك تفسر الصورة
على سبيل التصريحية التبعية •

بل ان الغرض وسياق الكلام ليوجهان الفعل الواحد الى دلالات
مجازية متعددة وهنا تكمن الدقة الفنية والأسرار البلاغية في تلك
المواد المتحددة في الوضع والمختلفة في دلالة المجاز • وقد تعرفنا على
شيء من ذلك فيما سبق ونضرب هنا مثلا واحدا نتيان أثر الغرض
لا في تنوع المجاز فحسب بل وفي تنوع الدلالة المجازية داخل
دائرة الفعل الواحد •

ففي قوله تعالى : « **أَوْ مِنْ كَانَ مِيتَانًا حِينِنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي
بِهِ فِي النَّاسِ** » نجد أن الآية مسوقة لبيان أثر التشريع الحكيم في

(٣) مقدمة ديوان المتنبي ٨٦ •

(م ١٠ — التصوير المجازي والكنائي)

نقل الانسان من جهنه وضلاله الى الهداية والعلم فعبر عن الحالة الأولى — الضلال — بالموت وعن الحالة الثانية — الهداية — بالحياة • فالفعل — أحييا — تحدد المراد من مجازه في ضوء الغرض المقصود من الآية •

وفي قوله تعالى : « فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ ۖ » نجد أن الآية مسوقة لبيان أثر المطر على الأرض فعبر عن حال الخصوبة والانبات بالحياة فالفعل — أحييا — مستعار لهذه الخاصية •

ولكن عندما يتحدث الشاعر عن أطلال محبوبته فيقول :
وتحى الروامس ربعتها فتجده

بعد البلى وتميته الأمطار

نجد أنه استعار الفعل — تحى — لحانة الكشف والظهور لهذه الأطلال • كما استعار الفعل — تميت — لحالة الطمس والعفاء فالغرض حدد المجاز المراد من الفعلين •

وفي قول البارودي :

ونادى المنادى للصلاة بسحرة

فأحييا انورى من بعد طى ونشر(٤)

نجد أنه يتحدث عن نداء للصلاة في السحر والناس نيام فيستعير الفعل — أحييا — لحالة الاستيقاظ والقيام من النوم لتلبية المنادى وبذلك حدد المقام المجاز الذى ينصرف انيه الفعل •

وفي مقام آخر يتحدث عن دعائم دوام الملك واستقراره فيقول :
هيئات يحييا الملك دون مشورة

ويعز ركن المجدد ما لم يعمد(٥)

فاستعار الفعل — يحييا — لحالة الاستقرار والدوام فحدد الغرض الدلالة التى ينصرف انيها مجاز الفعل •

(٤) ديوانه ٧/٢ •

(٥) ديوانه ١٨٣/١ •

وهكذا نتحد مادة الفعل ويتنوع مجازه تبعاً للأغراض المسوقة لها
الكلام • كما رأينا في الفعل — أحيينا — فقد دل في ظلال هذه
الأغراض على هذه المعانى المجازية الخمسة وهى هداية الانسان
وانبات الأرض وكشف الطلل واستيقاظ النائم واستنقرار الملك • ولو
تتبعنا مسيرته في التراث لاحتاج الى بحث مستقل •

وبذلك يظهر لنا أهمية التعرف على الغرض من سياق الكلام •
فهو الذى يحكم على المجاز بأنه من باب الاستعارة التصريحية أو المكنية
أو من المجاز العقلى ونقدم ذلك بين يدي بحث الاستعارة لنرد ما ذهب
اليه السكاكى من رد الاستعارة التبعية الى المكنية حيث قال (ولو أنهم
جعلوا قسم الاستعارة التبعية من قسم الاستعارة المكنية بأن قلبوا
فجعلوا في قولهم نطق الحمار بكذا — الحال التى ذكرها عندهم قرينة
الاستعارة بالتصريح استعارة بالكناية عن المتكلم بوساطة المبالغة في
التشبيه على مقتضى المقام وجعلوا نسبة النطق اليه قرينة الاستعارة
كما نراهم في قوله — واذا المنية أنشبت أظفارها — يجعلون المنية
استعارة بالكناية عن السبع ويجعلون اثبات الأظفار لها قرينة
الاستعارة (٠٠٠) (٦) •

ولكن الملاحظ أن الفعل — نطق — انذى يجعله قرينة للاستعارة
المكنية سيكون مجازاً لأنه يرى أن الاستعارة التخيلية • يستعار فيها
الأمر المحقق وهو هنا النطق للأمر المتوهم على سبيل التصريحية
وهى لا تكون في الفعل الاتبعية • وبذلك يتحتم تقسيم الاستعارة الى
تبعية ومكنية •

ولذلك نم يسلم مذهب من الاعتراضات عليه فقد قال الخطيب عن
كلامه السابق (وفيه نظر لأن التبعية التى يجعلها قرينة لقرينتها التى
جعلها استعارة بالكناية كنطقت في قولنا نطق الحمار بكذا لا يجوز
أن يقدرها حقيقة حينئذ لأنه لو قدرها حقيقة لم تكن استعارة تخيلية
لأن الاستعارة التخيلية عنده مجاز (٠٠٠) (٧) •

(٦) مفتاح العلوم ص ١٨١ •

(٧) بغية الايضاح ١٦٦/٣ •

فسواء نظرنا الى مذهبه من حيث القرينة اللفظية أو القرينة الحالية أو اعتبار الحال والمقام فان ما ذهب اليه مردود رداً قطعياً ولذالك قال صاحب الكشاف : (قد يكون تشبيه المصدر هو المقصود الأصلي والواضح الجلى ويكون ذكر المتعلقات تابعا ومقصود بالعرض فالاستعارة تبعية كما في قوله :

تقرى الرياح رياض الحزن مزهرة

إذا سرى النوم في الأجنان ايقاظا

فان التشبيه هنا انما يحسن أصالة بين هبوب الرياح عليها وبين القرى ولا يحسن التشبيه ابتداء بين الرياح والمضيف ولا بين الرياض والمضيف ولا بين الايقاظ والطعام • نعم يلاحظ التشبيه بين هذه الأمور تبعا لذلك التشبيه ولا يصح أن يعكس فيجعل التشبيه بين الهبوب والقرى تبعا لشيء من هذه التشبيهات فلا يصح هنا رد التبعية الى المكنية عند من له ذوق سليم • وقد يكون التشبيه في المتعلق غرضا أصليا وأمرأ جنيا ويكون ذكر الفعل واعتبار التشبيه فيه تبعا فحينئذ يحمل على الاستعارة بالكناية كقوله تعالى : « ينقضون عهد الله » فان تشبيه العهد بالحبل مستفيض مشهور وقد يكون التشبيه في مصدر الفعل وفي متعلقه على السوية فحينئذ جاز أن يجعل استعارة وأن يجعل استعارة مكنية كما في قولك نطقت الحال فان كلا من تشبيه الدلالة بالنطق وتشبيه الحال بالمتكلم ابتداء مستحسن • فظهر أن ما اختاره السكاكي من الرد مطلقا مردود (٨) •

فاعتبار الحال والمقام من أقوى الردود على السكاكي ولذالك قال أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى (ومن المناسب كما قلنا أن نفسر كل صورة بما يناسبها أو بما هو الأظهر فيها من طرق البيان فلا تلوى أعناق صور المجاز العقلى لتدخلها في باب الاستعارة المكنية كما لا تنوى أعناق التبعية لتدخلها أيضا في هذا الباب وأنما تجتهد في أن تتعرف على ثنيات الصور وأوصافها ليسهل عليك تفسيرها بما هو الأليق بها (٩) •

(٨) حاشية السيد على المطول ٤٠٢ •

(٩) التصوير البيانى ٣٠٣ •

الاستعارة بين الترشيح والتجريد

تلعب بعض الأوصاف التي تقارن الاستعارة دورا هاما في حسنها بما تضيفه على الصورة من تخييل يزيد من قوتها عن طريق إخفاء التشبيه الذي بنيت عليه وتناسيه استكمالاً للعناصر المكونة والخطوط التي تستوفي بها الصور شياتها الحسنة ومعالمها الفنية الدقيقة .

وقد نظر البلاغيون إلى الاستعارة من هذا المنظور الوصفي الذي يأتي بعد استيفاء الاستعارة أجزاءها الأصلية كالمستعار له أو المستعار منه و انقرينة . فكانت كالاتي :

١ - الاستعارة المرشحة :

تدل مادة الفعل (رشح) على خروج الشيء كالندى والعرق وعلى التغذية والتقوية والتقدمة ومنه قولهم : (ورشحت الأم ولدها بالنبن القليل اذا جعلته في فيه شيئا بعد شيء حتى يقوى على المص ورشحت الناقة ولدها اذا دفعته أمامها . وعنى التربية والتهيئة للشيء ورشح للأمر ربي له وأهل ورشح للخلافة اذا جعل ولي عهد وفلان يرشح للوزارة أى يربى ويؤهل لها) (١) .

فهذا المدلول النغوى له اتصال وثيق بالمعنى الاصطلاحي الذي يعنى اقتران الاستعارة بما يلائم المشبه به فهذه الملائمات تغذى المجاز وتقويه حتى كأن لم يكن في الكلام سوى المشبه به . فاذا كانت الاستعارة مبنية على تناسي التشبيه فان الترشيح مبناه على تناسي الاستعارة ووضع الكلام على صياغته الحقيقية (وكأن حديث الاستعارة والقياس لم يجر منهم على بال ولم يروه ولا طيف خيال) (٢) .

(١) اللسان مادة رشح .

(٢) أسرار البلاغة ٢/ ١٦٤ .

ويعلو قدر المجاز اذا قرى الحسن من ناحيتين • الترشيح
واخفاء التشبيه وكلاهما مرتبط بالأصل الذى يقوم عليه الاستعارة
وهو تناسى التشبيه قال عبد القاهر (واعلم أن من شأن الاستعارة
أنك كلما زدت ارادتك التشبيه خفاء ازادت الاستعارة حسنا حتى
انك تراها أغرب ما تكون اذا كان الكلام قد ألف تأليفا ان أردت أن
تفصح فيه بالتشبيه خرجت الى شيء تعسفه النفس ويلفظه
السمع) (٣) •

وقد بحث عبد القاهر موضوع الترشيح تحت ما سماه التخيل
غير المعلن ووضع الزمخشري مصطلح الترشيح أو المجاز وهو يعرض
نقوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم
وما كانوا مهتدين » فالاستعارة فى الفعل - اشتروا - شبه استبدال
الحق بالباطل واختياره عليه بالشراء الذى هو استبدال مال بآخر بجامع
ترك مرغوب عنه الى مرغوب فيه وعقب ذلك بذكر الربح والتجارة وعدم
الاهتداء الى طرقها وهذا من ملائمات المستعار منه فهو من باب
الترشيح قال الزمخشري (فما معنى ذكر الربح والتجارة كأن ثم
مبايعة على الحقيقة ؟

قلت : هذا من الصنعة البديعية التى تبلغ بالمجاز الذروة العليا وهو
أن تساق كلمة مساق المجاز ثم تقفى بأشكال لها وأخوات اذا تلاحقن
لم تر كلاما أحسن منه ديباجة وأكثر ماء ورونقا وهو المجاز المرشح
ونحو •

ولما رأيت النسر عز ابن دؤية وعشش فى وكريه جاش له صدرى
لما شبه الشيب بالنسر والشعر الفاحم بالغراب أتبعه ذكر التعشيش
والوكر (٤) •

وأما قوله : « وما كانوا مهتدين » فليس معناه عدم اهتدائهم فى
اندين فيكون تكرارا لما سبق بل لما وصفوا بالخسارة فى هذه التجارة

(٣) دلائل الاعجاز ٤٠٤ •

(٤) الكشف ١/١٩٣ •

أشير الى عدم اهتدائهم لطرق التجارة كما يهتدى اليه التجار البصراء
بالأمور التي يربح فيها ويخسر فهذا راجع الى الترشيح (٥) •

ولذلك كان قول الطيبي : (انه اجتمع في هذه الآية الكريمة انترشيح
والتجريد في قوله « **اشترُوا** » فالترشيح في قوله تعالى :
تعالى : « **وما كانوا مهتدين** » (٦) • فيه صواب من وجه ومخالفة للصواب
من وجه آخر • أما الصواب فهو الترشيح الذى ذكره أولاً مناسباً
للاشتراء وهو الربح والتجارة وأما المخالفة فهي اعتبار كون عجز الآية
تجريداً وهو ما يلزم عليه التكرير لوصف سابق دون مقتضى وهو
الضلال عن الدين قد فهم أولاً من اختيارهم الضلال وتركهم الحق وهذا
التكرير الذى لا يترتب عليه فائدة يتنزه عنه الكتاب المعجز فيحمل عجز
الآية : « **وما كانوا مهتدين** » الى طرق التجارة كما قال السيد تحقيقاً
لكمال خسارتهم حيث فقدوا رأس المال والربح والطرق الصحيحة
الموصلة اليه •

والترشيح كما يكون بالتفريع كما في الآية السابقة يكون
كذلك بالوصف كما في قولك رأيت أسداً ذا لبد يرمى • والفرق بين
الصفة والتفريع أن الملائم ان كان من بقية الكلام الذى فيه الاستعارة
فهو صفة وان كان كلاماً مستقلاً جىء به بعد ذلك الكلام الذى فيه
الاستعارة مبنيًا عليه ••• فهو تفريع (٧) • والمراد بالوصف الوصف
المعنوى لا النعت النحوى فالفعل في قوله تعالى : « **واخفض جناحك**
الهُؤْمِنِينَ » يعتبر من باب الوصف • والجناح مستعار للجانب ورشح
بوصف الخفض • فهو من ملائمت الجناح • ومنه قوله تعالى : « **وقيل**
يا أرض ابلعى مائك •• » فقد شبه الأرض بمن يعقل وحذف المشبه به
ورمز اليه بشيء من لوازمه وهو النداء على سبيل المكنية ورشحها بذكر
ابلعى مائك •

وقد يكون الترشيح باثبات التعجب أو نفيه وقد ذكره عبد القاهر
في مبحث التخيل وهو يقوم على ايهام أن لا مجاز في الكلام وأن

(٥) حاشية السيد على الكشاف السابق •

(٦) شروح التلخيص ٤/ ١٢١ •

(٧) شروح التلخيص ٤/ ١٢٧ •

الأسلوب يجرى على الحقيقة ويصاغ الكلام صياغة تؤكد هذا التناسي
للمجاز وهناك تبرز الأمور اللطيفة التي تزداد بها الصورة دقة
وجمالاً •

ومنه قول الشاعر :

قامت تظللني من الشمس

نفس أعز على من نفسي

قامت تظللني ومن عجب

شمس تظللني من الشمس

فقد استعار الشمس لمن يظله من الشمس الحقيقية وتناسي
التشبيه الذي بنيت عليه الاستعارة بل تناسي الاستعارة نفسها وأوهم
نفسه أنه يتكلم عن شمس حقيقية ولذلك تعجب من أن يظل بعضها
بعضاً لأن الاشراق مانع من الظل ولولا أنه أنسى نفسه أنه يتحدث عن
شمس مجازية ما كان لهذا التعجب معنى لأنه لا يبعد أن يظل انسان
حسن الوجه انساناً آخر من وهج الشمس •

وقال عبد القاهر : (واعلم أن في هذا النوع مذهباً هو كأنه عكس
مذهب التعجب ونقيضه وهو لطيف جداً وذلك أن تنظر الى خاصية ومعنى
دقيق يكون في المشبه به ثم تثبت تلك الخاصية وذلك المعنى لـالمشبه
وتتوصل بذلك الى ايهام أن التشبيه قد خرج من البين وزال عن الوهم
والعين أحسن توصل وأطفه تبطل على نفسك ما له وضع البيت من
الاحتجاج على وجوب البلى في الغلالة والمنع من العجب فيه بتقرير
الدالة (٨) •

وقد يكون الترشيح بالقسم والاستفهام كما في قول المتنبي :

عمرك الله هل رأيت بدورا

طلعت في براقع وعقود (٩)

(٨) المرجع السابق ١٦٧/٢ •

(٩) ديوان المتنبي ٣٩/٢ •

فقد شبه النساء بالبدور واستعارها لهن ولكنه تناسى التشبيه وتناسى المجاز ووضع الكلام وضع من يعتقد أن البدور الحقيقية هي التي ظهرت في براقع وعقود ولذلك كان قسمه واستفهامه عن هذا المنظر العجيب •

وعلى طريق الترشيح قال أبو تمام :
فردت علينا الشمس والليل راغم
بشمس لهم من جانب الخدر تطلع
نضا ضوءها صبغ الدجنة وانطوى
لبهجتها ثوب الظلام المجرع
فوالله ما أدري أحلام نائم
ألت بنا أم كان في الركب يوشع

يقول : لقد ردت علينا الشمس الحقيقية في صورة هذه الشمس التي طلعت من جانب الخدر فانضمم الدجى وانطوى ثوب الظلام حتى انتابه التشكيك في هذا المنظر العجيب فتساءل • هل هو يعيش حنما ؟ أم كان يوشع في الراكب حتى استوقف شمس السماء ؟ فاعتقاده أنها شمس حقيقية هو الذى دعاه الى هذا الاستفهام • وما أروع تلك التسمية التي يقولها البلاغيون على مثل هذه الصورة وهي (تجاهل العارف) فالشاعر يتجاهل أمر المجاز ويبينى الكلام على أسلوب الحقيقة •

وكذلك يكون الترشيح بعقد التثنية بين المشبه والمشبه به في كلمة واحدة كما في قول الفرزدق •

أبى أحمد الغيثين صعصعة الذى

متى تخلف الجوزاء والدلو يمطر
فقد استعار لأبيه الغيث وادعى أنه هو بالفعل وعقد التثنية بين اسم أبية الذى جعله غيثا والغيث الحقيقى وكأنهما حقيقيان •

ومنه قول البحتري :

طنعت لهم وقت الشروق فعابنوا
سنا الشمس من أفق ووجهك من أفق
وما عابنوا شمسين قبلهما التقى
ضياؤهما وفقا من الغرب والشرق

فقد استعار الشمس للمتوكل وتناسى أنه يتكلم عن شمس مجازية
واقتنع بهذا فكان هذا المشهد العجيب وهو رؤية شمس حقيقية
تشرق من الشرق وأخرى حقيقية كذلك على سبيل التخييل والادعاء
تشرق من الغرب • ولذا قال عبد القاهر « معلوم أن القصد أن يخرج
السامعين الى التعجب لرؤية ما لم يروه قط ونم تجر العادة به ولن
يتم للتعجب معناه الذى عناه ولا تظهر صورته على وضعها الخاص
حتى يجترىء على الدعوى جراءة من لا يتوقف ولا يخشى انكار منكر
ولا يحفل بتكذيب الظاهر له ويسوم النفس — ساءت أم أبت تصور شمس
ثابتة طلعت من حيث تغرب الشمس فالتقتا معا وصار غرب تلك القديمة
لهذه المتجددة شرقا (١٠) •

ومنه قول المتنبي :

كبرت حول ديارهم لما بدت
منها الشموس وليس فيها المشرق

فقد استعار الشموس للقوم وأنسى نفسه أن فى الكلام مجازا
ولذلك كان منه التكبير الذى هو داعية التعجب لأنه رأى أن الذى يخرج
من الديار هى الشموس الحقيقية فعلا •

وقوله :

ولم أر قبلى من مشى البدر نحوه
ولا رجلا قامت تعانقه الأسد
فقد بنى كلامه على أن لا مجاز فى البين وأنه يتحدث عن بدر حقيقى

وأسد حقيقى والا ما كان للنفى معنى فليس هناك انسان يقصده البدر
أو تعانقه الأسد • فكان العجب أن يقع هذا •

وأما النهى عن التعجب فمثاله :

لا تعجبوا من بلى غلاتتـــــــــــــــــه

قـــــــــد زر أزراره على القمـــــــــــــــــر

فكون القمر الحقيقى هو الذى يبلى الغلالة فى معتقدهم أمرا
لا يتعجب منه وانما الذى يدعو الى ذلك كون البلى يقع من الانسان
فلولا أنه جعله قمرا حقيقيا لا ينظر فيه الى أصل التشبيه ما نهاهم عن
التعجب •

ومن ثم ساع نه أن يثنيهما لأن التثنية لا تكون الا بين اسمين
متفقين فى النوع كالمحمدين مثلا • وكأنه لا مجاز فى أحدهما ولذلك قال
عبد القاهر (أفلا تراه كيف ادعى لأبيه اسم الغيث ادعاء من سلم له
ذلك ومن لا يخطر بباله أنه مجاز فيه ومنتـاول له من طريق
التشبيه •••••

وان أردت أن تعرف مقدار ما له من قــــــــوة فى هذا التخيل وأن
مصدره مصدر انشئ المتعارف الذى لا حاجة به الى مقدمة يبلى عليها
نحو أن تبدأ فتقول أبى نظير الغيث وثان له وغيث ثان ثم تقول وهو
خير الغيثين لأنه لا يخلف اذا أخلف الأنواء فانظر الى موقع الاسم
فانك تراه واقعا موقعا لا سبيل لك فيه الى حل عقد التثنية وتفسير
المذكورين بالاسم) (١١) •

ويكون انترشيح بالظرف كما فى قوله تعالى « فـــــــــدهوا بين يدي
نجواكم صدقة » على تخريجها على الاستعارة المكنية بتشبيه النجوى
بالانسان المحذوف والمرموز اليه بشئ من لوازمه وهو اليدان — و بين —
ترشيح (٢) •

وكذلك يكون الترشيح بحرف التعدية • فاذا كانت تعدية الفعل

(١١) أسرار البلاغة ٢ / ١٧٨ •

(١٢) حاشية الشهاب ٨ / ١٧٢ •

المستعار باعتبار المعنى المجازى كان ذلك من باب الترشيح وان كانت باعتبار المعنى الحقيقي كان ذلك من باب التجريد والكثير الأول وهو الترشيح وقد أشار الشهاب الى جانب الكثرة بقوله (لأن المجاز قد يعتبر أصله في تعديته كمنطقت الحال بكذا اذ لم يقل على كذا وهو كثير) (١٣) • غلو لوحظ المعنى الحقيقي للنطق وهو الدلالة لعدى الفعل بـ (على) لكن المعنى المجازى هو الملحوظ فكسنت تعديته بـ (الباء) من باب الترشيح •

ويتلخص مما سبق أن الترشيح يكون :

- ١ — بانوصف أو تفريع الكلام •
- ٢ — بالتعجب والنهي عن التعجب سواء كان ملفوظا به أو مضمنا في الكلام •
- ٣ — بانقسام والاستفهام •
- ٤ — بعقد التثنية بين اسمين اتفقا في النوع ادعاء •
- ٥ — بتعدية الفعل المستعار بحرف يتفق مع المدلول المجازى •
- ٦ — الظرف •

٢ — الاستعارة المطلقة :

وهي التي أطنقت عن التقييد بوصف أو تفريع يلائم المستعار له أو المستعار منه حقيقة بأن لا تذكر الملائمات أصلا أو حكما بأن ذكر ما يلائم الطرفين على طريقة قولهم (تساويا تساقطا) • كما في قولك عندى أسد عظيم اللبد شاكى السلاح وفكرة التساقط عند تعارض الترشيح والتجريد — من اضافات المتأخرين أما عبد القاهر والنزمخشري فكانا ينظران الى أثر الوصف أو التفريع من غير اشارة الى أن ما بعده يسقطه أو يبقيه) (١٤) •

والباحثون يذهبون الى أن مصطلح (الاستعارة المطلقة) من اضافات المتأخرين • وأنهم نظروا فوجدوا نمطا من الأسلوب ليس من

(١٣) حاشية الشهاب ٤١٨/٦ والاشارات والتنبيهات ٢٢٢ •

(١٤) التصوير البياني ٣١٨ •

باب الترشيح ولا من باب التجريد وانما هو واقع في مرتبة وسطى
بينهما فأطلقوا عليه هذا الاسم « المطلقة » •

ولكنى أرى أن في تعليقات عبد القاهر ما يعتبر كالرمز المشير الى
هذه التسمية • فقد كان يقارن بين صورتين من التشبيه احدهما
مرشحة أى مقيدة بوصف والأخرى مطلقة عن التقييد بوصف ومعلوم
أن التشبيه كالأستعارة في الترشيح وعدمه • وبخاصة التشبيه
المحذوف الأداة لأنه يضارع الأستعارة •

فأما صورة التشبيه المرشح فهي :

هى الشمس مسكنها فى السماء

فعر الفؤاد عزاء جميلا

فلن تستطيع اليها الصعود

ولن تستطيع اليك النزولا

فقد جعل كونها شمساً حقيقة أمراً لا جدال فيه ولا يحتاج
الى دليل بل هو الصحة وانصدق بحيث تصحح به دعوة ثابتة • فجعل
كونها الشمس حجة على نفسه يصرفها عن رجاء الوصول اليها •

وأما الصورة الأخرى فهي :

فقلت لأصحابى هى الشمس ضوءها

قريب ولكن فى تناولها بعد

ثم قال (وتتأمل أمر التشبيه فيه فانك تجده عنى خلاف ما وصفت
لك وذلك أنه لم يجعل كونها الشمس حجة على ما ذكر بعد من قرب
شخصها ومثالها فى العين مع بعد مثالها بل قال — هى الشمس كذا
قولاً مرسلًا يومىء فيه بل يفصح بالتشبيه (١٥) •

فالتشبيه فى الصورة الأونى كأنه لم يجر فى خلده وأنه معه لأن
الصورة مقيدة بالترشيح فى البيت الثانى • ولكن التشبيه فى الصورة
الثانية ظاهر لأنها كما قال (مرسلة) ومن معانى الأرسال الأطلاق

والاهمال • والاطلاق والاهمال هنا يعنى عدم التقييد بوصف ملائم
كما فى الصورة الأونى • فما طبقه عبد القاهر هنا على التشبيه
طبقه المتأخرون على الاستعارة • أى أنهم انطلقوا من الأساس الذى
أرساه عبد القاهر •

وعلى ذلك فالترشيح والاطلاق لهما أصول فى حديث عبد القاهر
فقد ذكر الأول تحت دائرة التخيل وذكر الثانى باسم الأرسال •

ومن المطلقة عنى احتمال قوله تعالى : « **واعتصموا بحبل الله
جميعاً** » فالحبل مستعار للعهد والاعتصام إما أن يكون مستعاراً كذلك
للاستمسك فتكون الاستعارة مطلقة وإما أن يكون الاعتصام على
حقيقته فتكون الاستعارة مرشحة وإما أن يؤخذ التركيب بأكمله فيكون
من باب انتميلية المطلقة •

ومن المكنية المطلقة قول لبيد السابق :

« إذا أصبحت بيد الشمال زمامها »

فالشمال مثبته بالانسان المنصرف وليس بعد القرينة وهى —
البيد — شىء يلائم المستعار له أو المستعار منه وذلك كانت مطلقة
٣ — الاستعارة المجرد : وهى التى تقرن بما يلائم المستعار له •
وهو عكس مذهب الترشيح وكأنه رجوع بالكلام الى الحقيقة • وقد
أشار إليها الزمخشري فى قوله تعالى : « **فأذاقها الله لباس الجوع
والخوف** » • وقال : (فان قلت الأذاقة واللباس استعارتان فما وجه
صحتها والأذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار فما وجه صحة
إيقاعها عليه قنت : أما الأذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة
لشيوعها فى البلايا والشدائد وما يمس الناس منها فيقولون ذاق فلان
البؤس والنصر وأذاقه العذاب • شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم
بما يدرك من طعم المر البشع وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على
اللباس ما غشى الانسان والتبس به من بعض الحوادث) •

وأما إيقاع الأذاقة على لباس الجوع والخوف فلأنه لما وقع
عبارة عما يغشى منهما ويلابس فكانه قيل فأذاقهم ما غشيهم من

الجوع والخوف ولهم في نحو هذا طريقان لا بد من الاحاطة بهما فان الاستنكار لا يقع الا لمن فقدهما •

أحدهما : أن ينظروا فيه الى المستعار له كما نظر اليه ههنا ونحوه •

قول كثير :

غمـر الرداء اذا تبسم ضاحكا

غلقت لضحكته رقاب المسال

استعار الرداء للمعروف لأنه يصون عرض صاحبه صون ارداء لما يلقي عليه ووصفه بالغمر الذي هو وصف المعروف والنوال لا صفة الرداء نظرا الى المستعار له •

والثاني : أن ينظروا فيه الى المستعار كقوله :

ينا—زعنى ردائى عبد عمرو

رويدك يا أخا عمرو بن بكر

لى الشطر الذى ملكت يمينى

ودونك فاعتجر منه بشطر

أراد بردائه سبيفه ثم قال • فاعتجر منه بشطر فنظر الى المستعار فى لفظ الاعتجار ولو نظر اليه فيما نحن فيه لقبل فكساهم لباس الجوع والخوف ولقال كثير ضافى الرداء اذا تبسم ضاحكا (١٦) •

فهذه الاشارات الضافية الى ملائم المستعار له لم يزد أحد عليها شئيا سوى التسمية « التجريد » الذى وضعه الرازى (١٧) •

وفى الآية السابقة : شبه ما غشيهـم من أثر الضرر والألم سواء كان باطنا أو ظاهرا كهزال انجسم واصفراره باللباس بجامع الشمول فى كل واستعار المشبه به للمشبه على طريق التصريحية ولفظ — الاذاقة — تجريد • وقد بنى هذا التجريد على ما اشتهر فى استعمال الاذاقة فى

(١٦) الكشاف ٢/٤٣٢ •

(١٧) ينظر ذلك ٩٢ •

الشـدائد والبلايا حتى جرت مجرى الحقيقة • وهى فى الأصل لادراك
الطعم باللسان فى الأشياء ثم استعيرت لاصابة بالأحداث بجامع مطلق
الادراك والاحساس فى كل ثم اشتهر هذا المجاز حتى كاد أن يلحق
بالحقائق • فكانت الاذاقة التى تعنى الاصابة من ملائمتها المشبه فى
الآية •

(الترشيح والتجريد بين الحقيقة والمجاز)

مع وضوح كلام الزمخشري السابق فى استعمال الاذاقة فى
اصابة العذاب وأن ذلك جرى مجرى الحقيقة فقد ذهب بعض
التأخرين الى تفسير هذا النوع بوقوع الاستعارة فى التجريد والترشيح
فقال ابن السبكي « وحاصلة أن تجريد الاستعارة ههنا احتياج الى
ايضاح لأن الاذاقة لا تلائم المستعار له وهو انزال العذاب اذ الذوق
حقيقة فى الطعموم فذلك احتياج الى أن يجعل الذوق استعارة عن اصابة
العذاب ثم أوقع على اللباس فصار اللباس استعارة تجريدية لأنها
وان كانت ما قرنت به لا يلائم المستعار له على سبيل الحقيقة فإنه
يلائمه على سبيل الاستعارة فعلم بذلك أن قوننا فى الاستعارة التجريدية
والترشحية الاقتران بما يناسب المستعار أو المستعار منه انما نريد
ما يلائمه سواء أكانت ملائمته له حقيقة أم مجازا ونظير الآية الكريمة
فى أن تجريد الاستعارة وقع بما يلائمها مجازا بيت كثير السابق فان
الغمر حقيقة فى المساء الكثير فاطلاقه على الكثير من المعروف وتجريده
لاستعارة الرداء لنعروف تجريد بما يلائم المستعار له مجازا
لا حقيقة » (١٨) •

وفرغ على نظرتة الى الوصف المذكور مع الاستعارة سبع
صور (١٩) • تتنوع من حيث وجود الوصف على الحقيقة أو المجاز أو
خوّه عنهما • وهى تشقيقات لا داعى لذكرها لأن الأجدر بعملية
التخييل وتناسى التشبيه أن تظل هذه الأوصاف على حقيقتها كما قلنا
فى روادف الاستعارة المكنية •

(١٨) شروح التلخيص ٤/١٢٠/١٣١ •

(١٩) المرجع السابق •

وعلى شاكلة ابن السبكي في التجريد ذهب ابن يعقوب في الترشيح وأنه من قبيل المجاز فقال : « ثم ان الربح المنفى عنهم ينبغى أن يعلم أنه استعير للثواب والانتفاع الأخرى وأن التجارة استعيرت لاتخاذهم ارتكاب الضلالة بدلا عن الهدى دأبا فكونهما ترشيحا انما هو باعتبار أصل اطلاقهما لا باعتبار المعنى المراد في التركيب (٢٠) .

— ومما أغرى المتأخرين بذلك أنهم رأوا أنه من الممكن أن تجد في المشبه مقابلا للربح والتجارة فاجتهدوا في تلخيص ذلك على طريقة السكاكي في قرينة المكنية وكان في طباعهم شيء من التعمق تأباد طباع هذا العلم ويفسد به مسنك البحث فيه أحيانا (٢١) .

ومن تجريد المكنية :

نقريهم لهذمييات تقـد بهـا

ما كان خاط عليها م كل زراد

فاللهزم هو القاطع من الأسنان شبهها بما يقدم للضيفان من الطعوم وحذف المشبه به ورمز اليه بشيء من لوازمه وهو القرى ثم ذكر وضا من ملائمت المشبه وهو انقد أى القطع فهو وصف للسيف .

وقد يجتمع التجريد والترشيح كما في قول زهير :

لدى أسد شاكى السلاح مقذف

له لبد أظفاره ليم تقلم

فالأسد مستعار للرجل الشجاع و — ندى — قرينة الاستعارة و — شاكى السلاح — أى تامه وصف يلائم المشبه فهو تجريد و — له لبد — وصف يلائم المشبه فهو ترشيح وأما قوله (مقذف)

(٢٠) المرجع السابق .

(٢١) التصوير البياني ٣١٦ .

فيحتمل أن يكون المراد قذف به ورمى به في الوقائع والحروب وهذا من ملائمات المشبه فيكون تجريدا ويحتمل أن يراد قذف به رمى باللحم • جعل لتراكب اللحم بعضه فوق بعض كأنه مقذوف به فيكون مشتركا بين المشبه والمشبه به •

وأما قوله — أظفاره لم تقلم — فيحتمل أن المراد ليس ذلك الأسد من الجنس الذي تقلم أظفاره فيكون ترشيحا لأن الأسد الحقيقي هو الذي ليس من شأنه تقليم الأظفار ويحتمل نفي المبالغة في تقليم الأظفار وهذا مناسب للرجل الشجاع فيكون تجريدا أو المبالغة في النفي أي انتفى تقليم أظفاره انتفاء مبالغا فيه وهذا مناسب للأسد الحقيقي فيكون ترشيحا كالاختمال الأول •

فهذا البيت ان اعتبرت أن الوصفين في الشطر الأول وهما : (شاكى السلاح — ومقذف) من باب التجريد والوصفين في الشطر الثاني وهما (له لبد وأظفاره لم تقلم) من باب الترشيح كانت الاستعارة مطلقة حكما •

وان اعتبرت أن قوله — مقذف — من باب الاشتراك على التفسير الثاني أي لا ترشيحا ولا تجريدا وغلبت الوصفين الأخيرين في الشطر الثاني كانت الاستعارة مرشحة •

وان اعتبرت أن قوله — أظفاره لم تقلم — من باب التجريد على التفسير الثاني وضمته الي وصفى التجريد في الشطر الأول كانت الاستعارة مجردة لتغليب أوصاف التجريد الثلاثة على الوصف الواحد للترشيح وهو — (له لبد) •

فهى صالحة للانواع الثلاثة بهذا الاعتبار • وهذا معنى قول الصبان : (وقد يجتمع الترشيح والتجريد فتكون في مرتبة الاطلاق الا اذا كان أحدهما زائدا كما أو كيفا فيرجح جانبه) (٢٢) •

وقد حاول بعضهم جعل اجتماع التجريد والترشيح قسما

رابعاً بعد الترشيح والتجريد والاطلاق (٢٣) ولكن ذلك غير مسلم لأن اجتماعهما يعود بالاستعارة الى الاطلاق الحكيمى • كما فى قول زهير السابق •

وفى قول البحتري :

فلم أرَ ضرغامين أصدق منكما

عراكا اذا الهيابة النكس كذبا

ففيه ترشيح بالتثنية — ضرغامين — وتجريد — اذا الهيابة النكس أى الجبان انزل — وبهذا التصادم بين الترشيح والتجريد يقف الأسلوب فى دائرة الاطلاق • ولا يقال انه من باب التجريد المرشح •

أى الطرق أبلغ ؟

وقد ذكر البلاغيون أن طريق الترشيح أبلغ هذه الطرق الثلاثة فهو يدعم عملية التخيل فى المجاز فيقويه بل ويتناساه وكأن الكلام موضوع على الحقيقة وليس معنا سوى المشبه به فتذكر لوازمه •

ويليه الاطلاق لأنه الطريق المعتاد الذى تسلكه الاستعارة بمبالغتها انى تقوم على تناسى التشبيه • فليس فيه جنوح الترشيح الذى تلو مبالغته علوا ينسى المجاز نفسه وليس فيه ضآلة التخيل وضمور المبالغة برد الكلام الى الواقع وسحب دعوى الاتحاد التى تقوم عنىها الاستعارة كما فى طريق التجريد •

ولا شك أن هذه تقويمات ذاتية بالنظر الى دلالة هذه الطرق ومدى اصابتها فى تصوير المعانى فحسب دون الارتباط بالحال والمقام • اذ هو الفيصل فى تحديد منبع الأبلغية فالتجريد فى مقامه أبلغ من الترشيح والاطلاق وكذلك هما فى مقامهما أبلغ من غيرهما •

ولو كان الترشيح أبلغ دائما ما وجدنا المطلقة أو المجردة فى الكتاب المعجز ولكن بكل جاء القرآن الكريم • وحسبنا تدليلا على أن المجردة

أبلغ من المرشحة في مكانها قوله تعالى في الآية السابقة **فأذاقها الله لباس الجوع والخوف** • فانغرض منها لا يتحقق الا بمجيئها هكذا مجردة لأنها تهدف الى شيين وهما شدة الاصابة وشمولها وعمومها ولو جعلت مرشحة ففليل فكساها لباس الجوع لأفاد الشمول دون الشدة لأن اللباس يلامس الجسد فقط فالاحساس به عن طريق اللمس ضعيف ولكن الاحساس بالاذقة أقوى لأن الادراك بالذوق يستلزم الادراك باللمس من غير عكس ولو قال : فأذاقها طعم الجوع لكانت مرشحة أيضا ولكنها تفيد الشدة ولا تفيد الشمول المفسد من لفظ اللباس • وبذلك يكون الغرض والسياق هو الذي يحدد الأبلغية • أما ارسال الحكم بالأبلغية هكذا مطلقا فمردود •

ومن هنا أرى أن ما ذهب اليه بعضهم (٢٤) من اعتبار الترشيح سببا من أسباب حسن الاستعارة دون الاطلاق والتجريد فيه مجانية للصواب لأن الترشيح قد يكون سببا مباشرا لفساد الاستعارة كما في قول أبي تمام :

لم تسق بعد الهوى ماء أقل قذى

من ماء قافية يسقيك فهم

قال الآمدي (فجعل للقافية ماء على الاستعارة فلو أراد لارونق نصلح ولكنه قال يسقيه ففسد معنى الرونق لأنك اذا قلت هذا الثوب له ماء لم تجعل الماء مشروبا فتقول ما شربت ماء أعذب من ماء ثوب شربته عند فلان وكذلك لا تقول ما شربت ماء أعذب من ماء قفانك لأن للاستعارة حدا تصلح فيه فاذا تجاوزته فسدت وقبحت (٢٥) •

فاستعارة الماء للرونق استعارة صالحة ولكنها توغلت في باب الابهام بترشيحها بالسقى ففسدت •

وقد يكون الترشيح سببا من أسباب رفع الغموض والابهام فيقرب الاستعارة من الصواب كما في قول أبي تمام :

(٢٤) ينظر شروح التلخيص ٢٢٨/٤ •

(٢٥) الموازنة ٢٢١ •

فصربت الشتاء في أخذعيه

ضربة غادرته قسودا ركوبا

قال الآمدى : (فان ذكر الأخدعين على قبجها أسوغ لأنه قال —
ضربة غادرته قودا ركوبا — وذلك أن العود المسن من الابل يضرب على
صفحتى عنقه فيذل فقربت الاستعارة ههنا من الصواب قليلا ٠٠ (٢٦) •

فان أبا تمام يصور الشتاء بوعوثة ثلوجة بعيرا نافرا وكان المدوح
سدد اليه ضربة قضت على نفوره وشموسه وجعنته سهل القيادة ذلولا
وحذف المشبه به ورمز اليه بشيء من لوازمه وهو الأخدعان — عرقان في
صفحتى العنق — وعلى الرغم من قبج هذا اللازم في اثباته للشئاء
الأنة استطاع أن يقرب الاستعارة من الصحة بذكر أوصاف ملائمة
للمشبه به وهى انضرب ومغادرته قودا — ذلولا — ركوبا — فقربت
المسافة بين المشبه والمشبه به فساغ له اثبات الأخدعين للمشبه وبذلك
يتضح لنا أن الترشيح اما أن يجعل الاستعارة تصعد على سلم
الحسن درجات عالية اذا كان المقام يقتضيه واما أن يجعلها تهبط
الى المستوى الغث اذا أخذ بيدها الى دائرة الغموض واما أن يجعلها
تقف على أول درجات الصحة •

الاستعارة التمثيلية

وأما المجاز المركب فهو • اللفظ المركب المستعمل فيما شبهه بمعناه الأصلي تشبيه تمثيل للمبالغة في التشبيه • أى تشبيه احدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور بالأخرى ثم تدخل المشبهة في جنس المشبه بها مبالغة في التشبيه (١) •

و قد حمى وطيس المعركة بين انعلماء حول كلمة (تشبيه وتمثيل) الواردة في تعريف المجاز المركب • لأن التمثيل ما كان وجهه منتزعا من متعدد • وهذا الوجه الذى هو هيئة مركبة يأتى من المفردين مثل - وسقط كعين الديك - كما يأتى من المركبين مثل - وكان مثار النقع فوق رؤوسنا - ومن المختلفين بالافراد والتركيب فلو استعيرت الهيئة المركبة لمثلها فلا جدال فى ذلك وانما الجدوال فيما لو استعير المشبه به المفرد الذى يثسح هيئة فى الوجه لمثله • هل يعتبر من باب الاستعارة التمثيلية أم من باب المجاز المفرد ؟ •

فالسعد يرى أن المراد بالتركيب أن يقصد الى عدة أشياء مختلفة أو الى عدة أوصاف نشيء واحد فتنزع منها هيئة وتجعلها مشبها أو مشبها به أو وجه تشبيهه (٢) •

فنراه أشار الى وجهى التركيب وهما المركب الذى تكون من عدة أشياء مختلفة معزول بعضها عن بعض ثم تتضام وتتمازج ويتكون منها هيئة واحدة والمركب الاعتبارى أو المعنوى الذى يتكون من الأوصاف المتعددة اللفظ المفرد •

(١) بغية الايضاح ١٤٦/٣ •

(٢) ينظر الرسالة البيانية وحاشية امبابى ج ٤٥٥ •

وعلى هذا يمكن أن يعبر عن تلك الهيئة المنتزعة بعد انتزاعها بلفظ مفرد يدل عليها اجمالا اما بانوضع أو أكثر الاستعمال أو قرينة الحال فلا يجب أن يكون اللفظ المستعار من أحد الطرفين للآخر مركبا بالمعنى المشهور للمركب وهذا ماثل الى مذهب العلامة التفتازانى حيث جوز أن يكون اللفظ المستعار فى التمثيلية مفردا وفرع على هذا التجويز جواز اجتماع التبعية والتمثيلية بخلاف السيد فانه أوجب أن يكون اللفظ المستعار مركبا بالمعنى المشهور ومنع الاجتماع المذكور • وقال — كون الاستعارة تبعية يقتضى كون كل من طرفى التشبيه معنى مفردا وكونها تمثيلية يستدعى انتزاع كل من طرفيه من أمور متعددة وهو يستلزم التركيب فلا يجمعان) (٣) •

فالسيد يرى أن الاستعارة التمثيلية لا تبنى الا على التشبيه المركب ولكن السعد يرى أن الاستعارة التمثيلية تبنى على التشبيه وهو أعم من أن يكون مركبا أو غير مركب • ومن هذا المنطلق جوز السعد اجتماع التبعية والتمثيلية ومنع ذلك السيد •

وقد جاءت تعليقات الزمخشري مؤيدة مذهب السعد حيث قال :
(ومعنى الاستعلاء فى قوله (على هدى) مثل لتمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه وتمسكهم به شبهت حالهم بحال من اعتنى الشيء وركبه) (٠٠) (٣) •

ولكن السيد يفسر كلام الزمخشري بما يتفق ومذهبه فيقول :
(قوله ومعنى الاستعلاء يريد أن كلمة على هذه استعارة تبعية شبه تمسك المتقين بالهدى باستعلاء الراكب على مركوبه فى التمكن والاستقرار فاستعير له انحراف الموضوع للاستعلاء كما شبه استعلاء المطلوب على الجذع باستقرار الظروف فى الظرف بجامع الثبات فاستعير له الحرف الموضوع للظرفية فى قوله تعالى : « ولأصابنكم فى جذوع النخل » وانما قال ومعنى الاستعلاء دون معنى على لأن الاستعارة فى انحراف تقع أولا فى متعلق معناها كالاستعلاء والظرفية والابتداء مثلا ثم يسرى اليها

بتبعيته كما حقق في موضعه وقوله مثل أى تصوير • فان المقصود من الاستعارة تصوير المشبه بصورة المشبه به ابرأا لوجه الشبه في جانب المشبه بصورته في جانب المشبه به مبالغة في شأنه كأنه هو ••••• وزعم بعض الناس أن الاستعارة هنا تبعية تمثيلية • قال : أما كونها تبعية لجريانها أولا في متعلق معنى الحرف وتبعيتها في الحرف وأما كونها تمثيلية فلكون كل من طرفي التشبيه حالة منتزعة من عدة أمور ••••• وقد تمادى في ذلك من ادعى تكرره في الكشأاب وهو برىء منه (٤) •

فهو يرى في قوله تعالى (على هدى) احتمالات ثلاثة :

الأول : أن يشبه الهدى بالركوب الموصل الى المقصد فيثبت له بعض لوازمه وهو الاعتلاء على طريقة الاستعارة المكنية •

الثاني : أن يشبه تمسك المتقين بالهدى باعتلاء الراكب في التمكن والاستقرار على سبيل الاستعارة التبعية في الحرف — على •

الثالث : أن يشبه هيئة مركبة من المتقى والهدى وتمسكه به ثابتا مستقرا عليه بهيئة مركبة من الراكب والركوب واعتلائه عليه متمكنا منه على سبيل الاستعارة التمثيلية قال — وعلى هذا ينبغي أن يذكر جميع الألفاظ الدالة على الهيئة الثانية ويراد بها الأولى فكون مجموع تلك الألفاظ استعارة تمثيلية كل واحد من طرفيها منتزعة من أمور متعددة فلا يكون في شيء من مفردات تلك الألفاظ تصرف بحسب هذه الاستعارة بل هي على حالها قبل الاستعارة فلا يكون هناك حينئذ استعارة تبعية في كلمة — على — كما لا استعارة تبعية في الفعل في قواك تقدم رجلا وتؤخر أخرى الا أنه اقتصر في الذكر من تلك الألفاظ على كلمة — على — لأن الاعتلاء هو العمدة في تلك الهيئة اذ بعد ملاحظته يقرب الذهن الى ملاحظة الهيئة واعتبارها فجعل كلمة — على — بمعونة قرائن الأحوال قرينة دالة على أن الألفاظ الآخر الدالة على سائر أجزاء تلك الهيئة مقدره في الادارة قد دل بها على سائر الأجزاء قصدا كما قصد الاعتلاء بكلمة — على — (٥) •

أى أنه يرى فى (على هدى) استعارة مكنية أو تبعية فقط أو تمثيلية فقط ولا بد من أن تكون الألفاظ الدالة على الهيئة الثانية مقدرّة أو منوية فى الإدارة ولكن السعد لا يرى تقدير ألفاظ أو نيتها إذ أن المقدر الملاحظ كالمذكور بل إن اللفظ المفرد الذى تكون نه أوصاف متعددة يكفى فى اعتبار الهيئة • فبالنظر إليه مفردا يكون استعارة تبعية وذلك لأنه لما شبه كمال تمسكهم بالهدى باعلاء الراكب فحصلت التبعية ثم نعتبر الهيئة المنتزعة من المتقى والهدى وتمسكه به مشبهة بهيئة منتزعة من انراكب والمركوب واعتلائه عليه وهذه الهيئة الثانية لمفهوم بعضها بالمطابقة كالاغلاء والبعض الآخر بالالتزام هى المعتبرة فى الاستعارة التمثيلية الحاصلة بلا تركيب فى اللفظ المستعار •

وفى قوله تعالى : « **والله محيط بالكافرين** » قال الزمخشري : (واحاطة الله بالكافرين مجاز والمعنى أنهم لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط حقيقة) •

علق عليه السيد بقوله (فان شبه شمول قدرته تعالى اياهم باحاطته المحيط بما أحاط به فى امتناع الفوات كان هناك استعارة تبعية فى الصفة سارية اليها من مصدرها وان شبه حاله تعالى معهم بحال المحيط مع المحاط أى شبه هيئة منتزعة من عدة أمور بأخرى مثلها كأن هناك استعارة تمثيلية لا تصرف فى شىء من ألفاظ مفرداتها الا أنه لم يصرح ههنا الا بلفظ ما هو العمدة فى الهيئة المشبه بها أعنى الاحاطة والبواقي من الألفاظ منوية •

وحسبى تلك الاشارة الى جانب من جوانب هذه المعركة التى عقدت لها المجالس وصنفت فيها انرسائل فهى أكبر من أن يضمها هذا البحث المتنوع الأطراف •

ومما تجب ملاحظته أن الخلاف السابق فيما اذا عبر عن الهيئة بلفظ مفرد وأما اذا عبر عنها بتركيب كما فى قوله تعالى : « **والسموات مطويات بيمينه** » وقولهم (أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى) فان المفردات لا توصف بحقيقة ولا مجاز « لأن المفردات تصبح كأنها

حروف في الكلمة المفردة وهذا أثر من آثار المزج بين المفردات في الاستعارة المركبة فلا ينظر فيها انى المفردات الا من جهة مشاركتها في تكوين الصورة « (٦) » .

ومن هذه التراكيب قوله تعالى : « **وَدَخَلْتُمْ عَلَىٰ ثَمُودَ حَفْرَةً مِّنَ النَّارِ فَاَنْقَذَكُم مِّنْهَا** » فانه يصور حال هؤلاء الأقوام الذين كانوا على غير الهدى ويكاد يقذف بهم في عذاب الله لو ماتوا على هذا الحال بحال الكائن على طرف حفرة من جهنم اذ لم يكن بينه وبينها الا الموت واستعار الحالة الثانية للأولى على سبيل التمثيلية .

ومنه قوله تعالى : « **أَفَمَن أَسَسَ بِنِيَانِهِ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَسَ بِنِيَانِهِ عَلَىٰ ثَمُودَ حَرْفِ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ** » .

فقد جوزوا أن تكون الجملة الأولى تمثيل لحال من أخلص لله وعمل الأعمال الصالحة التي تنجيّه من عذاب الله تعالى بحال من بنى بناء محكما قويا يستوطنه ويتحصن به في دنياه واستعيرت الهيئة الثانية للأولى .

وتكون الجملة الثانية تمثيلا كذلك بتشبيهه حال من لم يخلص لله وفرط في جنبه وصرورته لا محالة لعذابه بحال من بنى بناء هشا ضعيفا على طرف بئر متصدع الأركان لا يأمن من القيام فيه بل يكون سببا في هلاكه .

ويجوز أن يشبه الباطل والنفاق بشفا جرف هار في قلة الثبات على سبيل التصريحية (*) .

ومن التمثيلية على احتمال قوله تعالى : « **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا** » فقد شبه حال المسلم الذي يستظهر بالله ويلوذ بحماه ويأمن في ركنه الحصين بحال المتدنى من مكان مرتفع المستمسك بحبل وثيق يأمن انقطاعه واستعار الحالة الثانية للأولى .

(٦) البلاغة القرآنية ٤٤١ .

(*) ينظر روح المعاني ٢٢/١١ .

وأن يكون استعارة الحبل لعهدہ والاعتصام لوثوقه بالعهد أو
ترشيحا لاستعارة الحبل (٧) •

وفي قوله تعالى : « وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من
الله » شبه حال اليهود في لزوم الذلة والمسكنة لهم بحال من ضربت عليه
قبة فهي محيطة به ومشمتملة عليه في الاحاطة والملازمة • واستعيرت
الحالة الثانية للأولى •

أو تشبه الذلة والمسكنة بالقبة أو بالطين الذي يلصق على الحائط
ويحذف المشبه به ويرمز إليه بشيء من لوازمه وهو انضرب • فقد ورد في
اللغة ضرب القبة والخيمة اذا أقامها لتحييط بمن فيها • وضرب الطين
على الحائط اذا ألصقه بها • وذلك على سبيل المكنية •

ويمكن أن تجرى استعارة تصريحية تبعية في انفعال (ضربت) •
لمعنى الاحاطة واللزوم (وعلى كلا الوجهين فالكلام كناية عن كونهم أذلاء
صاغرين) (٨) •

وهذا الثراء المجازى للآيات القرآنية سر من أسرار روعتها وجمالها
فحيثما تناولتها جملة بهرتك بألوانها المختلفة وظلالها المتنوعة فتنضم
أشعتها وتتمازج لبنساتها لتكشف عن الغرض المنشود وحيث تناولت
مفرداتها بهرتك بألوان طيفها وقادتك الى الموطن المقصود أو الجانب المثير
من جوانب التعبير وكأنك في كلتا الحالين حاصل على الغنيمة المطلوبة •

وقد ضرب عبد القاهر أمثلة لها بقول داود بن علي (شكر شكرا أنا
والله ما خرجنا لنحفر فيكم نهرا ولا لنبنى فيكم قصرا أظن عدو الله أن
لن نظفر به ؟ أرخى له في زمامه حتى عثر في فضل خطامه • فالآن عاد
الأمر في نصابه وطلعت الشمس من مطلعها والآن قد أخذ القوس باريها
وعاد النبل الى النزعة ورجع الأمر الى مسـتقره في أهل بيت الرأفة
والرحمة) (٩) •

(٧) الكشف ١/٤٥٠ •

(٨) روح المعاني ١/٢٧٦ •

(٩) أسرار البلاغة ٢/١١١ •

نقوله (أرخى له في زمامه حتى عثر في فضل خطامه) يشبهه حال العدو الذى يترك سادرا فى غيه مائلا فى جنوحه مغرورا بتمرده حتى يسقط فى هتكته بحال البعير الذى يغريه ارخاء الزمام على الشroud والجنوح حتى يسقط ويعثر فى فضل خطامه •

وقوله (طلعت الشمس من مطلعها) يشبه عودة الخلافة الى أهل بيت الرأفة والرحمة بحال طلوع الشمس من مشرقها أى بعودة الأشياء الى طبيعتها وحلول الأمر فى مكانه الطبيعى •

وقوله (والآن قد أخذ القوس باربيها) يشبهه حال رجوع الخلافة الى مستحقيها والمرشحين لها والعارفين بأصول الامامة فى الحفظ وسياسة الخلق بحال أخذ البارى لقوسه فهو أعرف بخيرها وشرها وكيفية تسويتها ووضع سهامها فى الموضع الذى يصيب به شاكله الأمر •

هذا وان كان يمكن أن تجرى استعارات مفردة فى ظلال هذه التراكيب فيشبهه العدو مثلا بالبعير عنى طريق المكنية ويستعار القوس للخلافة والبارى لمن يستحقها على طريق التصريحية الا أن ذلك يذهب بروعة المصور المركبة ويطفىء جريان الاحساس الثورى والانفعال المتدفق الجارى فى معانيها ومبانيها (الفرق فى انحقيقة فرق جوهرى لأنك حين تعتبرها تمثيلية انما تتناول حالة بكل أطرافها وأحداثها ومقدماتها ونتائجها • تعتبر قصة كاملة فتدمجها فى مثلها وتذكر قصة أو حالة لتدل بها على قصة أو حالة • أنت هنا لا تحرك الكلمات من مواقعها كما كنت تفعل هناك ولكنك تحرك شيئا أوسع تحرك أحداثا مترابطة وأحوالا متماسكة نتدمجها فى مثلها •• (١٠) •

ولذلك انبرى عبد القساهر يوضح الطريق الرشيد فى تفسير الشعر وتذوقه بالحاسة المهيئة لمعرفة طعمه وأنه لا ينبغى أن يؤخذ أخذا اجماليا لأن فى ذلك اهدارا لمعانيه المتوارية فى أعطافه ومطاويه وبخاصة اذا كانت هذه المعانى لا تؤخذ من مفردات وانما من أشياء مضموم بعضها الى بعض • وعدم معرفة هذه الفروق الدقيقة يؤدى الى بتر الصور وضىاع المعانى •

ويضرب لذلك مثلا بقولهم • اليد مجاز عن القدرة واليمين في قوله تعالى : (**والسّموات مطويات بيمينه**) **بمعنى القدرة وفي قول الشّماح :**

إذا ما راية رفعت لمجدد

تلقاها عرابة باليمين

بمعنى القوة • وهكذا نظروا الى المعانى المفادة من الكلمات المفردة فجنوا على شطر كبير من المعانى المتولدة فى الحقيقة من الهيئات المتكاملة كأبى العباس المبرد • ولذلك قال عبد القاهر (وهذا منهم تفسير على الجملة وقصد الى نفي انجراحة بسرعة خوفا على السامع من خطرات تقع للجهال وأهل التشبيه جل الله وتعالى عن شبه المخلوقين ولم يقصدوا الى بيان الطريقة والجهة التى منها يحصل على القدرة والقوة واذا تأملت علمت أنه على طريقة المثل (١١) •

لأنك لا تكاد تجدها تراد معها القدرة الا والكلام مثل صريح ومعنى القدرة منتزع من اليد مع غيرها أو هناك تنويح بالمثل (١٢) •

فكما رفض عبد القاهر قول سيبويه ان التقديم يكون للعناية والاهتمام وحبذ الكشف عن الكيفية من أين كانت هذه العناية ولم كان هذا الاهتمام نراه هنا لا يقتنع بقول المبرد عن أصحاب المعانى ان اليد مجاز عن القوة دون أن يبينوا الطريقة والجهة التى جاء منها هذا المعنى • ولو خطوا تلك الخطوة التى يوجه عبد القاهر نظر الدارس اليها لأدركوا أن المعنى المراد ليس وليد كلمة بعينها وإنما هو نسيج لصورة متكاملة مأخوذة من اليد بضميمة شئ آخر اليها •

ويبين الوجه الصحيح فى قوله تعالى : (**والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسّموات مطويات بيمينه**) •

فقد شبهه أولا : حال الأرض فى تصرفها تحت قدرة الله وأنه لا يشذ شئ منها عن سلطانه تعالى بحال الشئ الذى يكون فى قبضة الآخذ له منها والجامع يده عليه واستعيرت الحالة الثانية للأولى •

وشبهه ثانيًا : حال السموات في اذعانها وطاعتها لقدرة الله تعالى لا يشذ شيء منها عن أمره وسلطانها بحال الشيء يكون في يمين الآخذ له المتمكن منه •

وفي قول الشماخ نجده يصف (عرابة) بالنهوض للمكرمات بجد واهتمام واحتفال وهذا لا يؤدي الا بمجموع التلقى واليمين • فيقال • شبه حال عرابة في حرصه على فعل المحامد وشريف الفضائل بأريحية ونشاط بحال من يتلقى الشيء بيمينه وكان عبد القاهر ذا قدرة فنية في سبر دلالة الكلمة ومعرفة أثرها في التصوير • فقارن بين البيت على نظمه السابق وبينه لو وضعت فيه كلمة — التناول — فقيل •

إذا ما راية رفعت لمجد

تناولها عرابة باليمين

فانه يذهب منه الكثير من معاني الحرص والاهتمام والأريحية التي تفيض بها كلمة — التلقى — ويبقى المعنى فاترا ضعيفا لا طعم له كما قال •

أقسامها :

أشار الصبان الى أن الاستعارة انتميلية تتنوع الى تحقيقية وعقلية وتخيلية بالنظر الى الهيئة المستعار منها •

فالتحقيقية : ما كانت مكونة من أمور موجودة في الخارج كقولهم للمتردد انى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى •

والعقلية : ما كانت مكونة من أمور موجودة في الذهن كقولك لجاهل صادف صحة البيع • أراك تعلم شرائط البيع الشرعية •

والتخيلية : ما كانت مكونة من أمور متخيلة لا تحقق لها في الخارج ولا في الذهن كقولك لمن عرض نفسه لنهالك • أراك تدخل بيت الغول •

فالتخييلية عند البيانين تطلق على هذه وعلى قرينة المكنية وكأن
التخييلية نوعان • مفردة وهي قرينة المكنية • ومركبة وهي التمثيلية
المكونة من أمور متخيلة •

وكذلك الحال بالنسبة للتبعية • نوعان • مفردة وهي ما كانت في
المجاز المفرد ومركبة وهي التبعية التمثيلية كما وضحت عند السعد •

قرينة الاستعارة :

وضح مما سبق أن الاستعارة مجاز ولا بد في كل مجاز من قرينة فهي – الأمر الذي ينصبه المتكلم دليلاً على أنه لم يرد باللفظ المستعار حقيقة ما وضع له أو هي الذي يفصح عن المراد من غير أن يستعمل فيه وهذا الأمر قد يكون لفظاً وقد لا يكون وتتحقق القرينة اللفظية بلفظ يذكر في الكلام يصرف المستعار عن معناه الحقيقي إلى المعنى المجازي • وهذه القرينة من ملائمات المشبه في الاستعارة التصريحية ومن ملائمات المشبه به في الاستعارة المكنية (١) •

القرينة الحالية : هي الدلالة العقلية التي تصرف اللفظ المستعار إلى المعنى المجازي مثل قول الشاعر :

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ

زغب الحواصل لا ماء ولا ثمر

فالحطيئة استعار الأفراخ لأولاده الصغار استعارة تصريحية أصلية وليس هناك لفظ يصرف اللفظ عن معناه الحقيقي سوى الدلالة الحالية • فقد كان يستعطف عمر ليطلق سراحه ويعود إلى صغاره فهم محتاجون إليه عاجزون عن القيام بشئونهم •

ومنه قوله تعالى : « **أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ** » أي ضالاً فهدناه • وقد سبق بيانها •

والقرينة اللفظية : تتنوع في التصريحية الأصلية والتبعية في الأفعال والمشتقات والحروف وفي المكنية •

(١) البيان بين عبد القاهر والسكاكي ١٨٩ •

فالقريظة في التصريحية :

١ - قد تكون أمرا واحدا كما في قولك - رأيت أسدا يرمى
فالرمي قرينة صارفة عن المعنى الحقيقي للأسد الى المعنى المجازي
المراد وهو الرجل الشجاع •

٢ - وقد تكون أكثر من أمر واحد كالأمرين في قول الشاعر :

فان تعافوا العدل والايمانا

فان في أيماننا نيرانا

والمعنى : ان كرهتم العدل والايمان بالله ورسوله نصار بكم
بالسيوف ونلجئكم الى الطاعة فان في أيدينا سيوفا تلمع كالنيران •

فاستعار - النيران - للسيوف • استعارة تصريحية أصلية
والقريظة المانعة من ارادة انار الحقيقية - تعلق الفعل - تعافوا -
بكل من العدل والايمان وجعل الأمرين معا قرينة لتوقف الابانة عن
غرض الشاعر عليهما ^{شئى سور الزمعة} بمنزلة الشرط في حسن الاستعارة ولو
انفرد أحدهما عن الآخر لصحت الاستعارة •

(وهذا مبنى على جواز تعدد القرينة وهو الحق وقال بعضهم
لا يجوز تعدد قرينة الاستعارة لأنه ان كان الصرف عن ارادة المعنى
انحقيقى بجميع تلك الأمور فلا نسلم تعدد القرينة وان كان بكل واحد
فلا حاجة لما عدا الأول وحينئذ فيجعل ترشيحا أو تجريدا) (٢) •

فالعلامة الدسوقي يشير الى جواز تعدد القرينة من منطلق
هذه الشواهد ويذكر أن البعض يرى أن المعنى المجازي اذا كان لا يظهر
الا بمجموع هذه القرائن فالكل قرينة واحدة • وان كان يظهر باحداها
فالأول هو القرينة والباقي يعتبر من باب الترشيح أو التجريد • وعنيه
فالمثال المشهور في التجريد وهو - غمر الرداء اذا تبسم ضاحكا تعتبر
كلمة - غمر - قرينة الاستعارة وقوله - اذا تبسم ضاحكا - تجريدا
وهذا خلاف المشهور عند البلاغيين •

وأرى أن تعلق — تعافوا — بكل من العدل والايمان لا ينهض أن يكون قرينة على أن المراد بالنار انسيوف اذ لا مانع من أن يقول الانسان في مقام التخويف والوعيد مثلا — ان تكرهوا العدل والايمان فانا قد أعددنا لكم النيران أى لاحراقكم فيها • وعلى هذا يكون المراد بالنيران النار الحقيقية • ولكن الذى دل على المعنى المجازى هو مجموع تعلق الفعل بالعدل والنيران مع قوله فى ايماننا لأن الذين يكون فى الايمان أى اليد المعلومة هو انسيوف • يقول ابن السبكي (والذى يظهر فى البيت أن القرينة مجموع فان تعافوا مع قوله ايماننا جمع يمين لأن الأول دل على العقوبة والثانى دل على عدم ارادة النار الحقيقية فان الذى هو فى الأيمان السلاح لا النار فان الغالب أنها تأجج ولا يطول مكثها فى الأيدي) (٣) •

كما فى قول الشاعر :

وصاعقة من نصله تنكى بها

على أرؤس الأقران خمس سحائب

يصف ممدوحه بالشجاعة والكرم على طريق الاستتباع •

ويستعير — السحائب — لأنامل الممدوح أو أصابعه على الحقيقة أو المجاز يعنى أن المقصود بالأنامل اما حقيقتها للمبالغة فى شجاعته وأنه لا كلفة عليه ولا مشقة فى تقليب السيف على الأعداء واما أنه أطلق الأنامل وأراد الأصابع على المجاز المرسل •

وجعل القرينة المانعة من ارادة السحب الحقيقية جميع ما تقدم فى البيت أى من ذكر الصاعقة وكونها من حد سيفه على التجريد أو الاستعارة ومن انقلابها على أرؤس الأقران ومن كون المنقلب بها خمسا • فمجموع هذه الأمور الأربعة تدل على المبالغة الواضحة التى يريدها الشاعر • والا فمن الممكن أن يقوم بعضها فى تعيين المراد ولكن تفوت الدلالة الواضحة البالغة فى الوضوح •

قرينة التبعية في الأفعال والمشتقات والحروف :

وأساس القرينة في هذه الأنواع الثلاثة ارتباطها بغير الملائم حقيقة فتحتاج التراكيب للبحث عن دلالة يستقيم المعنى عليها وهذا المعنى هو المعنى المجازى والمرشد اليه قد يكون :

١ — **الفاعل** : كما في قولك • نطقت الحال بكذا فإنه يستحيل تعلق النطق الحقيقي بانحال فدل ذلك على أن المراد بالنطق ليس معناه الحقيقي وإنما المراد به الدلالة • فهي التي تتفق مع الحال — فاستعير النطق للدلالة على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية •

٢ — المفعول كما في قول ابن المعتز :

جمع الحقيق لنا في امام

قتل البخل وأحيا السماحا

فالقتل والاحياء يتعلقان بالأجسام الحية والبخل والسماح من المعنويات فكان تعلق الفعلين — قتل و — أحيا — بالمفعولين — البخل — والسماح تعلقا غير حقيقي — فالمراد اذن منهما هو المعنى المجازى — فيقال في الأول شبه الازالة بالقتل في الاعدام لما يتعنى بهما واستعير القتل للازالة واشتق منه قتل بمعنى أزال • وفي الثاني شبه كثرة السماح بالاحياء بجامع ظهور المتعلق في كل واستعير الاحياء للكثرة واشتق منه بهذا المعنى أحيا بمعنى أكثر •

٣ — المفعول الثانى • كما في قول الشاعر :

نقريهم لهذميات نقد بها

ما كان خاط عليهم كل زراد

فالقرى هو تقديم الطعام للضيف • ولكنه هنا تعنى بالهذميات وهي الأسنة القاطعة فدل ذلك على أن المراد بالقرى غير معناه الحقيقي • وهو تقديم الطعنات فشبها بتقديم انعام بجامع التقديم في كل واستعير القرى لتقديم الطعنات واشتق منه بهذا المعنى نقريهم بمعنى نطعنهم على سبيل التبعية •

٣ — المفعول الأول والثانى كما فى قول الشاعر :
وأقـرى المسامع اما نطقـت

بيانا يقود الحرون الشـموسا

فتعلق القرى بكل من المسامع والبيان دل على أن المراد به غير
معناه الحقيقي السابق وأن المعنى المجازى هو المراد أى تقديم
عذب الحديث .

٥ — المجرور كما فى قول تعالى : « فبشرهم بعذاب أليم »
فالتبشير الاخبار بما يسر فيدل تعلقه بالعذاب على أن المراد به ضده
وهو الانذار بما يسيء . فثبته التبشير بالانذار بتنزيل انتضاد بينهما
منزلة التناسب تهكما واستعير التبشير للانذار واشتق منه بمعنى
الانذار بشر بمعنى أنذر . على سبيل التبعية التهكمية .

٦ — أن تكون جميع ما تقدم كما قال السكاكى فى قول
الشاعر :

تقرى الرياح رياض الحزن مزهرة

اذا سرى النوم فى الأجفان ايقاظا

فانقرى الحقيقى لا يصدر من الفاعل — الرياح — ولا يقع على
المفعول الأول — الرياض — ولا على المفعول الثانى — الايقاظ —
ولا يتعلق بالجار والمجرور — فى الأجفان — وقيل ان المجرور متعلق
بالفعل — سرى — وعليه فهو غير داخل فى القرينة .

٧ — المجرور فى الاستعارة بالحرف لأن مدخول الحرف اذا كان
صالحا لتعلق معنى الحرف الحقيقى به كالظرفية بالنسبة للحرف —
فى — كان حقيقة مثل — زيد فى المسجد ومحمد فى البيت وان كان غير
صالح لتعلق معنى الحرف به دل على أن تعلقه به مجازا كقولنا — هو فى
نعمة أو فى ضلال وكالاستعلاء بالنسبة للحرف — على — نقول : محمد
على الفرس و على الجبل فيكون حقيقة ولو قلنا محمد على الهدى أو على
الحق كان مجازا — قال النسيوطى — ان قرن الحرف بما يلائمه كان حقيقة

وان قرن بغير الملائم كان مجازا في التركيب (٤) •

٨ — ارتباط أدوات الشرط بأفعال ذات صبغة زمنية معينة كتلك الأدوات التي استعرضنا مدلولاتها وأوضاعها مع أفعالها في الاستعارة الزمنية • فارتباط — اذا — مثلا بالمضارع دل على أن الماضي الذي يأتي بعدها على سبيل المجاز وارتباط — لو — بالماضي دل على أن ما يأتي بعدها من المضارع على سبيل المجاز — كما أنه عندما تجرى استعارة مكنية في مدخولها تكون هذه الأداة نفسها هي قرينة الاستعارة •

قرينة المكنية :

مضى الحديث عن الاستعارة المكنية وقرينتها فهي اثبات لازم المشبه به للمشبه وهذا الاثبات استعارة تخيلية • وفي رد التبعية للمكنية على مذهب السكاكي في الاستعارة بالحرف يكون مدخول الحرف هو المشبه والحرف هو اللازم المثبت له عنى طريق التخيل قرينة •

الاستعارة بين الحسن والقبح

طرق البلاغيون المتأخرون هذا الموضوع من الوجهة التقنينية المعيارية انطلاقاً من رغبتهم في التقسيم والتحديد ووضعوا لحسن الاستعارة شروطاً إذا روعيت في بناء الكلام حسنت الاستعارة والاقبحت . ومن هذه الشروط .

١ - رعاية جهات حسن التشبيه : وهذا الشرط من منطلق أن التشبيه أصل للاستعارة فإذا حسن الأصل حسن الفرع المتولد منه وحسنه من كون الوجه شاملاً للطرفين وغريباً غير مبتذل وكون التشبيه وافياً بالعرض المقصود (١) .

مناقشة هذه الشروط :

بالنسبة لمساواة وضع شروط لحسن الاستعارة فيها مجانبة كبيرة للصواب لأن وضع شروط معينة يمكن أن تأتي الثمرة المرجوة منها في أي علم ما عدا علم البلاغة الذي يقوم في جانبه الأكبر على التذوق واستشفاف الجمال من دلالات التعبير وأعطاف الكلام ومقضييات الأحوال وهذه الأمور لا تخضع لقاعدة محددة لأنها تنطلق من النفس المتذوقة والاحساس المطبوع ولا يمكن حصرهما في مسارب محددة فالنفوس والأطباع لا تلتقى على حد واحد ولكنها متباينة تباين الأشكال التي تبدو في ظلالها . ولذلك يكون من الصعوبة بمكان وضع أطر معينة لمسار الاستعارات الحسنة . ولكن من الممكن تصور مبادئ عامة يمكن النظر من خلالها إلى الاستعارات المستحسنة . وسنذكر شيئاً في ذلك .

وأما كون حسن الاستعارة مربوطاً بحسن التشبيه فهذا لا يستقيم على إطلاقه لأنه يؤدي إلى أن التشبيه الحسن يمكن نقله إلى استعارة

(١) ينظر في ذلك شروح التلخيص ٤/٢٢١ .

حسنة وأن التشبيه القبيح يؤدي الى استعارة قبيحة • وليس الأمر كذلك • فهناك من التشبيهات الرائعة ما لو نقلت الى الاستعارة لفقدت جمالها ودخلت في باب الخفاء • ومنه قوله ﷺ — الناس كابل مائة لا تجد فيها راحلة — يصور فكرة ندرة وجود الكامل مع كثرة أفراد جنسه • فهذا الشبه الخفى يقتضى أن يظل الحديث على وضعه هكذا كامل الأركان فلو حذف أحد أركانه أو نقل الى الاستعارة لفات الغرض المقصود • فلو قلنا : الناس كالابل لم يعلم الوجه المقصود وتوهم أنهم كالابل في كثرة الأكل أو كبر الأعضاء أو في التحمل والجلد • وكذلك لو نقل الى الاستعارة فقييل — رأيت ابلا مائة لا تجد فيها راحلة — تريد الناس — كان تعمية والغازا — ويلاحظ أن الرسول الكريم اختار الابل لأنها تتكاثر في مرأى العين حسن شياتها وأشكانها الملبسة والموهمة بعنتها وكرمها وهذا هو الذى تراه في الناس حين ترى الكثير يرتدون مسوح الراشدين ويتحدثون بلسان الصديقين ولكن الخبر يمزق كل هذه الأقنعة ويكشف قلوب الشياطين وراء وجوه الملائكة • الشبه الذى أوضحه هذا التشبيه شبه خفى ولولا التشبيه بكامل أركانه وضوح أدواته لما استطاع ابراهه (٢) •

وكذلك قوله ﷺ : (مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الريح تصرمها مرة وتعديلها أخرى حتى يأتيه أجله ومثل الكافر كمثل الأرزة المجذبة على أصلها لا يصيبها شيء حتى يكون انجعافها مرة واحدة) •

يصور رحلة المؤمن في الحياة وأنه فيها بين سرور وبكاء ويسر وعسر وضيق وسعة يتقلب بين الشكر والصبر وبين الخوف والرجاء حتى يأتيه أجله فينقلب الى حياة لا كدر فيها ولا شقاء • ويختار له (الخامة من الزرع) هذا العنصر الغض اللين الهين الذى تحركه الريح فهو دائما بين اعوجاج واستقامة يؤدي مهمته في الحياة حتى يزول وهكذا المؤمن السارب في الحياة عرضة لبلائها ومنغصاتها وتكشيرها في

وجهه ولكنه يصبر ويصابر ويتحمل ويغائب حتى يأتيه اليقين • فيحظى بالرضا والقبول انها موااساة للمؤمنين في هذه الحياة •

وعلى الطرف المقابل • نجد الطغاة المتكبرين الذين لا تهز قلوبهم آية ولا يقنعهم دليل فيظلموا عنى عتوهم وجبروتهم عاكفين حتى يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ولذلك يختار الرسول لهم — شجرة الأرز —

وهنا تكمن الدقة البيانية النبوية في التعبير بهـذا العنصر • فالأرز — تدور مادته حول الثبات والتقبض وانجمـع والبخل كما أن شجرة الأرز وهى الصنوبر كما ورد فى اللسان ليس لها ثمرة سوى الزفت الذى يستخرج من عصارتها وأعتقد أن كل هذه المعانى مرادة فى تشبيهم بها وأنها تظل كذلك حتى يكون قطعها مرة واحدة •

وكذلك فى تصويره ﷺ المؤمن بالنخلة فى كثرة النفع واستمرار العطاء وأن ذلك ليس مقصورا على المسالمين بل يتعداه أيضا الى المؤذنين فالنخلة تقذف بالحجارة فتسقط رطبا جنيا •

فلو أخرجنا هذه الأحاديث مخرج الاستعارة لغامت هذه المعانى المقصودة وكان تكديفا بعلم الغيب كما يقولون • وقال عبد القاهر (ليس كل شىء يجىء فيه التشبيه الصريح بذكر الكاف ونحوها يستقيم نقل الكلام فيه الى طريقة الاستعارة واستقاط ذكر المشبه به جملة والاقتصار على المشبه به) (٣) •

وضرب لذلك أمثلة بالأحاديث السابقة وبقول النابغة :

فانك كالتليل الذى هو مدركى

وان خلقت أن المنتأى عنك واسع

فالشاعر تتسلط عليه رهبة الخوف ويحيط به اليأس حيث أن سطوة النعمان نازلة به لا محالة وان أوهم نفسه بامكان الافلات فشببهه بالتليل الذى يمثل الخوف وتراكم انهموم وانقطاع الأنبس والاحاطة من كل

مكان • فكان وضع التشبيه أن يظهر على وضعه هكذا • حتى يبين
عن مقصود الشاعر •

ومثله قول أبي تمام :

وكان المثل في بدء وعـود

دخـانا للصنـيعة وهى نار

قد شبه المثل بالدخان والصنـيعة بالنـار ولكنه صرح بذكر المشبه
وأوقع المشبه به خبرا عنه وهو كلام مستقيم ولو سنكت به طريقة
ما يسقط فيه ذكر المشبه فقلت مثلا أقبستنى نارا لها دخان — كان ساقطا
ولو قلت • أقبستنى نورا أضاء أفقى به • تريد علما كان حسنا حسنه
إذا قلت • علمك نور فى أفقى • والسبب فى ذلك أن اطراح ذكر المشبه
والاقتصار على الاسم المشبه به وتنزيله منزلته واعطائه الخلافة على
المقصود • انما يصح اذا تقرر الشبه بين المقصود وبين ما نستعير
اسمه له وتستنينه فى الدلالة وقد تقرر الشبه بين المرأة والظيعة وبينها
وبين الشمس ولم يتقرر فى العرف شبه بين الصنـيعة والنار وانما هو
شئ يضعه الآن أبو تمام ويتمحله ويعمل على تصويره فلا بد له من ذكر
المشبه والمشبه به جميعا حتى يعقل عنه ما يريده ويبين الغرض الذى
يقصده والا كان بمنزلة من يريد اعلام السامع أن عنده رجلا هو
مثل زيد فى العلم مثلا فيقول له — عندى زيد •

ويسومه أن يعقل عن كلامه أنه أراد أن يقول عندى رجل مثل

زيد أو غيره من المعانى وذلك تكليف علم الغيب (٤) •

وأما كون الوجه شاملا للطرفين فمعلوم أنه لا يصح تشبيهه
ولا استعارة الا اذا كان بين الطرفين وان تباعدا جامع اذ هو الوصف
الذى قصد اشتراك الطرفين فيه حقيقة أو تخيلا • فهذا الشرط يعتبر
شرط صحة لا استحسان •

وأما كون وجه الشبه بعيدا فقد وضح البلاغيون أنه ليس المراد
بالبعد البعد الذى يصل الى حد التعمية والالغاز كما أن ليس المراد

بالقرب انقرب انذى يصير جلاؤه الى ابتذال — ومن هنا فليس هناك تناف بين اشتراط البعد فى التشبيه واشتراط القرب والجلء فى الاستعارة — لأن المراد بالقرب فى الاستعارة أن يكون الشبه قسويا واضحا وان كان بين طرفين متباعدين وهذا نفسه هو شرط الحسن فى التشبيه لأن تباعد الطرفين لا يحقق بلاغة التشبيه الا اذا قوى الشبه بين هذين المتباعدين حتى يكون مقدار قربها فى انقلب على مقدار بعدهما فى الحسن (٥) •

وأما كون التشبيه وافيا بالعرض المقصود فليس حسنه هذا شافعا لامكانية نقله الى الاستعارة وقد بينت طرفا من الأحاديث النبوية والشواهد الشعرية التى جاءت على أسلوب التشبيه ولا يمكن نقلها الى الاستعارة اذ لم تجر تشبيهاتها على أوجه متعارفة مشهورة • وأبعد من هذه التشبيهات فى النقل الى الاستعارة تلك التشبيهات التى فقدت الدلالة على العرض المقصود منها كهذا التشبيه الذى شبه صاحبه نفسه بالحمار فى الصحة فقال :

بل لو رأتنى أخت جـيراننا

اذ أنا فى الدار كائى حمار

فدلالة هذا التشبيه على الصحة من أبعد ما يكون والمتبادر منه هو الغباء والبلادة • فهذا التشبيه الفاسد أو البعيد كما سماه المبرد لا يمكن نقله الى الاستعارة بنفس العرض المقصود وهو الصحة •

وقد وضع عبد انقاهر أن الفرق بين التشبيه الذى يظل فى دائرة التشبيه وبين التشبيه الذى ينقل الى الاستعارة من المواطن الغامضة ويصعب وضع قاعدة معينة أو قول قاطع فى ذلك وغاية ما يمكن الاعتماد عليه هو : (أن الشبه اذا كان وصفا معروفا فى الشئ قد جرى العرف بأن يشبه من أجله به وتعرف كونه أصلا فيه يقاس عليه كالنور وانحسن فى الشمس أو الاشتهار والظهور وأنها لا تخفى فيها أيضا وكالطيب فى المسك والحلاة فى العسل والمرارة فى الصاب والشجاعة فى الأسد والفيض فى البحر والغيث والمضاء والقطع والحدة فى السيف

والنفاذ في السنان وسرعة المرور في السهم وسرعة الحركة في شعلة النار وما شاكل ذلك من الأوصاف التي لكل وصف منها جنس هو أصل فيه ومقدم في معانيه — فاستعارة الاسم للشيء على معنى ذلك التشبيه تجيء سهلة منقادة (٦) •

فيستخلص مما تقدم • أن التشبيه الذي تقوى فيه المشابهة ويجرى به العرف وتعتبر أصالته فيمما يدل عليه كالحسن في الشمس والحلاوة في العسل والشجاعة في الأسد وغير ذلك يمكن نقله إلى الاستعارة إذا أريد المبالغة في التشبيه •

وأن التشبيه الذي تخفى وجه المشابهة فيه وتدق ولا يكون المقصود منه ما هو متبادر ومعروف ولكنه يهدف إلى خصوصية معينة لو برزت في معرض غير التشبيه لتوهم غيرها ولضاعت الفائدة منه فهذا لا يمكن نقله إلى الاستعارة •

وأن التشبيه الذي فسد بعده عن غرضه أولى من السابق في عدم إمكان نقله إلى الاستعارة •

٢ — أن لا يشتم رائحة التشبيه لفظاً • وإنما قيدوا عدم الأشمام باللفظ دون المعنى لأن الاستعارة مبنية على التشبيه وهو يشتم منها بوساطة القرينة فلا يمكن نفيه قطعاً من جهة اللفظ والمعنى معاً وقد أشرت في مبحث الفرق بين التشبيه والاستعارة إلى الاعتبارات التي تجذب التركيب إلى دائرة التشبيه كبيان المشبه بعد ذكر المشبه به أو ذكر وجه الشبه أو ذكر أوصاف تلائم كون المشبه به مستخدماً في معناه الحقيقي فلا داعي لاعادته هنا •

وإنما نقول فقط إذا ورد شيء من هذه الأمور في التراكيب فإنها لا تنفي الحسن فحسب وإنما تنفي الاستعارة نفسها إذ يبقى الأسلوب في قالب التشبيه •

وأما لو ذكر المشبه على وجه لا ينبىء عن التشبيه كما فى قوله —
قد زر أزراره على القمر — حيث عاد الضمير فى — أزراره — على المشبه
ولكن ليس على وجه ينبىء على التشبيه فان الأسلوب يظل استعارة ولكن
ينفى حسننها • أى أن الأمور الثلاثة الأولى تكون مبطله للاستعارة
والأمر الرابع يكون مبطلا لحسنها •

وكان اشمام رائحة التشبيه منافيا للاستعارة لأنه مبطل للغرض
منها وهو المبالغة القائمة على دعوى الاتحاد ودخول المشبه فى جنس
المشبه به •

ومعلوم أن هناك اعتبارات أخرى تؤثر فى حسن الاستعارة يمكن
استقاؤها من تلميحات عبد القاهر وتعليقات النقاد على كثير من صور
الشعراء • ومن هذه الاعتبارات •

٣ — دقة التصوير فى اخراج صورة الاستعارة : وهذا المقياس
وضحه عبد القاهر فى عرضه لكثير من صور الاستعارة حيث نم ينظر اليها
فى ذاتها وانما نظر اليها من خلال النظم • الذى تظهر به دقة التصوير
وجمال التعبير • وقد أثرت الى شىء من ذلك فى مقدمة هذا البحث فى
الحديث عن النظم وأثره فى صور المجاز والكنساية • فقد كان حديث
عبد القاهر يتجاوز الكلمة المفردة الى الكلمات التى تتضام وتتشاكل
فى اللفظ على نمط تشاكلها فى النفس وانبعائها من القلب فيحدث الشاعر
خيوطا متشابكة حول المجاز حتى تقوى أو امره وتشتد بنيته ويصير لحمه
لا تنفصل عن بقية اللبنيات الأخرى كما فى قول الشاعر :

« وسالت بأعناق المطى الأباطح »

فلم يبرز المجاز اللغوى منفردا عن بقية التعبير والا كان عاريا
من الحسن بل نبه الى أن هذا المجاز أسند الى المحل وهو — الأباطح —
اشارة الى الكثرة البالغة التى تتدفق من هنا وهناك حتى يخيل لك أنك
لا ترى ابلا تسير وانما أباطح تسيل • وعدى الفعل — سال — بباء
الملايسة الى الأعناق فأدخلها فى السير من حيث كونه دالة على السرعة
اذ بوساطتها تفهم السرعة والبطء وبقية الأعضاء تابعة لها • فهذه

الاستعارة — وهى استعارة السيل لسير الابل — قد شُفعت بمجازين عقليين أحدهما لفظى فى اسناد الفعل — سال — الى الأباطح والآخر تقديرى وهو اسناده الى الأعناق •

وقول الآخر :

وجعلت كورى فوق ناجية

يقتات شحم سنامها الرحل

فقد استعار الاقتيات لاذهاب شحم السنام فحسنت هذه الاستعارة بهذا اللفظ المصور والمعبر عن الاذهاب شيئاً فشيئاً لأن اقتيات الزاد ينقصه تدريجياً ثم ان الفعل — يقتات — أسند الى الرحل — وهو الذى يلزم سنام الناقة طول الرحلة فكأنه هو الذى يأكل الشحم وبخاصة أن انشحم مما يقتات • وهكذا تتعاقب صور المجاز مشيرة الى حسن الاستعارة وجمالها •

وان تعجب فعجب قولهم • مثل هذا لا يفيد شيئاً كثيراً (٧) فما الذى يروع ويعجب ان لم يكن مثل هذا •

وقول الشاعر :

وليل كهوج البحر أرخى سدوله

على بأنواع الهموم ليبتلى

فقلت له لما تمطى بصلبه

وأردف أعجـازا وناء بكلـ

ألا أيها الليل الطويل ألا

انجلي بصبح وما الاصبح فيك بأمثل

يصف امرؤ القيس فى هذه الصورة طول الليل وثقله على نفسه فبدأ بهذا التشبيه (وليل كهوج البحر) الذى يوحى بالرهبة والخوف والتدافع الى ما لا نهاية وان كانت نه نهاية فنهايته ارخاء هذه السدول عليه بأنواع الهموم التى تؤرقه وتقض مضجعه فيشند انفعاله وتقوى

زفراته ازاء ثقل الليل وطوله فيخطو خطوة أخرى أعمق نحو التشخيص والتجسيم بالاستعارة في البيت الثاني فيصور الليل بصورة الحيوان الذى يتمطى • وهذه الكلمة — يتمطى — لها دلالتها المصورة والمعبرة لأن الحيوان يظهر طوله بخاصة عند التتمطى • ورمز الى هذا الطول بكلمة — الصلب وبترادف أعجازه الى بطئه وتتابعه وكأنه لا آخر له وبنوء كلله الى ثقله • وناهيك عن هذه المخاطبة — فقلت له وكأنه أصبح يرى الليل رؤية جديدة فليس هو هذا الليل الصامت ولكنه الليل الذى اقترب منه الشاعر واندمج فيه وبته همومه وأعلمه ما يتمناه — ألا انجلى •

ونلاحظ أنه سلك طريق التدرج من الأدنى الى الأعلى فى بناء هذه الصورة وذلك تبعاً لتوهج احساسه وقوة انفعاله فبدأ بالتشبيه الذى يثبت به المعنى ثبوتاً أولياً وانتقل الى الاستعارة التى يثبت بها المعنى بطريق القطع والوجوب فهى أبغ واكث • وهذا التدرج فى اثبات المعانى مرآة لتكاثف المهوم عنى نفسه التى ألم بها من طول ليله ولذلك كان دائم التنبيه لليل بكلمة — ألا — التى تمثل صرخة الشاعر بهذا المقطع الصوتى الممتد •

وإذا كان المراد بالأمر فى — انجلى — هو التمنى فان — طبيعة المعنى فى باب التمنى ما يجعله من الأسانيب ذات الوقع والتأثير لأنك فى واقعته تجد نفساً ظمئة الى شىء ثم ان ظمأها ظمأ لا يروى أو يستبعد ريه (٨) ولعل هذا الاستبعاد طاف بخيال الشاعر فقال — وما الاصبح فيك بأمثل •

يقول عبد القاهر — ومما هو أصل فى شرف الاستعارة أن ترى الشاعر قد جمع بين عدة استعارات قصداً الى أن يلحق الشكل بالشكل وأن يتم المعنى والشبه فيما يريد مثال قولك امرىء انقيس

فقلت له

لما جعل لليل صلباً قد تمطى به ثنى ذلك فجعل له أعجازاً قد أردف بها الصلب وثلاث فجعل له كللاً قد ناء به فاستوفى له جملة أركان

الشخص وراعى ما يراه الناظر من سواده اذا نظر قدامه واذا نظر الى خلفه واذا رفع البصر ومدده فى عرض الجو (٩) •

٤ — اخفاء التشبيه الذى بنيت عليه الاستعارة :

وهذا المقياس أشار اليه عبد القاهر بقوله — واعلم أن من شأن الاستعارة أنك كلما زدت ارادتك التشبيه خفاء ازدادت الاستعارة حسنا حتى أنك تراها أغرب ما تكون اذا كان الكلام قد ألف تأليفا ان أردت أن تفصح فيه بالتشبيه خرجت الى شىء تعافه النفس ويلفظه السمع ومثال ذلك قول ابن المعتز :

أثمرت أغصان راحتته

بجنان الحسن عنابا

ألا ترى أنك لو حملت نفسك على أن تظهر التشبيه وتفصح به احتجت الى أن تقول • أثمرت أصابع يده التى هى كالأغصان لطالبي الحسن شبيهه العناب من أطرافها المخضوبة وهذا ما لا تخفى غثائته من أجل ذلك كان موقع العناب فى هذا البيت أحسن منه فى قوله — وعضت على العناب بالبرد — وذلك لأن اظهار التشبيه فيه لا يقبح هذا القبح المفرط لأنك لو قلت وعضت على أطراف أصابع كالعناب بثغر كالبرد كان شبيهاً يتكلم بمثله وان كان مردولا وهذا موضع لا يتبين سره الا من كان ملتهب الطبع حاد القريحة (١٠) •

فاذا كان مبنى الاستعارة على تناسى التشبيه فان حصول هذا التناسى حصولا أوليا يحقق المرتبة الأولى من مراتب قبول الاستعارة ثم تخطو بعد ذلك فى مراتب الاحسان عنكم ما زاد خفاء التشبيه وتناسى المجاز بوسائل انترشيح مثلا ازدادت الاستعارة حسنا (وكانهم يشترطون وضوح هذا التشبيه أو تقررره فى خيال الناس قبل أن يغروا الأديب والشاعر بأن يجتهد فى اخفائه واطراحه وتناسيه بكل ما لديه

(٩) دلائل الاعجاز ١١٦ •

(١٠) دلائل الاعجاز ٤٠٤ •

من وسائل بيانية وهذا ضرورى والا كان الكام ضربا من التعمية (١١) •

• قرب اللازم من المؤلف في الاستعارة الكنية :

تقوم الاستعارة المكنية على جعل الشيء للشيء نيس له وهذا الشيء المجمعول هو اللازم ومن هنا فانه يلعب دورا هاما في حسن الاستعارة وقبحها • فاذا كان اللازم قد بنى على خيال معروف أو على مجاز مألوف حسنت به الاستعارة وهذا واضح في قول زهير — وعرى أفراس الصبا ورواحله •

يقول الآمدى (لما كان من شأن ذى الصبا أن يوصف أبدا بأن يقال ركب هواه وجرى في ميدانه وجمع في عنانه ونحو هذا حسن أن يستعار نلصبا اسم الأفراس وأن يجعل النزوع أن تعرى أفراسه ورواحله وكانت هذه الاستعارة أيضا من أليق شيء بما استعيرت له) (١٢) •

فكأن ركوب الهوى والجرى في ميدانه والجموح في عنانه آفاقا مألوفة هيأت للشاعر أن يجرى على سنان قريب بجعله الأفراس والرواحل للصبا • نوازما دالة على الاستعارة •

والاستعارات المكنية التي عرضناها تجرى على هذا النسق •

وكما في جعلهم الدهر يضحك في قول أبى تمام — ويضحك الدهر وجعلهم له فما في قول المتنبي — كأنك في فم الدهر ابتسام — وساعدا في قول ابن الرميثة — هم ساعد الدهر الذى يتقى به — وجعلهم القصائد من الشرد السائرات — وعندى لك الشرد السائرات — وغير ذلك من الاستعارات الجسنة لكون اللازم على وفق ما هو معهود ومألوف في الخيال والمجاز وهذا هو المنهج انذى رضىه النقاد قال الآمدى : (وانما استعارت العرب المعنى لما ليس له اذ كان يقاربه أو يدانيه أو يثبته في بعض أحواله أو كان سببا من أسبابه فتكون اللفظة المستعارة حينئذ

(١١) التصوير البيانى ٣٢٨ •

(١٢) الموازنة ٢١٤ •

لائقة بالشيء الذي استعيرت له وملائمة لمعناه (١٣) •

ولذلك رفضوا كثيرا من الاستعارات التي جانبت هذا المنهج
ووصفوها بالرداءة كما في قول أبي تمام :

لها بين أبواب الملووك مزامر

من الذكر لم تنفخ ولا هي تزمز

* * *

وما ذكر الدهر العبوس بأنه

له ابن كيوم السبت الا تبسما

* * *

به أسلم المعروف بالثمام بعد ما

ثوى منذ أودى خالد وهو مرتد

* * *

يا دهر قوم من أخذ عيك فقد

أضججت هذا الأنام من خرقك (١٤)

* * *

وغير ذلك من الاستعارات التي ذكرها الآمدى والجرجاني لأبى
تمام وغيره ثم قال (فاسدد مسامعك واستغش ثيابك وإياك والاصغاء
اليه واحذر الالتفات نحوه فانه مما يصدىء القلب ويعميه ويطمس
البصيرة ويكد القريحة) (١٥) •

كما أنكرها الآمدى لأنه ذكر أن للدهر أخذعا وابنا كيوم السبت
وللقصائد مزامر وطبول وجعل المعروف مسلما تارة ومرتدا أخرى
فالاستعارة هنا خرجت عن المؤلف وبعدت عنه وجاءت بتشكيلات
مبعدة في الغرابة من غير أن تكون هناك ضرورة تلجىء الى ذلك والآفاق
الجديدة في المجاز ليست مردودة ولا معيبة بل انها تحسب للشعراء
وقد رأيناهم يثبتون بها الفضيلة ويرفعون بها الطبقة فقد ذكروا في

• (١٣) الموازنة ٢١٤

• (١٤) نقلا عن الموازنة ٢٠٨

• (١٥) الوساطة ٤١

فضائل امرىء القيس أنه أول من قيد الأوابد وأول من شبه الثغر في لونه بشوك السيال (٠٠٠٠٠٠) (١٦) •

فاذا كان تصوير الدهر بصورة الانسان في حالتي الوفاء والغدر مما جرى به المجاز فان منطلق الاستحسان كان من أجل أن اللوازم التي أخذت من المشبه به وأثبتت للمشبهه كانت دالة دلالة واضحة على المراد بخلاف اللوازم التي استهجنت من أجلها الاستعارات الرديئة فقد كانت مبعدة في الغرابة ولم تهياً النفس لقبولها •

وان كنت أرى قوله — يا دهر قوم من أخدعك ••••• استعارة حسنة لأن أبا تمام يصف داهرا معوجا فيه إباء وكبرياء اتسعت مساحته حتى ضج منه الأنام • فهو دهر عصى فيه شراسة وشموس ولذلك اتجهت عينه الشاعر إلى أبرز شيء في الانسان يظهر به عجبه وكبرياؤه وهو الأخدع فالأخدعان • عرقان في جانبي العنق • وتدور المادة — خدع — حول الدهاء والمكر وقلة المطر • فقالوا • خدع الزمان أى قل مطره وسنين خداعة أى ناقصة الزكاة قليلة المطر ورجل شديد الأخدع أى ممتنع أبى ولين الأخدع بخلاف ذلك • فبعد أن صور الشاعر الدهر بصورة الانسان المختال بقوته والذي لا يرفق بغيره • اقترب منه أكثر وناداه نداء من يعقل — يا دهر وأثبت اللوازم التي تبين مراده تمام الابانة فذكر الأخدعين وهما من أوضح ما يكون في الانسان المصع خده ثم ذكر بعد ذلك الضجيج بلفظ فيه ثقل الحروف ليكون مرآة لثقل المعنى المراد تصويره وناهيك عن كلمة — خرق — فهي تدل على الشدة فقد ورد في اللسان الخرق نقيض الرفق وقالوا الرفق يمن والخرق شؤم ويطلق أيضا على الجهل والحمق • فالصورة بحروفها ومكوناتها من الاستعارة ولو احققها متناسقة • ودالة على الغرض المقصود ولا بنو ولا نشاز فيها •

يضاف الى ذلك ما ذكره صاحب الوساطة على هذا البيت (فانما يريد اعدل ولا تجر وأنصف ولا تحف لكنه لما رآهم قد استجازوا أن ينسبوا اليه الجور والميل وأن يقدفوه بالعسف والظلم والخرق

والعنف وقالوا قد أعرض عنا وأقبل على فلان وقد جفانا وواصل غيرنا
وكان الميل والاعراض إنما وقع بانحراف الأخدع وازورار المنكب
استحسن أن يجعل له أخدعا وأن يأمر بتقويمه (١٧) •

٦ — أن تثير الاستعارة في النفس معانى الاعجاب والاجلال :

وقد سردنا كثيرا من الاستعارة التصريحية وبيننا ما فيها من جمال
معجب وتصوير خلاب وصل الى مرتبة الاعجاز في القرآن الكريم وكذلك
الحال في الاستعارة المكنية والتمثيلية فنراجع في موطنه •

وقد أشار أستاذنا الدكتور محمد أبو م—وسى الى أن فساد
الاستعارة يمكن أن يكون مرجعه (الى أن الشكل أو الصورة التى تشكلت
من المثبه ولاحقة من لواحق المثبه به صورة نافرة تثير معنى الاستخفاف

والهزاء أكثر مما تثير الاعجاب والاجلال كما فى صورة — لها بين
أبواب المنوك مزامر وكما فيما رواه الأخفش عن ثعلب يذم رجلا :

ما زال مـذموما على است الدهر

ذا حسـد ينمى وعقل يحرى

أراد بالشرط الثانى أن حسده يزيد وعقله ينقص والصورة فى
الشرط الأول كريمة جدا وليس لأنه شبه الدهر بانسان كما قلنا ولكن
لأن جعل له مـ جعل •

وقد يكون ذلك راجعا أيضا الى المبالغات التى لا تجد لها
رصيدا نفسيا وانما هى مبالغات لفظية فحسب كما فى قول
المتنبى :

تجمعت فى فـؤاده همم

ملء فؤاد الزمان احسداها

وربما كان هذا سببا للقبح وراء كل سبب لأن العبارة التى تصف
الحسن وصفا دقيقا وصادقا تراها خائبة من مثل هذه الأكدار واذا

نظرت في هذه الاستعارات الرديئة أحسست أن العبارة فيها تنفصل عن
الحس وأن الخيال ينهض وحده من غير أن يكون محمولا على قوة من
الفكر وطاقة من الشعور (١٨) •

وكذلك الحال في الاستعارة التصريحية كما في قول أبي تمام :
ملاطومة بالورد أطلق دونها
في الخلق فهو مع المنون محكم

فاللطم هو انضرب وهو يعنى التتابع والقوة والتمكن وليس هناك
حاجة الى هذه المعانى في وضع الأصباغ على الخدود وانما يكفى أن
تمد الأنامل الناعمة الى هذه الوجنات الناضرة لتضفى عليها مسحة من
الجمال فهذه الصورة الرقيقة تحتاج الى أدوات أرق فاستعارة اللطم
إيها ذوب جمالها وأزال حسنها •

وهذا بخلاف قول ابن المعتز •

ما زال يلطم خد الأرض وابلها

حتى وقت خدتها الغدران والخضر

فانه يصور تتابع الغيث وتساقطه على وجه الأرض فاستعار له
اللطم الذى يوحى بقوة التتابع وما يكتنفه من الصوت الراعب والتأثير
الواضح فى الأرض • فتعانق اللفظ والحس فى تصوير المعنى وزاد من
حسنها الترشيح بلفظ — الخد •

وأخيرا نقول كما قلنا أولا بأن الحكم بالحسن والقبح مرده الى
الذوق و (أنه يميز بقبول النفس ونفورها وينتقد بسكون القلب ونبوه
وربما تمكنت الحجج من اظهار بعضه واهتدت الى الكشف عن صوابه
أو غلطه) (١٩) •

(١٨) التصوير البيانى ٣٣٦ •

(١٩) الوساطة ٤٢٩ •

تقسيمات المتأخرين في الميزان

بعد هذه الرحلة المتواضعة مع الاستعارة بكافة أنواعها وعرضها وتحليلها وموازنتها على وفق منهج عبد القادر تنظر في تقسيمات المتأخرين لنتعرف على مدى اصابتهم فيها .

أولا : قد قسموا الاستعارة باعتبار الجامع إلى قسمين أحدهما ما يكون داخلا في مفهوم الطرفين كاستعارة الطيران للعدو والثاني ما يكون الجامع فيه غير داخل في مفهوم الطرفين . كقولك رأيت شمسا وتريد انسانا يتهلل وجهه فالجامع بينهما التلاؤم وهو غير داخل في مفهومهما (١) .

كما قسموا انقسم الثاني الى ثلاثة أقسام لأن الجامع اما أن يكون خارجا عن الطرفين معا واما خارجا عن المشبه فقط أو المشبه به فقط (٢) .

وقد استشعر سعد الدين التفتازاني ما يبدو أنه يتعارض مع أصل الاستعارة التي تعنى أن الجامع في المستعار منه يجب أن يكون أقوى وأشد لتكون الاستعارة مفيدة وكون الجامع داخلا في مفهوم الطرفين يقتضى المساواة . فقد تقرر في غير هذا الفن أن جزء الماهية لا يختلف بالشدّة والضعف فكيف يكون الجامع داخلا في مفهوم الطرفين؟ (٣) .

ويعلق الدسوقي قائلا (فالدخول في مفهوم الطرفين يقتضى عدم التفاوت وكونه جامعا يقتضى التفاوت وهل هذا الا جمع بين متناقضين والجمع بينهما باطل فما أدى الى ذلك وهو كون الجامع داخلا في مفهوم الطرفين باطل (٤) .

-
- (١) ينظر الايضاح ١٢٣/٣
 - (٢) شروح التلخيص ٨٥/٤
 - (٣) المطول ٣٦٦
 - (٤) شروح التلخيص ٨٣/٤

ويجيب سعد الدين قائلًا - امتناع الاختلاف انما هو في الماهية الحقيقية ألا يرى أن السواد جزء من المجموع المركب من السواد والمحل مع اختلافه بالشدّة والضعف ووجه الشبه انما جعل داخلا في مفهوم الطرفين لا في الماهية الحقيقية للطرفين والمفهوم قد يكون ماهية حقيقية وقد يكون أمرا مركبا من أمور بعضها قابل للشدّة والضعف فيصح كون الجامع داخلا في المفهوم مع كونه في أحد المفهومين أشد وأقوى وفي كون استعارة الطيران للعدو من هذا القبيل نظرا لأن الطيران هو قطع المسافة بالجنح وليس السرعة داخلة فيه بل هي لازمة له في الأكثر كالجريء للاسد والأولى أن يمثل باستعارة التقطيع الموضوع لازالة الاتصال بين الأجسام المترقة بعضها ببعض لتفريق الجماعة (٥٥) •

وأعتقد أنه لا مكان للنقول بالماهية ولا بجزء الماهية • لا الحقيقية ولا الاعتبارية في مسائل البلاغة وانما مكانها المنطق والجدل الفلسفي أما البلاغة فترتبط باللغة المصورة والاسلوب المعبر طبقا لمقتضيات الأحوال • فلا فرق بين استعارة الطيران للعدو واستعارة التقطيع لتفريق الأجسام المتصلة فلكل مقامه واعتباره • أما كون الجامع في الأول لازم الماهية وفي الثاني داخل في مفهومها • فطريقة عبد القاهر لا تفرق بين الجامعين بل تجعلهما من واحد كما سبق ذكر •

ثم ان الجامع لا يخضع لهذه التحديدات المنطقية • لأنها تتطلب أن يكون محددًا لا يتسع لغيره من المعاني أن تدخل فيه فيكون جامعًا مانعًا وهذا يفقد الاستعارات كثيرا من روائها واثارتها التي تنبعث من المعاني والخطرات النفسية المتطفلة على جوانب المعاني الأصلية • وقد أشرت في تحليل كثير من صور الاستعارة الى اتساع رقعة المعاني التي تشير اليها وأن الجامع لا يمكن أن يكون مقصورا فيها على معاني محددة وانما هو شيء يضيق ويتسع حسب استعداد الملكة المتذوقة القادرة على اثاره المعاني من مكانها فقد نبهت الى أشياء في استعارة السليخ لاذهاب النهار والى أشياء في استعارة الصدى للجهر وكلها معاني تكون الجامع مع طول التأمل وتقليب النظر • فليس الأمر محددًا بكون الجامع في الأول الزوال وفي الثاني الابانة لأنه يعنى ثباتها عند حد

معين وبطول الثبات والالف تفقد جدتها وجلالها • وتكون في حكم المرفوض •
فالأولى أن يترك الجامع فضفاضا غير محدد فهو طريق التذوق
والابتكار والاضافات الجديدة الى رصيد الاستعارة • لأن طرفي
الاستعارة من المشبه والمشبه به لا يمكن تناولهما بالتغيير فالصدع مثلا
مستعار للجهر فهذا شيء ثابت ولكن الجامع بينهما هو المتراحم •
يتزايد كلما تعمقنا الدلالات اللغوية والمواقف التاريخية والصعوبات
التي واجهت الداعية الأول محمد ﷺ حين نزل عليه هذا الأمر وكذلك
الصعوبات المعاصرة التي تحيط بدعوة الاسلام كل هذا لا يوقف الجامع
عند حد الابانة فحسب وانما يتناول ما تشير اليه كلمة - الصدع -
فيما قدمناه وما خفى فيها فهو أكثر • وكذلك سائر الجوامع • فهي
مثار فرسان البلاغة • بل لو أخذت مثالا من أكثر الامثلة دورانا على
الألسنة وهو - رأيت أسدا - للرجل الشجاع اوجدت أن الجامع مع
التدقيق لا يقف عند حد الشجاعة بل يتناول أيضا كل معاني العزة
والفتك والهيبة والاجلال التي يتمتع بها الأسد والتي تنخلع بدورها
على الرجل الشجاع •

فمحاولة تحديد الجامع ومعرفة دخوله في الطرفين أو خروجه
عنهما لا جدوى منه في صنيع المتأخرين • وتقسيم الاستعارة من
هذه الوجهة لا فائدة منه •

ثانيا : قسموا الاستعارة باعتبار الجامع أيضا الى عامية
وخاصية فالعامية المبتذلة لظهور الجامع فيها كقولك • رأيت أسدا ووردت
بحرا - والخاصية الغريبة التي لا يظفر بها الا من ارتفع عن طبقة
العامية ••••• (٦) •

والواقع أني أرى أن الموقف وحده هو الكفيل بتنويع الجامع الى
ظاهر وخفى وأن الخفاء والظهور رهن باقتضاء المقام • فإذا كان المقام
يتطلب ظهور الوجه بأن كان الكلام موجها الى من لا يفهم الا بالوضوح
والجلاء فان البلاغة تقتضى أن يكون الجامع كذلك وإذا كان المقام يتطلب

خفاء الوجه بأن كان الكلام موجها الى ذكى فان البلاغة تقتضى أن يكون انجام كذلك ووضع أحدهما موضع الآخر مخل بالبلاغة •

وعلى هذا فقد يكون الوضوح هو المقصد الرئيسى من الاستعارة كما فى قولنا للعامى — رأيت أسد ووردت بحرا — فهذه الاستعارة من أخص الاستعارات التى يمكن أن توجه الى مثله • ولو قلنا له شيئا أدق من هذا لوقع فى التعمية والالباس ولكلفناه علم الغيب •

ولو دققنا النظر فى استعارات القرآن الكريم لوجدناها تروى غلة العوام والمتخصصين على السواء فهى دقيقة فى تصويرها وبنائها ومحكمة فى نسجها وصياغتها وواضحة فى معناها ودلالاتها • ومبنية من عناصر مبنوثة فى الكون وواقعة تحت الحواس وفى مطارح الأبصار • كالحبل المستعار للعهد والقبض باليد أو الطى باليمين أو التأسيس على شفا جرف هار — أو القيام على شفا حفرة من النار — وغير ذلك والاستعارات التى تجرى فى الأفعال مثل — قطع — صدع — سلخ — تنفس — فكل هذه الاستعارات تجرى على نهج واضح وقد بلغت مرتبة الاعجاز • فوضوح الاستعارة وجلأؤها شىء وكونها عامية مبتذلة شىء آخر •

ثم ان الجامع كما قلنا غير محدد أو ينبغى ألا يحدد فثماره متعددة ينال منها كل انسان بقدر استشراقه وطموح نفسه • فقد يكون بعضها واضحا وبعضها عزيزا محجبا لا ينال الا بعد شق الأصداف اليه •

فتقسيم الاستعارة الى عامية وخاصة مبنى على أساس غير سليم لأنه يفترض تحديد الجامع وأنه اما ظاهر واما خفى • والمبنى على أساس غير سليم كالمبنى على شفا جرف هار •

والأمثلة التى ذكروها للاستعارة الخاصة قد عرضنا لأكثرها فى بيان دقة تصويرها وروعة نسجها وأنها كانت من الاستعارات المستحسنة • •

ثالثا: وقسموا الاستعارة باعتبار الطرفين والجامع الى ستة أقسام استعارة محسوس لمحسوس بوجه حسى أو بوجه عقلى أو بما بعضه

حسى وبعضه عقلى واستعارة معقول لمعقول واستعارة محسوس لمعقول
واستعارة معقول لمحسوس • كل ذلك بوجه عقلى (٧) •

وهذه التقسيمات كانت من منطلق منهجهم القائم على النظر العقلى
والتحديد المنطقى والأوجه فى دراسة الاستعارة هو متابعة أقسامها كما
— وردت فى كلام العرب والتعرف على شيىء مجازاتهم وما تختلف
به صورته على وفق ما تختلف به صورهم فالصور وان كان يجمعها
منوال عام أو خطوط عامة تمثل اطارا واحدا كالتشبيه أو الاستعارة
الا أنهم فى الدائرة الواحدة يتصرفون ويشكلون صوراً متعددة وعبد القاهر
يدرس هذه الصور ويصنفها ويجمعها فى أطر تحددها والمتأخرون لم
يكونوا كذلك (٨) •

فهذه التقسيمات أو — الاكليشيات — التى حاول المتأخرون أن
يطبعوا الاستعارة بها بعيدة عن دراسة الاساليب والتعرف على روح
المعانى التى تجرى فى أوصال الكلام ومفاصل التراكيب ولذلك آثرنا
طريقة عبد القاهر فى العرض والتحليل • ومن الميسور أن نتعرف على
الأطراف الحسية والعقلية فيما سردناه من صور الاستعارة المختلفة •

رابعا: وقسموا الاستعارة مرة أخرى باعتبار الطرفين الى وفاقية
وعنادية فالوفاقية • هى ما يمكن اجتماع طرفيها فى شىء كاستعارة الحياة
للهداية كما فى قوله تعالى: « أو من كان ميتا فأحييناه » •

والعنادية • ما لا يمكن اجتماع طرفيها كاستعارة الموت للضلال فى
الآية السابقة • أو استعارة الوجود للعدم أو العدم للوجود (٩) •

ومن الميسور أن نرجع بهذا المثال الى موطنه فى حديث عبد القاهر
عن الاستعارة وبخاصة تلك التى تبنى على التمثيل فقد ذكر أصولا ثلاثة

الأول: أن يؤخذ الشبه من الأشياء المشاهدة والمدركة بالحواس
على الجملة للمعانى المعقولة •

• (٧) بغية الايضاح ٣/١٣٠ •

• (٨) التصوير البيانى ١٩٨ •

• (٩) بغية الايضاح ٣/١٢١ •

الثاني : أن يؤخذ الشبه من الأشياء المحسوسة لمثلها الا أن الشبه مع ذلك عقلى •

الثالث : أن يؤخذ الشبه من المعقول للمعقول (١٠) •

وبعد أن ضرب الأمثلة للأصل الأول والثاني قال عن الأصل الثالث — وأول ذلك وأعمه تشبيه الوجود من الشيء مرة بالعدم والعدم مرة بالوجود — ومن هنا أخذ المتأخرون تقسيمهم السابق وساقوا — الآية نفسها شاهدا على ما ذهبوا اليه • بعد أن بتروا كلام عبد القاهر في هذا الموضوع ويقول أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى — وهذا التقسيم عندنا لا جدوى منه لأنه يأتى ضمن شواهد الاستعارة التى تنتقل فيها الكنمة الى غير جنسها فان ذلك أعم من أن يمكن اجتماعهما أو لا يمكن وليس هناك داع لتابعة الاحوال العقلية لذكر مزيد من الأقسام ثم ان هذا التقسيم أغراهم بذكر ضرب من الاستعارة يتفرع على العنادية ذلك هو الاستعارة التهكمية أو الضدية وهى ما يستعار فيها الشيء لما يناقضه على سبيل التهكم والسخرية أو التلميح كما فى قول تعالى « **فبشرهم بعذاب اليم** » وقوله : « **انك لانت الحليم الرشيد** » الى آخر هذه الصور وكل هذه التقسيمات والاصطلاحات من وضع العلامة ابن الخطيب الرازى فى تلخيصه لكتابه عبد القاهر وكانت امامته رحمه الله فى غير هذا الباب • والمهم أن هذه الاستعارة التهكمية أو التلميحية لم أجد أحدا من المتقدمين أشار اليها اشارة قريبة ولا بعيدة بل رأينا الزمخشري يذكر صورها ويجعلها من العكس فى الكلام (١١) •

ومن العنماء من حمل مثل هذه الاستعارات التهكمية على المجاز المرسل التهكى (١٢) •

وكل هذه التخريجات مبنية على القول بأن التبشير هو الاخبار بما يسر وأما لو جعلناه لطلق الاخبار سواء أكان سارا أم ضارا فيكون

(١٠) أسرار البلاغة ١/١٥٧ وما بعدها •

(١١) التصوير البيانى ٢١٦ •

(١٢) البيان عند الشهاب ١٨٩ •

من باب الحقيقة وعلى هذا فاستعمال التبشير في مثل هذه الصور له
وجوه خمسة :

- ١ — أنه من باب الحقيقة •
- ٢ — أنه من باب الاستعارة التهكمية •
- ٣ — أنه من باب العكس في الكلام •
- ٤ — أنه من باب المجاز المرسل التهكمي •
- ٥ — أنه من باب الذم الذي يشبه المدح •

المجاز المرسل

قلت في مستهل الحديث عن المجاز • انه لا بد فيه من العلاقة • وهذه العلاقة ان كانت المشابهة فالحديث مع الاستعارة وان كانت غير المشابهة فالحديث مع المجاز المرسل • وهذا واضح في استعارة الأسد للرجل الشجاع فالعلاقة التي سوغت هذا المجاز هي المشابهة بين الطرفين • ولكن في اطلاق الرزق على المطر النازل من السماء في قوله تعالى : « وينزل لكم من السماء رزقا » لا توجد مشابهة بينهما وانما كان الرابط هو كون الرزق مسببا عن سببه وهو المطر •

وكذلك في قول الشاعر :

إذا سقط السماء بأرض قوم

رعيناه وان كانوا غضابا

فقد عبر بالسماء وأراد المطر بعلاقة المجاورة وأعاد الضمير على المطر وهو لا يرعى وإنما هو سبب فيما يرعى من النبات والكلاً فلا مشابهة بين السماء والمطر ولا بين المطر والنبات ولم يحدث هناك تفسير أو إضافة شيء من الصفات والأحوال بين الشيئين المتجاورين أو بين السبب والمسبب وإنما الذي سوغ طريقة النقل هو المجاورة في الأول والسببية في الثاني وهما غير علاقة المشابهة التي تحكم بها الاستعارة •

وقد أشار عبد انقاهر الى أن بعض العلماء مثل ابن دريد والآمدى قد ذكروا صوراً من هذا المجاز على طريق الاستعارة (الا أنه لا يكون عند ذكر القوانين وحيث تقرر الأصول •• فأطلق لفظ الاستعارة على وقوع المجلس هنا بمعنى القوم الذين يجتمعون في الأمـور وليس المجلس اذا وقع على القوم من طريق التشبيه بل على وجه وقوع الشيء على ما يتصل به وتكثر ملابسته اياه وأى شبه يكون بين القوم ومكانهم الذي يجتمعون فيه ؟ الا أنه لا يعتد بمثل هذا فان هذا قد يتفق حيث ترسل العبارة (١) •

ومضى بعد ذلك يقرر القواعد ويبين الأصول في الفرق بين المجازين فقال : (بل الصواب أن تقصر الاستعارة على ما نقله نقل تشبيهه للمبالغة لأن هذا نقل يطرد على حد واحد وله فوائد عظيمة ونتائج شريفة فالتطفل به على غيره في الذكر وتركه مقصورا فيما بين أشياء ليس لها في نقلها مثل نظامه ولا أمثال فوائده ضعف من ان رأى وتقصير في النظر) (٢) •

ويقول سعد الدين (والمجاز المرسل ان كانت العلاقة المصححة غير المشابهة بين المعنى المجازى والمعنى الحقيقى والافاستعارة (٣) •

ومن العلماء من جعلهما معا تحت اسم الاستعارة كأبى هلال كما اختلفوا في تسميتهم له • فمنهم من سماه مجازا بالحدف كابن أبى الاصبع أو مجازا فقط كابن رشيق وجعله ابن الأثير من باب التوسع (٤) •

وأما صاحب مصطلح — المجاز المرسل — فهو السكاكى • يقول أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى (لا أعرف أحدا ذكر هذا الاصطلاح لهذا اللون من التجوز قبل أبى يعقوب يوسف السكاكى (٥٠٠) (٥) •

وان كنت أرى أن لعبد القاهر إشارة تعتبر كالرمز لهذا المصطلح وهى قوله فى النص انسابى — حيث ترسل العبارة — أى تطلق عن التقييد بعلاقة واحدة كما فى الاستعارة أو عن دعوى الاتحاد بين الطرفين وهو مفهوم سبب التسمية عند المتأخرين • فلعل هذه العبارة هى موطن الهام السكاكى وبخاصة أنه ذكر فيها الفعل — ترسل •

وبالنسبة للعلاقات التى يدور عنها هذا المجاز فقد اختلفت بالزيادة والنقصاء لدى العلماء •

(٢) المرجع السابق •

(٣) المطول ٣٥٤ •

(٤) ينظر البيان عند الشهاب ٥٦ وما بعدها •

(٥) البلاغة القرآنية ٤٤١ •

فمنهم من اقتصر على أهم هذه العلاقات والتي تعد أساسا لما تفرع عليها بعد ذلك من علاقات أخرى كالسكاكى والخطيب •

ومنهم من زاد على ذلك ووصل بها الى ثمانية وعشرين علاقة •
ومنهم من وصل بها الى ثلاثة وأربعين علاقة وفرع من تلك العلاقات علاقات أخرى مبنية عليها (*) • ونُذكَ (فان محاولة تحليل وتفصيل علاقة الملابس ووضعها في صور محددة لم تنجح في جهود انبلايين لأنهم تفاوتوا تفاوتاً كبيراً في حصرها وهذا راجع الى أن هذه الملابس أشمل من أن تتحدد في علاقات جزئية معينة وأن العرب كانوا يعتمدون الملابس التي تنوع النقل في اطار عرفهم البياني •

وقد أشار عبد القاهر الى أن الملابس قد تكون وليدة اتفاق وحدث يطرأ ويعرف فيربط بين المعنين ربطاً يجيز قيام أحدهما مكان الآخر وذلك كما في قولهم : رفع عقيرته أى صوته ولا مناسبة بين العقر أى القطع وانصوت ولكنه حدث أن رجلاً عقرت رجله فرفعها وصاح فأقترن الصوت العالى بالعقر في هذا الحدث وارتبط به فساغ أن يطلقوا العقر على الصوت (٦) •

بل انهم كانوا يترددون في تحديد أشهر هذه العلاقات كما في اطلاق اليد على النعمة وأن ذلك من باب علاقة السببية لأن اليد سبب للنعمة • فقد قالوا في تفسير هذه السببية — والعلاقة كون اليد كالعلة الفاعلية للنعمة في أن العلة الفاعلية يترتب عليها المفعول وجوداً كما يترتب وصول النعمة الى المقصود بها عن حركة اليد ويترتب وجودها بوصف كونها نعمة على الغير بالفعل ولا شك في تحقق الملابس بين العلة الفاعلية ومفعولها المقتضية للانتقال •••• ويحتمل أن تعتبر اليد للنعمة كالعلة انصورية اذ بها تظهر كما يظهر المعلول بصورته أو كالعلة المادية لترتبها على اليد كما يترتب الشيء من مادته وعن كل حال فالعلاقة هنا تعود الى السببية الفاعلية أو الصورية أو المادية (٧) •

(*) البيان عند الشهاب ٦٠ وما بعدها •

(٦) ينظر أسرار البلاغة ٢/٢٧١ والتصوير البياني ٢٥٨ •

(٧) شروح التلخيص ٤/٣٢/٣٣ •

وأعتقد أن جمال الأسلوب وروعة المجاز يذبل بل ويموت بكثرة هذه العلل • فلا مجال للقول بالعلة الفاعلية أو الصورية أو المادية في تحليل الصور والتعرف على مساراتها واستشفاف أنفاس مبدعيتها واستنطاق دلالاتها واستظهار ما طوى في تراكيبيها من عادات القوم وطباعهم — فالاعتبارات اللغوية تتبع أحوال المخلوقين وعاداتهم وما يقتضيه ظاهر البيئة وموضوع الجبلة (٨) وهذه النظرة هي التي تعطى لنتراكيب حيويتها فتجود بالمعاني الثرية أما وضعها في قوالب معينة تحت مصطلحات العلل فهو بمثابة الحجر على معانيها والكتم لأنفاسها وهيئات أن توجد أصابع البلاغة في ظلال هذه القيود ولكن هذه القيود قد تحطمت في كثير من الأمثلة فقد وجدنا أن العلاقات تتداخل في بعضها • فدلالة اليد على النعمة مثلا تحتمل أن تكون بعلاقة السببية أو المحلية كما ذكر السبكي وهناك من الأمثلة ما يمكن حملها على الجزئية وغيرها من العلاقات كالحالية والسببية واللزومية ومنها ما يحمل على السببية والمسببية وما يحمل على المحلية والمجاورة • بل إن منها ما يحمل على المجاز المرسل أو غيره من الفنون البلاغية الأخرى كالاستعارة والكناية والتجريد والمشاكلة (٩) •

والمجاز المرسل هو : اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة غير المشابهة مع قرينة مانعة أو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة غير التشبيهية (١٠) •

صور من علاقاته :

ومن علاقاته الجزئية • والمجاز بها حاصل من تسمية الكل باسم الجزء وهناك دقائق بلاغية في التعبير بهذه العلاقة • فليس كل جزء صالحا للتعبير عن الكل وإنما لا بد أن يكون له مزيد اختصاص بالمعنى الذي قصد بانكل • فالعين تطلق على الجاسوس لأنها الجزء الأساسي في أداء مهمة التجسس والرقبة تطلق على الانسان الذي يعتق لأن

(٨) أسرار البلاغة ٢/٢٦٨ •

(٩) البيان عند الشهاب ٢/٢٠٣ وما بعدها •

(١٠) بغية الايضاح ٣/٩١ •

العبودية أوضح ما تكون في الاعناق ووضع أحد الجزئين مكان الآخر لا يدل على المراد •

والصلاة • يطلق عليها قرآن — كما ذكر البيضاوى في تفسير —
وقرآن انفجر — وقيام في قوله تعالى : « **قم الليل الا قليلا** » وركوع
« **واركعوا مع الراكعين** » وسجود : « **ومن الليل فاسجد له** » وذكر :
« **ولذكر الله أكبر** » وكلها أمور أساسية في الصلاة •

ومنها التعبير عن نفس الشيء أو جملة الانسان بالوجه كما في قوله
تعالى : « **بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن** » فان حاجوك فقل أسلمت
وجهى لله • قال الشهاب : ان الوجه مجاز عن نفس الشيء وذاته كما في :
« **ويبقى وجه ربك** » أو عن جملة الشخص تعبيراً عن الكل بأشرف
الأجزاء (١١) •

ويطلق الدعاء على العبادة لأنه مخها كما في قوله تعالى : « **ان
الذين تدعون من دون الله** » أى تعبدونهم •

وفي قوله تعالى : **أم لكم علينا أيمن بالفة** » يمكن أن تكون من
علاقة الجزئية أو النزومية • قال الشهاب : أريد بالإيمان العهود وهو
من اطلاق الجزء على الكل أو اللزوم عن المزوم (١٢) •

وفي قوله تعالى : **فأجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم** » غير
بالأفئدة عن أصحابها لأنها منشأ الشوق والحنين في المضى إلى الأماكن
المقدسة •

ومنه قوله تعالى : « **ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم** » قال
الفارسي جعله على المجاز — أذنا — لأجل اصغائه (١٣) •

كذلك يستخدمون القلب في التعبير عن جملة الانسان وذلك في مقام
له مزيد اختصاص بذلك • كما في قول الشاعر :

(١١) البيان عند الشهاب ٣/٢ •
(١٢) حاشية الشهاب ٢٣١/٨ •
(١٣) البرهان في علوم القرآن ٢٦٦/٢ •

والقلب يعتاده من حبها عيسد

وقوله :

أمسى بأسماء هذا القلب معمودا

إذا أقول صحا يعتاده عيدا

وقوله :

لم يترك الدهر من قنبي ولا كبدى

شيئا تتيمة عين ولا جيد (١٤)

وعكس هذه العلاقة أعنى الكلية والمجاز بها حاصل من تسمية الجزء باسم الكل — كما فى قوله تعالى : « يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق » وهى بعض آية جاءت فى ظلال تشبيهه بصور حال المنافقين بصورة من أصابعهم صيب السماء بانظلمات والرعد وانبرق الذى يكاد يخطف أبصارهم ولفهم الخوف الرابع والصواعق المدممة من كل جانب حتى كانوا لفرط الهول يحاولون وضع الأصابع بتمامها فى الآذان وان لم يدخل منها الا الأنامل •

ومنه قوله تعالى : « وإلهارق والسارقة فاقطعوا أي:يهما » والمراد انبعض الذى هو الرسخ • وقوله : « تعجبك أجسامهم » والمراد وجوههم لأنه لم ير جملتهم وقوله : « فهن شهد منكم الشهر فليصمه » • استشكله الامام — امام الحرمين — تفسيره من جهة أن الجزاء انما يكون بعد تمام الشرط والشرط أن يشهد الشهر وهو اسم لثلاثين يوما وحاصل جوابه أنه أوقع الشهر وأراد جزءا منه وارادة انكل باسم الجزء مجاز شهير (١٥) •

ومن أدور العلاقات • السببية • والمجاز بها حاصل من تسمية الشيء باسم سببه •

(١٤) ديوان المتنبي ٢/٨/١٤١ •

(١٥) البرهان فى علوم القرآن ٢/٢٦٣ •

ومنه قوله تعالى : **« ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين »** قال البيضاوى : القول هو التلفظ بما يفيد ولنرى والمذهب مجازا — لأن القول سبب في اظهار الرأى أو الاعلام بالمذهب ومنه التعبير بالابتلاء عن العرفان والاظهار كما في قوله تعالى : **« وليبتلى الله ما في صدوركم »** ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم وانصابرين ونبلو أخباركم لأن الابتلاء أى الامتحان سبب معرفة الأخبار وأظهار ما في الصدور ومعلوم أنه لا تغيب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين فليس هناك حاجة الى الابتلاء وانما كان ذلك تطبيقا لما هو معلوم ألا في علم الله فكما علم التىء بيانا يقع أيضا عيانا •

ومنه قوله تعالى : **« فمن اعتدى عليكم فاعتنوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم »** أى جازوه على اعتدائه ولكنه عبر عن المجاز بالاعتداء لأنه سببها وهنا اشعار لقوة السببية بين الاعتداء وجزائه • بمعنى أن الجزاء ينبغى أن يكون نتيجة فورية للاعتداء اظهارا لقوة الاسلام وشوكة المسلمين مع الكفرة والمنافقين حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله وحده وتكون هذه المجازاة بالمثل حتى لا تخرج عن اطار العدل وروح الانسانية فالآية وسياقها يفيض بروح القوة والتمكن الذى يجب أن تكون عليه أمة الاسلام •

وأستاذنا الدكتور بسيونى عرفه يحمل الآية على السماح والعفو فيقول : (والحق أن في التعبير القرآنى لفظة كريمة يحسن بالعاقل أن يتدبرها حيث أطلق على رد الاعتداء اعتداء لأنه هو الآخر لا يخلو من اعتداء يجدر بالعاقل أن يترفع عنه ولا يقع فيه وأنظر الى تقييد السما- بالمجازاة على العدوان بالعدوان بأن يكون ذلك الجزاء بالمثل فان زادت المجازاة عن المثل ولو قليلا صار المجازى معتديا وكان جرمه في ذلك جرم المعتدى بداءة ومن ذلك الذى يستطيع أن يقيس انعدوان الأول ويحدده بالضبط ثم يحدد طريقة وكيفية وكمية الرد عليه بالمثل تماما حتى ولو كان ذلك في وقت طويل ؟ فما بالك اذا كان رد العدوان عادة لا يقع الا في وقت الغضب فالسماح برد العدوان بالعدوان معلق على محال • والأولى بالمؤمن العدول عنه امثالاً لقوله تعالى وانتقوا الله وأملا في قوله

« ان الله مع المتقين » (١٦) •

ومثله « وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين » فالسيئة الأولى حقيقة لأنها الذنب الذي وقع من الجانى والثانية مجاز لأنها الجزاء والعقوبة على الأونى فالآية فى شقها الأول تبرز قوة السببية بين السيئة وجزائها وفى الشق الأخير منها تدعو الى العفو والاصلاح •

ولو فسرت السيئة بمطلق ما يسيء انجاني فالسيئة الثانية حقيقة لأن الجزاء مهما كان عدلا فانه يسيء الى الجانى ويؤذيه فالآية اذا محتملة للحمل على الحقيقة والحمل على المجاز (١٧) •

وأشير انى أن بعض البلاغيين ذكر هاتين الآيتين فى باب المشاكلة ولكن — يجب أن يلاحظ أنه يترتب على ذلك فرق جوهرى فى المعنى لأن اعتبار أن السيئة عبر بها عن المجازاة نظرا للعلاقة السببية يسقط حين يقال انه عبر عن المجازاة بالسيئة لوقوعه فى صحبتها كما هى طريقة المشاكلة فاذا اعتبرت بيت عمرو — ألا لا يجهل أحد علينا — وآية — فاعتدوا — من باب المشاكلة تكون قد أغفلت سببية العداوة وسببية الجهل فى المجازاة والمكافحة وهذا جزء مهم من المعنى وزبما كان مقصدا من مقاصده وهو واضح فى الآية والبيت كما هو واضح فى آية الشورى « وجزاء سيئة سيئة مثلها » لأنها جاءت عقب قوله : « والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون » وقال النخعى كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجتريء عليهم الفساق وقبونه « وجزاء سيئة سيئة مثلها » وهو شق الآية الأولى وبعده : « فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين » تجد فيه الغضب على هؤلاء الذين يسيئون الى الناس وفى ضوء هذا تتقرر النقيمة البلاغية للمجاز هنا وأنه ابراز لقوة السببية ثم تجد الشق الثانى من الآية يتجه الى تلك الطائفة المسالمة ويناشدها العفو والاصلاح بعد ما أعطاهم حق المجازاة والمكافحة ولعل فى ذلك العفو والاصلاح ما تنكف به نفوس المجترئين •••

(١٦) الصور البيانية ٣٣٠ •

(١٧) الافصاح ١٢٩ •

والمشاكاة لا تقوم على علاقة بين المعنى الأصلي والمعنى الذى استعملت الكلمة فيه فالذى يقول انى بنيت الجار قبل المنزل • انما ذكر اختيار الجار بلفظ البناء لوقوعه فى صحبة البناء وليس ثمة علاقة بين الاختيار والبناء وانما هو شىء يجرى فى كلامهم حبا للمشاكاة واعتمادا على وضوح المعنى وهو من العناصر التى يحلو بها الكلام وتحسن ديباجته (١٨) •

وفى قول الشاعر :

ألا لا يجهلن أحد علينا

فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فالجهل انصار من أعدائه عليه بداءة حقيقة وقوله — فنجهل — أى نجازى ونعاقب — مجاز من باب تسمية الشىء باسم سببه •

ومنه استعمال — اليد — فى النعمة كما فى قول المتنبي :

وما قتل الأحرار كالعفو عنهم

ومن لك بالحر الذى يحفظ اليدا (١٩)

والبلاغيون المتأخرون يذكرون قول النبي ﷺ لزوجاته : أسرعكن لحاقتى أطولكن يدا — ويذكرون له احتمالين :

الأول : أن تكون — اليد — مجازا عن العطاء بعلاقة السببية و — أطولكن — من الطول الذى ضد القصر ترشيح للمجاز لملائمته اليد أو من انطول بمعنى الفضل ولا ترشيح للمجاز •

الثانى : أن تكون — اليد — حقيقة على اعتبار أن فى التحديث حذف جار ومجرور متعلق بأفعل التفضيل والأصل قبل الحذف أطولكن يدا بالعطاء •

وعبد القاهر ذكره فى باب الاستعارة التمثيلية وهو يحرر أن اللفظ المفرد لا يستقل أحيانا بالدلالة على المعنى المقصود الا بضميمة شىء

(١٨) التصوير البيانى ٣٥٠/٣٥١ •

(١٩) ديوان المتنبي ١١/٢ •

اليه كالحرص والرغبة المدلول عليها بمجموع انتلقى واليد والقوة القاهرة المدلول عليها بمجموع الطى واليمين وأن فضل القدرة أو وفرة العطاء مأخوذة من مجموع الطول مع أيدي كما في قولهم • فلان طويل اليد وكما ورد في الحديث — أطولكن يدا •

والحقيقة أن اليد والطول يشيران الى القوة أو الجود بطريق الزوم لا بطريق الشبه فالعلاقة بين الهيئة المحسوسة والمعنى المقصود ليست علاقة مثابته (٢٠) •

وقد اشترط الخطيب للتجوز باليد عن النعمة — أن يكون في الكلام اشارة الى المولى لها فلا يقال — اتسعت اليد في البند أو اقتنيت يدا كما يقال — اتسعت النعمة في البلاد أو اقتنيت نعمة وانما يقال جلت يده عندي وكثرت أيادته لدى (٢١) •

ويناقشه السبكي فيقول — وفيما ذكره نظر لأن كل مجاز فلا بد له من قرينة كما سبق فلا حاجة الى تقييد هذا النوع ثم الاشارة الى المولى لها لا يتعين بل بذكر قرينة ما فقد تحصل القرينة من غير اشارة الى المولى كقولك — رأيت يدا عمت الوجود وقد تحصل الاشارة الى المولى ولا قرينة تصرف الى المجاز كقولك تعجبني يد زيد وتمثيل المصنف بقوله جلت يده عندي فيه نظر لأن ذلك ليس فيه ما يعين المجاز اذ لا مانع أن تقول جلت يده عندي مريدا الجارحة (٢٢) •

ومعلوم أن الاشارة الى المولى للنعمة وردت في نص لعبد القاهر وهو (ودليل آخر وهو أن اليد لا تكاد تقع للنعمة الا وفي انكلام اشارة الى مصدر تلك النعمة والى المولى لها ولا تصالح حيث تراد النعمة مجردة من اضافة لها انى المنعم أو تلويح به (٢٣) •

وهو يستدل على ضعف الملازمة بين اليد والنعمة كما يشير صدر

• (٢٠) التصوير البياني ٢٤٢

• (٢١) بغية الايضاح ٩٢/٣

• (٢٢) شروح التلخيص ٣٣/٤ وما بعدها

• (٢٣) أسرار البلاغة ٢٢١/٢

النص (ودليل ٠٠٠٠) لأنه قد لاحظ أن الاستناد بين الأصل والفرع يقوى ويضعف (٢٤) وعند ضعف الملايسة فإنه تجب الاشارة الى مصدر هذه النعمة حتى تقوى الملايسة وتفهم النعمة من اليد ولا تصلح اليد مجازا عن النعمة اذا خلا الكلام من هذه الاشارة طالما أن فهم هذا المجاز طريقه الملايسة وهي لا تكون الا بتلك الاشارة •

فكلام الخطيب الذى يناقشه السبكي مقتطع من كلام عبد القاهر بطريقة غير دقيقة — وظن أن المسألة مسألة قرينة وفاته أن هذا عند عبد القاهر شرط فى صحة النقل فهو شئء يسبق القرينة لأنه جزء من العلاقة المسوغة لنقل • ولو أن السبكي فهم مراد عبد القاهر كما شرحناه لكان من حقه أن يورد الاعتراض بصورة أخرى وهو أنه قد ورد فى فصيح كلام العرب اطلاق اليد والأيدى على النعمة وما شابهها من غير أن يكون فى الكلام اشارة الى المنعم من ذلك قولهم — ان الأيدى قروض — أى أن النعم والعوارف عند انذى سيقت لهم كأنها قروض وديون فلا خلاص للنفس الكريمة من الاحساس بأثقالها الا اذا أتيت لها المكافأة بالأوفى كما يقولون ان عارا ونقيصة على الكريم أن يموت وعليه دين من ديون المعروف وهذا المثل ذكره الميدانى فى أمثال المولدين ولا ضمير من استخدام اليد لهذه المعانى المجازية من غير اشارة ما دامت قد قويت الملايسة بشهرة الاستعمال وشيوعه (٢٥) •

وكذلك علاقة المسببية والمجاز بها وحاصل من تسمية السبب باسم المسبب كما فى قوله تعالى : « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » وفى الآية ثلاثة وجوه •

الأول : أن — أنزل — لغويا تعنى الاسقاط من أعلى الى أسفل والذى يسقط فى مرأى العين هو المطر الذى يسبب خروج النبات انذى ترعاه الأنعام وتعيش عليه • فالمراد بانزال الأنعام • انزال المطر — والأنعام مسببة عن وجود النبات والنبات مسبب عن نزول المطر •

• (٢٤) المرجع السابق ٢٢٠ •

• (٢٥) التصوير البيانى ٣٦٠ •

الثاني : أن المراد بانزال الأنعام • حكم الله وقضاؤه بخلقها و ايجادها وعلى ذلك فالنزول لا يتعلق بالأنعام نفسها وانما بقضائه وحكمه وقضاؤه بعد ثبوته في اللوح المحفوظ ينزل الى الأرض لتنفيذه • وعلى هذا فلا مجاز في الآية •

الثالث : أن النزول حقيقى على معنى أن الله خلق كل شىء في الجنة ثم ينزله منها الى الأرض ولا مجاز في الآية •

وعلى غرار قوله تعالى : « يا بنى آدم قد أنزنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ٠٠٠ » •

فالباس مسبب عن النباتات الثيلية وهى مسببة عن المطر النازل من السماء وقيل المراد قضينا لكم ذلك وقسمناه وقضاياه تعانى وقسمه توصف بالنزول من السماء حيث كتب في اللوح المحفوظ • فالكلام اما على المجاز واما على الحقيقة وقوله — يوارى — أى يستتر ترشيح للمجاز •

وفي نفس السياق قوله تعالى : « يا بنى آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج ابويكم من الجنة » لأن الخروج من الجنة هو المسبب الناشئ عن الفتنة (٢٦) •

ومنه قول الشاعر :

أقبل في المستن من ربابه

وأسنمه الآبال في سحابة

والمستن موضع جريان الغيث في السحاب • وأسنمة الآبال ليست في السحاب وانما الذى في السحاب هو الغيث • فعبر عنه لأنه سبب في سمنها وعلو سنامها •

ومنه التعبير عن الارادة والرغبة بالفعل والحدث نفسه وهو كثير في القرآن الكريم مثل قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى

الصلاة فاعسلوا وجوهكم «...» أى إذا أردتم القيام بدليل هذه الفاء التى تقتضى أن يكون ما بعدها مرتباً على ما قبلها كما فى قولك اذهب الى الباب فافتح • فالفتح لا يكون الا بعد الذهاب الى الباب وهنا نو جعلنا غسل أعضاء الوضوء بعد القيام الى الصلاة فلا يستقيم الكلام مع الأمر الشرعى واذن فلا مفر من جعل قمتم — بمعنى — أردتم أو عزمتم أو نويتم • فلما كان القيام الى الصلاة مترتب على الارادة أو انغزية والنية صح أن يعبر بالحدث عن هذه الارادة ليكون ما يطويه الانسان تجاه هذا الأمر الشرعى الذى هو عماد الدين من النية والرغبة أمراً محققاً بالفعل فى الواقع وليس مجرد أمانى أو خواطر تدور فى نفسه سرعان ما يثبطها الشيطان وأعوانه ولكن يجب أن تكون النية مقرونة بالعمل حتى كأنها هى العمل نفسه أو بحيث لا ينفك انفعال عن الارادة كما يقول البيضاوى •

ومثله — فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله — أى إذا أردت القراءة كما تدل على ذلك فاء السببية والحديث المشهور عن جبير أن النبى ﷺ كان يقول قبل القراءة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم • وغيره مما استفاض رواية وعملاً • وهو مذهب الجمهور من القراء والفقهاء (٢٧) •

ومنه « ونادى نوح ربه فقال رب ان ابنى من أهلى » فقد دلت الفاء فى — فقال — على أنه قصد بالنداء ارادة النداء • وأيضا قوله : « وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا » أى أردنا اهلاكها فجاءها بأسنا أى أن مجيء انبأس وهو العذاب كان مقارناً للارادة باعتبار تعلقها بالتنجيزى •

وفى الآية أقوال أخرى ذكرها الألوسى فقال — وقيل • ان المراد بالهلاك الخذلان وعدم التوفيق فهو استعارة أو من اطلاق المسبب على السبب والى هذا يشير كلام ابن عطية وتعقب بأنه اعتز الى وأن الصواب أن يقال • معناه خلقنا فى أهلها الفسق والمخالفة فجاءها بأسنا وقيل المراد حكمنا باهلاكها فجاءها وقيل • الفاء تفسيرية نحو

توضاً فغسل وجهه وقيل ان الفاء للترتيب الذكري وقال ابن عصفور •
ان المراد أهلكتها هلاكاً من غير استئصال فجاءها هلاك الاستئصال
وقال الفراء الفاء بمعنى الواو أو المراد فظهر مجيء بأسنا
واشتهر (٠٠) (٢٨) •

ومن المشهور في هذه العلاقة قوله تعالى . « ان الذين يأكلون أموال
اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا » فالذى يؤكل على الحقيقة
ما يدخل البطون من المطعومات الشبيهة فإذا كانت من طريق غير مشروع
كانت سبباً في دخول النار فكان الذى يأكل هذه المطعومات الحرام
يأكل نارا بالفعل وفي ذلك تغنيظ الوعيد لمن يسلك هذا المسلك وتشخيص
لدخول الحميم النارية في بطونهم • وتفسير من أكل أموال اليتامى ظلماً
ولذلك أمر قبل ذلك باعطائهم أموالهم •

« وآتوا اليتامى أموالهم » والمراد بايتائهم أموالهم • اعطاؤها لهم
بالفعل • وذلك لا يكون الا بعد البلوغ كما قال : « فان آنستم منهم
رشداً فادفعوا اليهم أموالهم » وأصل الاستئناس • النظر من بعد
مع وضع اليد على العين ثم استعير للتبين أى علم الشئ بيننا وقيل
المراد به الابصار مطلقاً أخذاً له من انسان العين • وعلى كل فالمراد
المعرفة الواضحة باهداء اليتيم الى أهلية الملك والتصرف • فأموالهم
جديرة بالعودة اليهم وهم أحقأ بأن يكونوا المتصرفين فيها كما توحى
اضافة الأهل اليهم — أموالهم — فهى اضافة دالة على اختصاص
الملك والتصرف كما أن هناك اشارة أخرى دالة على وجوب المسارعة
الى هذا الدفع وهى اطلاق لفظ — اليتامى — عليهم بعد البلوغ ومعلوم
أنه — لا يتم بعد الاحتلام — ولكن لما كان لفظ اليتيم يثير انشفقة
والحنو والعناية وكانت مصلحتهم تقضى برد المال اليهم فأطلق
عليهم — يتامى — باعتبار الوصف الذى كانوا عليه قبل البلوغ تذكيراً به
وكان اسم اليتيم باق بعد غير زائل عنهم •

وجعل الزركشى منه قوله تعالى : « مالي أَدْعُوكم الى النجاة
وتدعوننى الى النار » وهم لم يدعوه الى النار انما دعوه الى الكفر

بدليل قوله : « تدعوننى لأخفر بالله » لكن لما كانت النار مسببة عنه أطلقها عليه وقوله تعالى : « فاتقوا النار » أى اتقوا النار المستنزمة للنار — وقوله : « وايستعفف الذين لا يجدون نكاحا » انما أراد والله أعلم الشىء انذى ينكح به من مهر ونفقة وما لا بد للمتزوج منه ٠٠٠ (٢٩) ٠

وجعل الخطيب من علاقة المسببية قول الشاعر :

أكلت دما ان لم أرعك بضره

بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

أى أكلت دية والدم سبب فى الدية وهى مسببة عنه فالعلاقة بالنظر الى نفض الدم هى السببية وليست المسببية وقد نبه الى هذا السهو شراح التلخيص (٣٠) ٠

وأما علاقة اعتبار ما كان فالمجاز بها حاصل من تسمية الشىء باسم ما كان عليه نتعلق الغرض به فى مغزى التركيب كما فى قوله تعالى : « وآتوا اليتامى أموالهم » وسبق ذكره ٠

وقونه تعالى : « انه من يأت ربه هجرما فان له جهنم » فقد سماه مجرما يوم القيامة بصفة الاجرام التى كان عليها فى الدنيا لأن المرء لا يوصف فى هذا اليوم بأنه مجرم لانقطاعه عن العمل بالموت وفى وصفه بهذا الوصف تشنيع لحاله وابرار لجرمه ودليل بين على غضب الله عليه وكأنه يحمل أدنة عقابه فى هذا اليوم المشهود ٠

وقوله : « ولكم نصف ما ترك أزواجكم » سماهن أزواجا بعد الموت لأنهن كن أزواجا ٠

ومثله — ويذرون أزواجا — فالزوجية تنقطع بالموت ٠ فالوصف بالزوجية فى الآيتين باعتبار الوصف الذى كان قبل الموت ولعل الوصف بذلك يشير الى الأحقية انشريعة فى الميراث ٠ فهو لا يثبت الا بالقرابة ٠

٠ (٢٩) البرهان ٢/٢٦٠

٠ (٣٠) شروح التلخيص ٤/٣٨

وفي قوله تعالى : « **إن أنتم إلا في ضلال مبين** » على أن ذلك من كلام الزبانية للكفار يوم القيامة كما يدل سياق الآيات فوصفهم بالضللال لما كانوا عليه في الدنيا لأنهم ليسوا الآن في ضلال وانما وصفوهم بذلك تقريرا لهم وتوبيخا ويحتمل أن يكون المراد بالضللال ما هو مسبب عنه من العقاب والعذاب فتكون العلاقة السببية •

وعلاقة اعتبار ما يكون المجاز بها حاصل من تسمية الشيء باسم ما يكون عليه كما في قوله تعالى : « **ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا** » فالمولود لا يوصف بالفجور أو الكفر لأنه ما من مولود إلا يولد على الفطرة وانما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما قال الرسول الكريم فالوصف بالفجور وانكفر باعتبار الحالة التي سيؤول اليها أمره في المستقبل •

وقوله — انى أرانى أعصر خمرا — أى عبا يؤول الى الخمرية •
وذهب ابن جنى الى أنه من باب التعبير بالمسبب وهو الخمر عن السبب وهو العنب وقيل لا مجاز فى الآية وأن الخمر اسم للعنب بلغة غسان أو أزد عمان (٣١) •

ومنه قوله تعالى : « **انك ميت وانهم ميتون** » فسمى الحى ميتا باعتبار ما يكون •

ومنه قوله تعالى : « **وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا فى كتاب** » فقد سماه معمر باعتبار ما يؤول اليه فى المستقبل •

ومنه قوله ﷺ (من قتل قتيلاً فله سلبه) •

وقد فرق العنماء بين ما اذا كان الاتصاف بالمعنى الحقيقى متراخيا عن تعلق النسبة كما فى الاتصاف بالخمرية والفجور والكفر والموت فانه متراخ عن زمن تعلق العصر بالعصير وعن نسبة الموت الى المخاطب وعن تعلق الولادة بالمولود وهذا يسمى مجاز المأل بطريق الصيرورة وبين ما اذا كان الاتصاف بالمعنى الحقيقى واقعا اثر تعلق النسبة بلا تراخ كما فى الحديث وهذا يسمى مجاز المأل بطريق المشارقة •

قال السيد — ثم المجاز بحسب المال قد يكون بطريق المشارفة كما
في — من قتل قتيلا — ويمرض المريض وتضل الضالة فانه قتيلا
ومريض حقيقة عقيب تعلق انقتل والمريض به بلا تراخ وكذلك حال الضالة
وقد يكون بطريق الصيرورة مجردة عن المشارفة كما في قوله —
« ولا يلدوا الا فاجرا كفارا » فان الاتصاف بالفجور والكفر متراخ عن
تعلق الولادة بالمولود (٣٢) •

وجعل الزركشى من مجاز المشارفة قوله تعانى : « فاذا بلغن أجلهن
فأمسكوهن » أى قاربن بلوغ الأجل أى انقضاء العدة وقال البيضاوى
أى شارفن آخر عدتهن وقال الشهاب • فهو من مجاز المشارفة
بقريفة ما بعده (٣٣) •

وعلاقة المحلية والمجاز بها حاصل من تسمية الشيء الحال باسم
محله :

كالتعبير بالمكان عن أهله فى قوله تعانى : « فليدع ناديه » أهله
المجتمعين فيه واسأل القرية — أى أهلها •

والتعبير بالأفواه عن الألسنة فى قوله تعالى : « يقولون بأفواههم
ما ليس فى قلوبهم » •

وانتعبير بانصدور عما فيها فى قوله : « ان الله عليم بذات
الصدور » •

والتعبير بالخزائن عن المقدرات من الأرزاق فى قوله : « قل لا أقول
لكم عندى خزائن الله » وتحتمل من اطلاق اللزوم على الملزوم •

والتعبير بالكأس عن الخمر فى قوله تعانى : « يطفأ عليهم بكأس من
معين » • وقوله : « يتنازعون فيها كأسا » فالمراد بالكأس الخمر •

(٣٢) حاشية السيد على الكشاف ١١٨/١ •

(٣٣) البيان عند الشهاب ١٦٤/٢ •

والكأس لا تسمى كأسا الا وفيها شراب فان خلت سميت قدحا كما قال اللغويون • وقيل العلاقة بينهما المجاورة •

وعلاقة الحانية • والمجاز بها حاصل من تسمية المحل باسم الشيء الذى يحل فيه •

والتعبير بالغيب عن اللوح المحفوظ في قوله : « **وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله** » وهذا يشير الى أن الرحمة شملتهم شمول الظرف على المظروف • ومثله : « **فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فبئز خلهم ربهم فى رحمته** » •

كالتعبير بالغيب عن النوح المحفوظ في قوله : « **أم عندهم الغيب فهم يكتبون** » •

والتعبير بالزينة عن اللباس في قوله — **يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد** » فاللباس محل الزينة • وفى الآية مجاز آخر علاقته الجزئية ان أريد بمسجد صلاة على أنه مصدر ميمى أو علاقته المحلية على أنه اسم مكان فأطلق المكان — المسجد — وأراد الحال فيه — الصلاة (٣٤) •

وعلاقة الآلية • والمجاز بها حاصل من تسمية الشيء باسم آله : كالتعبير باللسان عن الذكر الحسن في قوله تعالى : « **واجعل لى لسان صدق فى الآخرين** » •

والتعبير باللسان عن اللغة في قوله : « **وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه** » •

والتعبير بالعين عن الرؤية في قوله تعالى : « **تجرى بأعيننا** » أى بمرأى منا (٣٥) • ومثله : « **فأتوا به على أعين الناس** » •

• (٣٤) البرهان ٢/٢٨٢ •

• (٣٥) المرجع السابق •

وأما قوله تعالى : « **واصنع الفلك بأعيننا** » فيحتمل أن تكون من باب المجاز المرسل بعلاقة الآلية لأن العين آلة الحفظ والرعاية أو بعلاقة اللزومية لأن الحفظ من لوازم العين أو بعلاقة الجزئية على أن المراد بأعيننا • ملائكتنا الذين جعلناهم عيوننا على مواضع الحفظ • أو يكون التركيب من باب الاستعارة التمثيلية (٣٦) •

وعلاقة المجاورة تحصل من تسمية الشيء باسم مجاورة كما في قوله تعالى « **ثم مطاها إلى البيت العتيق** » • قال الشهاب البيت مجاز بعلاقة المجاورة عما قرب منه لأنها لا تنتهي إلى البيت العتيق نفسه وذكر قول الشاعر :

وخيل قد دلفت لها بخيل

تحية بينهم ضرب وجيـم

قوله — الخيل — معروفة ويتجاوز بها عن الفرسان كثيرا وفي الحديث يا خيل الله اركبى والمراد هنا المعنى المجازى • وبعضهم اعتبر التجوز بالبيت عن الحرم • علاقته الجزئية •

ومثله : « **ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام** » والمراد الحرم كله (٣٧) •

ومنه قول عنتره :

فشككت بالرمح الأصم ثيابه

ليس الكريم على القنا محرم

فتركته جزر السباع ينشـنه

يقضن حسن بنانه والمعصم

فكونه ترك عدوه على الحالة التي ذكرها في البيت الثانى •

• (٣٦) روح المعانى ٤٦/١٢

• (٣٧) البيان عند الشهاب ١١٩/٢

فان هذا لا يتأتى بمجرد شكه بالرمح في ثيابه بل لا بد وأن يكون ضربه ضربة مصمية تجاوزت الثياب والجسد الى انقلب والمقاتل والعلاقة مجاورة الثياب لذلك •

وهناك علاقات أخرى كاللزومية والاطلاق والتقييد ولعل فيما ذكرناه ما يحقق الفائدة •

صور من أقسامه :

أولا :

ذكر العصام أن القوم لم يقسموا المجاز المرسل الى أصلى وتبعي ولكن ربما يشعر بذلك كلامهم أى يدل على هذا التقسيم دلالة التزامية تقول السكاكى ومن أمثلة المجاز قوله تعالى : « **فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله** » استعملت قرأت مكان أردت استعمالا مجازيا •••••••• (٣٨) •

ويعقب العصام قائلا : فبين العلاقة في المصدر فيشير الى أن استعمال بمعنى المشتق بتبعية المصدر ويوضح الغلبوى ذلك بقوله : يعنى أن استعمال المشتق وهو قرأت في معنى المشتق الآخر وهو أردت اللذين تكون العلاقة بينهما غير المشابهة أو تكون العلاقة بينهما المسببية بتبعية المصدر بأن يقدر العلاقة غير المشابهة بين المصدرين فيستعمل أحدهما في معنى الآخر ثم يشتق من لفظه بأن يقال • ذكر القراءة وأريد به الارادة لعلاقة المسببية ثم اشتق من اسم القراءة الذى هو بمعنى الارادة قرأت بمعنى أردت فصار قرأت بمعنى أردت مجازا مرسلاتبعيا وأما القراءة بمعنى الارادة فهو مجاز مرسل أصلى ثم يقول • فالمجاز المرسل ان كان مشتقا أو حرفا فهو تبعي لكون علة التبعية مشتركة بين المشتق والحرف وان كان اسم جنس فهو أصلى (٣٩) •

وعلى ذلك يمكن تقسيم المجاز الى :

(٢٨) المفتاح ١٧٣ •

(٢٩) البيان عند الشهاب ١٦٨/٢ •

١ — مجاز مرسل أصلي : وهو ما كان اسم جنس • كاليد والعين والأصابع والأذن في الأمثلة التي سبقت •

٢ — مجاز مرسل تبعي : وهو ما كان مشتقا أو حرفا • كما سبق في ذكر قرأت مراد بها أردت • وكذلك في « قم الليل الا قليلا » فالقيام أظهر أركان الصلاة • عبر بالجزء وأراد الكل وهو مجاز تبعي كأنما تجوز بالقيام عن الصلاة ثم أخذنا منه قم بمعنى صل • وكذلك الحال في الأجزاء التي يتجاوز بها عن الصلاة وتأتي على صيغة المشتق •

وكذلك لفظ — اليتيم — لك أن تجعل مجازه تبعيا فتقول • نقل اليتيم من فقد الأب مع انصغر الى فقده مع الكبر لأن الموصوف بهذا كان موصوفا بذاك واشتق منه يتيم بمعنى فاقد الأب مع الكبر ولك أن تقول انه هنا جار مجرى الأسماء الجامدة من حيث غلبت عليه الاسمية (٤٠) •

وقوله تعالى : « فهل ترى لهم من باقية » فهل حرف موضوع للاستفهام وقد استعمل في النفي بمعنى ما ترى لهم من باقية والعلاقة السببية اذ الجهل بالشيء يلزم منه عادة نفيه لأن الأصل العدم (٤١) •
ثانيا :

ذهب بعضهم الى أنه اذا كان المجاز المفرد يتحقق بنقله عما وضع له لعلاقة المشابهة كما في نقل الأسد للرجل الشجاع وأن ذلك يسمى استعارة ولعلاقة غير المشابهة كما في نقل العين الى الجاسوس وأن ذلك يسمى مجازا مرسلا • فان ذلك يتحقق في الوضع النوعي في المركبات فاذا كانت العلاقة المشابهة كان المركب استعارة تمثيلية •

كقولهم للمتردد : أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى • وان كانت العلاقة غير المشابهة في المركب سمي مجازا مرسلا مركبا •

قال سعد الدين : كما أن المفردات موضوعة بحسب الشخص

(٤٠) علم البيان ١٠٠ •

(٢١) نظرات في البيان ٢٣٧ •

فالركبات موضوعة بحسب النوع فاذا استعمل المركب في غير ما وضع له فلا بد أن يكون ذلك لعلاقة فان كانت المشابهة فاستعارة والا فغير استعارة وهو كثير في الكلام كالجمل الخبرية التي لم تستعمل في الاخبار كقوله : هو اى مع الركب اليامين مصعد •

فالتركيب موضوع للاخبار والغرض منه الحزن والتحسر (٤٢) •

وبناء على هذا فالمجاز المرسل يأتى مفردا ومركبا •

١ — **فالمفرد** : كهذه الأمثلة الكثيرة التي مرت في ذكر العلاقات •

٢ — **المركب** : كاتراكيب الاخبارية التي قصد بها اظهار التحسر والتحزن وأساليب الانشاء المستعملة في الخبر والخبر المستعمل في الانشاء كقولنا — رحمه الله — وقول رسولنا ﷺ من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار •

والعلاقة في هذه التراكيب يمكن أن تكون اللازمة والمزومية لأن الاخبار بوضع الأئثى في قولها انى وضعتها أئثى — يستلزم اظهار التحسر • ويمكن أن تكون السببية • اذ يتسبب عن الأمر بالتبوء الاخبار به في حديث الرسول ﷺ •

ثالثا :

في تعليقات الشهاب على البيضاوى أشار الى لونين من ألوان المجاز المرسل وهما :

١ — **المرسل الكنائى** : وذلك في قوله تعالى : « **الاعبادك منهم المخلصين** » •

قال البيضاوى : أى الذين أخلصتهم لطاعتك وطهرتهم من الشوائب فلا يعمل فيهم كيدى •

وقال الشهاب : قوله طهرتهم من الشوائب أى من كل ما ينسافى الاخلاص وقوله فلا يعمل فيهم كيدى اشارة الى أنه من ذكر السبب

وارادة مسببة ولازمة على طريق الكناية لينتظم اللصاق بالسياق فانه كان الظاهر أن منهم من لا أغويه لكن الاخلاص والتمض لله يستلزمه فذكر ليثبت ما ذكر بدليل فهو أبلغ من التصريح (٤٣) .

٢ — المرسل التهكمى كما فى قوله تعالى : « **بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما** » فمعروف أن — بشر — بمعنى أنذر على سبيل الاستعارة التبعية التهكمية وقيل ان — بشر — بمعنى أخبر فقال الشهاب — ولك أن تقول : انه مجاز مرسل فهو وجه آخر فى التهكم (٤٤) . وقال الألوسى (وضع فيه بشر موضع أنذر تهكما بهم ففى الكلام استعارة تهكمية وقيل . موضع أخبر فهناك مجاز مرسل تهكمى) (٤٥) .

أضواء على بلاغة المجاز المرسل

أشرت فى عرض بعض صور هذا المجاز الى شىء من بلاغته ونزيد هنا بأن صور هذا المجاز يقف من ورائها خيال طريف يمتع القلب والعقل معا فاذا تأملنا صورة الرزق وهو ينصب من السماء أو صورة النبات أو صورة الأنعام أو صورة اللباس والريش أو صورة الأسنمة فى السحاب . فانها تثير فى النفس كوامن الاحساس بالجمال عندما نتخيل هذه الصور وهى تتساقط على حقيقتها من السماء الى الأرض . وبالنظر فى أعطاف الكلام ومراميه ورؤية القرائن المعينة ترد مرة أخرى الى المعنى المجازى المقصود من التركيب . وهنا ندرك من اللفظ فضيلة أخرى وهى فضيلة الايجاز والتركيز وذلك بطى قصة طريفة طواها اللفظ بتعبيره عن المراد . فعندما ندرك أن المراد بالرزق هو المطر . فى قوله تعالى : « **وينزل لكم من السماء رزقا** » فان الذهن يعود الى تلك العملية الاسقاطية للمطر والتي ليست فى مقدور أحد من البشر كما فى قوله تعالى : « **وينزل الغيث** » واختلاط هذا المطر بالأرض فاذا بها تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج يكون هو مصدر الرزق للانسان والأنعام . وأحيانا تمتد القصة فنطلع من خلالها على تلك العملية

(٤٣) ينظر البيان عند الشهاب ١٨٧ وزوج المعانى ١٤/٥٠ .

(٤٤) المرجع السابق ١٨٩ .

(٤٥) روح المعانى ٥/١٧١ .

الصناعية والزراعية التي تقوم على أثر سقوط المطر فيتخذ الانسان من هذه الأقطان اللباس الذي يوارى السوأة واللباس الذي يتزين به •

وعندما يدرك الانسان هذه السلسلة الممتدة من نزول المطر وانبات النباتات وخروج هذه الأقطان ودخولها الى مصانعها لتخرج للانسان لباسا يقيه الحر والقر • فان ذلك يدفع العقل للايمان بالمنعم الذي سخر له هذه النعم وبذلك يصل حبله بالله ويزداد قربا منه فلا يلقي بالا لمن يوهمه بأنه قادر على سعادته أو شقاوته • فان هذا التنشيط العقلي يؤكد لديه بالعيان معنى قوله تعالى : « **وأنه هو أضحك وأبكى** » وقوله بعد ذلك : « **وأنه هو أغنى وأقنى** •••• » (٤٦) •

وفي التعبير عن الصلاة ببعض أركانها كالركوع والسجود أو الذكر أو الفاتحة كما في حديث رسول الله ﷺ • الذي رواه عن رب العزة تبارك وتعالى : « **قسمت الصلاة بيني وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل** ••• » •

ما يدل على مدى الأهمية البالغة لهذه الأجزاء في صحة اكتمال الصرح الكلى للصلاة وأنها لا تصح بدونها ولعل في ذلك اشارة الى شرفها وأنها كل لا يتجزأ وأنها عمود الدين ولذلك كانت جديرة بأن يكون تشريعها في السماء مباشرة وليس في الأرض بالوحي •

وفي التعبير عن المصغى بأنه أذن وعن الجاسوس بأنه عين فيه دلالة على المبالغة وكأنك جعلت جملة آلة للاستماع لولعه بالاصغاء والتصنت أو جعلت جملة آلة للاستطلاع مبالغة في عنايته وحرصه على التجسس • وهكذا لو بحثنا في صور هذا المجاز لوجدنا هذا الخيال انطريف الذي يثير النفس ويحرك الذهن وهذا الايجاز والاختصار والمبالغة وراء التصوير بهذا الأسلوب •

الكناية

تعتبر الكناية الركن الثالث المكون لعلم البيان بعد التشبيه والمجاز وقد حظيت منذ مرحلة التأليف بتصويب نظرات العلماء الى أساليبها وبيان صورها ولكن هذا البيان كان مصحوبا بالتعميم أحيانا والخلط بينها وبين غيرها من التراكيب أحيانا أخرى .

فأبو عبيدة (٢٠٧ ت) يفسر المفردات في ظلال التراكيب تفسيراً يؤول الى الكناية ولكنه لا يشير الى ذلك مكتفياً بهذه التفاسير اللغوية كما في قوله تعالى « **يد الله مغلولة** » قال – خير الله ممسك (١) .

وقد يعتبر التركيب مجازاً كما في قوله تعالى : « **فسينفضون اليك رؤوسهم** » فيقول : (مجازه فسيرفعون ويحركون استهزاء منهم) (٢) .

كما يجعل تحول الأسلوب من شكل الى آخر كناية فقال (ومن مجاز ما يحول خبره الى شيء من سببه ويترك خبره هو قوله : « **فظلت أعناقهم لها خاضعين** » . حول الخبر الى الكناية التي في آخر الأعناق) (٣) .

وفي قوله تعالى : « **اياك نعبد** » قال : (بدىء بكناية المفعول قبل الفعل) (٤) .

وأحيانا يقترب من المعنى اللغوي للكناية أى الدلالة على الشيء من غير أن يصرح به كما في قوله تعالى : « **أو جاء أحد منكم من الغائط** »

-
- (١) مجاز القرآن ١/ ١٧٠
 - (٢) المرجع السابق ١/ ٣٨٢
 - (٣) المرجع السابق ١/ ١٢
 - (٤) المرجع السابق ١/ ٢٤

قال : كناية عن اظهار لفظ قضاء الحاجة من البطن وقوله « أو لاهستم النساء » كناية عن الغشيان (٥) .

وكانت هذه النظرات من أبي عبيدة بمثابة الخطوة الأولى على طريق التأليف ولا ينبغي أن يطالب بأكثر من هذا في هذا الزمن المتقدم بل ان من جاءوا بعده مباشرة كان موضوع الكناية يتفاوت في بحوثهم بين القبض والبسط كما اختلفت مصطلحاتهم الدالة عليه .

فالجاحظ (٢٥٥ ت) يدخل فيها الكنية مثل أم الفضل وأم حكيم والرجل يكنى أبابكشة .

كما يستخدمها بالمعنى اللغوي وذلك بالكناية عن الشيء الذي يقبح ذكره . فيقال لموضوع الغائط . الخلاء والمذهب والمخرج والكنيف والمرحاض والمرفق . وكل ذلك كناية واشتقاق (٦) .

وقالوا في قوله تعالى : « وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا » الجلود كناية عن انفروج وفي قوله تعالى : « كانا يأكلان الطعام » ان هذا انما كان كناية عن الغائط (٧) .

وأحيانا كان يشير الى علة التعبير الكنائى وهو : (أن يظهر المعنى بأليق لفظ إما تنويها وإما تفضلا كما سموا المعزول عن ولايته مصروفا والمنهزم عن عدوه منحازا) (٨) .

والكناية عنده مرتبطة بالحال واقتضاء المقام فقال — فالافصح في موضع الافصح والكناية في موضع الكناية — وربما كانت الكناية أبلغ في التعظيم وأدعى للتقديم (٩) .

(٥) المرجع السابق ١/١٥٥ .

(٦) ينظر الحيوان ٥/٤٦٣/٢٩٥ .

(٧) الحيوان ١/٣٣٤ ، ٢/٢٨٠ .

(٨) رسائل الجاحظ ٣/١٤٠ .

(٩) ينظر الحيوان ٣/٣٩ والمصدر السابق ١/٣٠٧ .

وأما المبرد (٢٨٥ ت) فقد قسمها الى ثلاثة أقسام وكان في عرضها يحطب في وادى الجاحظ (١٠) .

وأما قدامة (٣٣٧ ت) فقد بحثها تحت (الارداف) وهو — أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعانى فلا يأتى باللفظ الدال على ذلك المعنى بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له فاذا دل على التابع أبان على المتبوع (١١) .

وكان منهجه مستقيما في تحديدها وعرض أمثلتها لم يتمثله أبو هلال فيما بعد فخلط في أمثلتها .

وابن رشيق بحثها تحت مصطلح (الاشارة) وجعل الكناية والتعريض والتلويح وانرمز واللمحة وغيرها أنواعا منها (١٢) .

ومعلوم أن الاشارة قد ذكرها الجاحظ من قبل كاحدى الدلالات على المعانى وأراد بها الاشارة بالجوارح كاليد والعين أو بما يحمل كالسيف والثوب كما أراد بها الايجاز أو اللمحة والوحى وبهذا المعنى الأخير ذكرها قدامة (١٣) .

وأما ابن سنان (٤٦٦ ت) فقد بحثها تحت مصطلح (الارداف والتتبع) والارداف يرجع الى قدامة والتتبع يرجع الى ابن رشيق .

ثم جاء عبد القاهر (٤٧١ ت) وحدها بقوله هي (أن يريد المتكلم اثبات معنى من المعانى فلا يذكره باللفظ الموضوع نه فى اللغة ولكن يجيء الى معنى هو تاليه ورفه فى الوجود فيومىء به اليه ويجعله دليلا عليه) (١٤) .

وبذلك غلب مصطلح الكناية وشاع وبخاصة فى مدرسة المفتاح وعند شراح التلخيص وأما الارداف فلم يعد يذكره بعد عبد القاهر سوى ابن أبى الأصبع المصرى .

(١٠) ينظر الكامل ٦/٢ والعمدة ١/٣١٣ .

(١١) نقد الشعر ١٥٧ — .

(١٢) ٣٠٢/١ وما بعدها .

(١٣) البيان ٤٤/١ ونقد الشعر ١٥٤ .

(١٤) دلائل الاعجاز ١٠٥ .

وقد أخذ عبد القاهر في عرض أمثلتها وتحليلها تحليلاً فنياً متميزاً وحرر أقسامها غير أنه لم يتكلم عن الكناية عن الموصوف • وكان المتأخرون قد تناقلوا صورتها عنده من وجهة نظرهم العقلية ولم يحافظوا على منهجه في بيان حسناتها وأثرها في بلاغة الصورة وانحدروا بها منذ القرن السابع الهجري إلى حيز الدراسات الفلسفية والمنطقية التي تقوم على الجدل والخلافات اللفظية والتقسيمات العقلية فوقعت بحوثها نهبا لتضارب الآراء • فما يثبتته البعض ينقضه الآخرون •

يقول السيوطي عن اختلافهم حول كونها حقيقة أو مجازاً (وفيها أربعة مذاهب أحدها أنها حقيقة قال ابن عبد السلام وهو الظاهر لأنها استعملت فيما وضعت له وأريد بها الدلالة على غيره • الثاني أنها مجاز • الثالث أنها لا حقيقة ولا مجاز واليه ذهب صاحب التخصيص لمنعه في المجاز أن يراد المعنى الحقيقي مع المجازي وتجويزه ذلك فيها الرابع وهو اختيار الشيخ تقي الدين السبكي أنها تنقسم إلى حقيقة ومجاز فإن استعملت اللفظ في معناه مراد منه لازم المعنى أيضاً فهو حقيقة وإن لم يرد المعنى بل عبر بالملزوم عن اللازم فهو مجاز لاستعماله في غير ما وضع له والحاصل أن الحقيقة منها أن يستعمل اللفظ فيما وضع له ليفيد غير ما وضع له والمجاز منها أن يريد به غير موضوعه استعمالاً وإفادة (١٥) •

كذلك اختلفوا في احتياجها إلى قرينة مانعة • فقال السبكي (الكناية أيضاً إن كانت حقيقة لا بد لها من قرينة تصرف إليها كما أن المجاز لا بد له من قرينة • فلم جعلت القرينة انصرفة إلى المجاز مانعة من إرادة الحقيقة ولم تجعل القرينة انصرفة إلى الكناية مانعة من إرادة معنى الكلمة • ومما يدل على أن الكناية لا بد لها من قرينة ••••• قول الجرجاني في دلائل الإعجاز المكنى عنه لا يعلم من اللفظ بل من غيره ألا ترى أن كثير الرماد لم يعلم منه الكرم من اللفظ بل لأنه كلام جاء عندهم في المدح ولا معنى للمدح بكثرة الرماد وكذلك ولا أبتاع الاقربى لأجل لا معنى لا ابتياع ما دنى أجله فهذا الكلام صريح في أن انصرفة إلى الكناية القرينة وكيف لا والكناية على خلاف الأصل

لأن الأصل في الكلام أن يراد به ما استعمل فيه وكل خلاف الأصل محتاج
الى القرينة (.....) (١٦) .

• وهل هذه القرينة مرجحة أو مسوية أو لا مرجحة ولا مسوية ؟
خلاف لا طائل تحته • قال عنه المغربي (ومعلوم أن هذا من التحكم الذى
لا دليل عليه (١٧)) .

والواقع أنها خلافات لفظية • جرهم اليها النظر العقلى والجدل
المنطقى ولا تتجاوز مجرد التسمية • فان ذهن السامع ينتقل من كثرة
الرماد انى الكرم وليس فى حاجة الى معرفة اللازم والمزوم وهل هو
حقيقة أو مجاز •

— وقد شغلت هذه المسألة أقلام الشراح بقدر ربما لم يكن
السياق فى حاجة ماسة اليه لأن الانتقال فى الدلالات اللغوية لا يلتزم
بهذه الدلالات المنطقية وقدامة يجعل فحواها أن يبين التابع عن
المتبوع فالهم ألا يذكر اشاعر المعنى باللفظ الدال عليه بل بلفظ يدل على
معنى هو ردفه وتابع له فاذا دل التابع أبان عن المتبوع وهذا نفسه
ما ذكره الخطيب اذا لاحظنا ما قلناه من أن الانتقال من اللازم الى
المزوم أو من المزوم الى اللازم والفرق هو أن الخطيب اصطنع كلمة
المزوم وهى أقرب الى المصطلح المنطقى والأصولى بينما قدامة اصطنع
كلمة الرادف والتابع وهى أقرب الى المصطلح اللغوى والبيانى وقد
الترمه الذين تأثروا قدامة وهم كثير منهم أبو هلال كما ذكرنا وابن
رشييق على ما كان منه من مهاجمة قدامة وعبد القاهر وابن سنان وابن
أبى الأصبع كلهم يذكرون الرادف والتابع ولم يعدلوا الى المزوم واللازم
وانما فعل ذلك السكاكى والخطيب ومن قفاهم (١٨) •

ومعلوم أن هناك فرقا جوهريا بين الكناية والمجاز لا يمكن اغفاله
وسط هذا الركام النظرى • يستبين من خلال هذه التراكيب •

(١٦) شروح التلخيص ٢٤٠/٤ وما بعدها •

(١٧) المرجع السابق ٢٤١/٤ •

(١٨) التصوير البيانى ٣٧٠ •

ففى صور المجاز نجد أن المعنى الحقيقى هو المتوارى وأن المعنى المجازى هو المقصود بالاعلام • وذلك واضح فى أمثلة المجاز التى مرت فى مواطنها فلا معنى لاجراج الله اناس من الظلمات الحسية الى النور الحسى • ولا معنى لتعلق الصدع الحسى بتبليغ الرسالة ولا معنى لوقوع التقطيع الحقيقى عنى بنى اسرائيل ولا معنى لحصول الطغيان الحقيقى من الماء كما لا يوصف الناس بالموج الحقيقى والزلزلة الحقيقية • ولا معنى لنزول الأرزاق التى تقطعت بالمعنى الحقيقى من السماء وكذلك نزول اللباس والريش •

فكل هذه الدلالات المباشرة غير مرادة ولا يستقيم معناها فى النفس والعقل الا على أساس من التأويل والتجوز • وذلك بخلاف ترايب الكناية كما فى قوله تعالى : « **وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا** » •

والآية تعبر عن موقف الرفض والعناد والاستكبار لقوم نوح عليه السلام وترسم أفعالهم رسما يكشف عن أحوالهم النفسية وما تكنه صدورهم للحق •

فعلى الرغم من تكرار نداء الدعوة اليهم وكثرة الانذار والتذكير كما يوحى بذلك قوله « **كلما دعوتهم** » فقد عطلوا أجهزة استقبالهم بوضع أصابعهم فى آذانهم وذلك للمبالغة فى منع تسرب أى صدى لصوت الحق فى مسامعهم • وواضح أن هذا مجاز مرسل ولا يستقيم معناه المباشر فى العقل الا على طريق التجوز •

كما عمدوا الى فعلة أخرى أكثر جرما وأشملا فى التباعد • فجدوا فى طلب الثياب ليتغطوا بها مبالغة فى اظهار الكراهة للدعوة والداعية وحجب أجهزة الادراك كلها • السمع والبصر والفسؤاد عن مصدر نداء الايمان وذلك قوله « **واستغشوا ثيابهم** » •

وهذا التركيب كناية ومعناه المباشر يستقيم فى العقل وأنه السبيل الى المعنى الآخر المقصود من وراء الدلالة المباشرة •

وقال ذو الرمة :

عشوية ما لى حيلة غير أننى

بلقط الحصى والخط فى الترب مـونع

أخط وأمحو الخط ثم أعيدده

بكفى والغربان فى الدار وقع

انه يصور حاله فى عشويته التى حط فيها رحاله فى منزل الحبيبة وتفقدتها فلم يعثر عليها فتغشاه الحزن وتمنكه الدهول وسيطر عليه اليأس وشرد عنه اللب وراح يعبث بلقط الحصى والخط فى التراب ثم محوه واعادته والغربان من حوله فى الدار واقعة وهذه الأمور لا مانع من ارادة معناها الحقيقية ولكنه وضعها فى هذه الصورة الجميلة والبسيطة لينطلق منها الى بيان حاله من وراء هذه الدلالة المباشرة .

وقال امرؤ القيس :

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها

نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

الانتطاق هو الانتزار للعمل . والنطاق ثوب تشده المرأة على

وسطها للمهنة والعمل .

فالدلالة المباشرة لتراكيب البيت من كون فتيت المسك يبقى فى فراشها الى الضحى وكثرة نومها فى هذا الوقت وأنها لم تنتطق لتعمل غير مراده وان كان يجوز ارادتها كما يقتضيها موضوعها فى اللغة . ولكن المعانى الثوانى التى تفضى اليها هذه الدلالة هى محط الغرض المقصود .

ففى قوله — نؤوم الضحى — المقصود أنها فى دعة ونعمة وترف وأنها مخدمومة لها من يكفيها أمرها . فهى تنسام الى هذا الوقت الذى تسعى فيه النسوة لقضاء مصالحهن . ونكى يثبت لها دوام هذا الترف والخدمة قال — لم تنتطق عن تفضل — أى أنها لم تشد وسطها بنطاق لتعمل بعد هذا التفضل .

وأما قوله — وتضحى فتتبت المسك فوق فراشها — فقد حملها بعضهم على المبالغة أى — كأن فراشها فيه المسك من طيب جسدها لا أن أحدا فت لها فيه مسكا — كما قال في بيت آخر •

ألم تر أنى كلما جئت طارقا

وجدت بها طيبا وان لم تطيب (٢٠)

وابن أبى الأصبع قد أضاف أبعادا أخرى الى هذه الدلالة الثانية وهى — دقة البشرة واقتبال الشباب وكثرة الحظوة وعظم الثروة وأنها غير شظفة ولا ممتهنة •

وفى قوله — وتضحى فتتبت المسك فوق فراشها — أنها حظية عند الرجال المثرين وأنهم فى غاية الميل إليها مع القدرة بالثروة على الاستكثار من حرائر النساء ومن الاماء اما لأفراط جمالها أو لسعد جدها وأنها ممن يسمح له بأغلى الطيب وأعلاه بما يبقى فتتبه فى صبيحة كل ليلة على فراشها بعد ما يتصعد منه ويلصق بجسمها وما يعلق بشعرها وبشرتها وفى التعبير كذلك دلالة على كثرة النوم الذى لا يكون الا عن غلبة الدم الطبيعى فى سن النمو وطبيعة الدم حارة رطبة وهى طبع الحياة ومادتها فىكون اللون به مشرقا والماء فى الوجه كثيرا والأخلاق حسنة لأجل اعتدال المزاج •••••••• (٢١) •

وقال النابغة الذبياني :

وردت مطايا الراغبين وعريت

جياذك لا يحفى لها الدهر حافرا (٢٢)

يقول ان القاصدين الى النعمان الراغبين فى معروفه يردون مطاياهم اذا علموا بموته ثم يقول — وعريت جياذك •••••••••• فالمعنى الأول وهو حط السروج عنها وعدم احفاء حوافرها ليس هو الغرض

(٢٠) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ٦٥ بتصرف •

(٢١) تحرير التحرير ٢٠٨ نقلا عن الصور البيانية ٣٦٠ •

(٢٢) ديوان النابغة ٦٨ •

المقصود وإنما المعنى الثانى الذى يلزم المعنى الأول هو المقصود وهو أنها أهملت ولم تتركب لغزو ولا لغيره .

ولذلك كانت الكناية عندهم هى (لفظ أريد به لازم معناه مع جواز ارادة معناه) .

كما فرقوا بينها وبين المجاز بقولهم :

وقد تبين أن الكناية والمجاز يشتركان فى افادة اللازم ويفترقان من جهة أن الكناية لا تصحبها قرينة مانعة من ارادة المعنى الأصلي بل يبقى معها جواز ارادة المعنى الأصلي والمجاز لا بد أن تصحبه قرينة مانعة من ارادة المعنى الأصلي وبهذا يخرج عن حد الكناية اذ لا يبقى معه جواز ارادة الأصل (١٩) .

ولهذا ترى الضربين مختلفين اختلافا جوهريا فى طريقة صياغة الفكرة والعبارة عنها ومن هنا كان من المتوقع أن يفرق بينهما وأن يكونا بابين مختلفين . ما دام بينهما فى طريقة الصياغة هذا القدر من الاختلاف وواضح أن ذلك يقال فيما بينها وبين صور المجاز المرسل أما بالنسبة الى التشبيه فالفرق بين صورته وهذه الصور واضح جدا .

فالتقسيم الذى جرى عليه القوم فى بحث البيان وأنه أقسام ثلاثة . التشبيه والمجاز والكناية ناظر الى طبيعة الدلالة وتنوعها ومتلائم معها فى ذلك تلاؤما واضحا وهذا يعنى غفلة بعض الباحثين الذين هاجموا أمثال هذه التقسيمات الأساسية . . . (٢٣) .

وإذا كان البلاغيون قد قسموا الكناية الى ثلاثة أقسام . كناية عن صفة وموصوف ونسبة . فسأعمد الى تراكيب الكناية فى الأودية المختلفة . القرآن الكريم والسنة المطهرة والشعر بالعرض والتحليل وبيان الخصائص الفنية والملاحج الجمالية ومن الميسور بعد ذلك التعرف على كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة من خلال صور الكناية .

(١٩) شروح التلخيص ٤/٢٣٨/٢٣٧ .

(٢٣) التصوير البيانى ٣٦٧ .

صور الكناية • عرض وتحليل :

تؤدي صور الكناية دورا هاما في تصوير المعانى ونقلها على وجه أبلغ وأندب للمقام اذ هي تبرز المعانى المجردة في صور محسوسة فترسم المعانى في أشكال وصور تراها العين فلا تشك النفس في وقوعها ولا تمارى في حدوثها • فيكون ذلك ادعى الى قبولها وأكد لديها سواء كان ذلك مدحا أو قدحا •

وهي ثوب ورداء تستتر فيه المعانى التي يتحرج المتكلم من التصريح بها لتعلقها بما يثير الغرائز كالحديث عن الجنس والمرأة • كما أنها تحرك الفكر وتبعث النفس على التأمل في المعنى المباشر نظاهر الكلام ثم المروق منه الى المراد عن طريق العلائق والصلات بين ظاهر الكلام والمعنى الكنائى المراد •

أولا : صور من كنايات القرآن الكريم :

لقد جمع القرآن صورا عديدة للكناية تضيق بسردها واستقصائها هذه السطور وحسبنا أن نشير الى بعضها •

ومعلوم أنه كتاب تشريع وأخلاق ومبادئ وتربية • وقد ساق الكثير من المعانى التي تعبر عن مواقف مستورة في قوالب كنائية • وكأنه يعلمنا بهذا النظم الحكيم وجوب التستر والحياء في الفعل والقول لهذه المواقف •

يقول الحق في آية الموضوع والتيمم : « أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء » يطلب من عباده المؤمنين الذين يقومون للصلاة أن يتطهروا من الحدثين الأصغر والأكبر • فكنى عن الأول بالمجىء من الغائط وعن الثانى باللامسة •

وقال : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هن لباسكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كتمت تخفون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باسروهن وابتغوا ما كتب الله لكم » •

نجد أن الآية تعالج موضوعا من أشد الموضوعات حساسية وهو اتصال الرجل بامرأته الحلال في وقت غير مباح كما يدل على ذلك سبب نزول الآية • فبيتعد النظم الحكيم عن إثارة الغرائز وتهيج النفوس وتجريح من وقع في الخطيئة وذلك بسرد هذه القوالب الكنائية المعبرة عن هذا الاتصال — الرفث الى نسائكم — وجاء التشبيه بعدها بمثابة الدليل المؤكد والعلّة الصحيحة على هذه الكناية — هن لباس لكم وأنتم لباس لهن — في الاثتمال والتصون والحفظ والنقاء وعلو القيمة وغير ذلك من معانى الجمال التى يتطلبها الانسان فى الثوب الأنيق وهكذا ينبغى أن تكون المرأة التى تكون موضع معاشرته ومباشرته •

وقوله : « تختانون أنفسكم » كناية عن الجماع المحرم ولذلك عبر عنه بالاختيان وهو تحرك شهوة الانسان لتحرى الخيانة والمعنى تنقصون أنفسكم تنقيصا تاما بتعريضها للعقاب وتنقيص حظها من الثواب ويؤول الى معنى الظلم (٢٤) •

فانظروا كيف خالف النظم الكريم بين ما هو حلال فكنى عنه بالرفث والمباشرة وابتغاء ما كتب الله وبين ما هو حرام فكنى عنه بخيانة النفس وهى تنفت فى المعنى المكنى عنه الخيانة والتنقيص والظلم بطريق مهذب وتثبته بصيغة المضارع وان كان الحدث ماضيا لاستحضار صورته لتزداد النفس نفرة منه وابتعادا عنه •

وعلى هذا النمط قوله تعالى : « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم » فهنا تشبيه بليغ وكناية عن الجماع ولكن يلاحظ أن التشبيه المتقدم كان باللباس وهنا بالحرث ولعل هذا الاختلاف يرجع الى الغرض المقصود من الآيتين •

فالآية الأولى كان الغرض منها تقرير حكم كان محرما عليهم فى وقت مخصوص وهو مباشرة النساء بعد النوم فى ليل رمضان ولكن كبار الصحابة وقعوا فى هذا المحذور • فأحله الله لهم بعد تحريمه كما يشعر

(٢٤) روح المعانى ٦٥/٢ •

بذلك لفظ — أحل لكم — ولما كان هذا الوقوع مستقبلاً منهم قبل الإباحة كنى عنه كذلك بلفظ يحمل معنى الفحش وهو الرفث فهو من رفث في كلامه وأرفث وترفث أفحش وأفصح بما يكنى عنه • كما قال : **« الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج »** ولما كان الغرض من التشريع هو البعد عن الوقوع في مثل هذا المحذور • نبه القرآن الى أن المرأة يجب أن تكون صونا لزوجها تقيه موارد الهلاك وبخاصة فيما يتصل بأمور دينه لا أن تكون عوناً للشيطان عليه ولذلك جعلها كاللباس لأن المقام مقام صيانة وتحفظ ووقاية •

وهذه الآية **« نساءكم حرث لكم »** والتي قبلها : **« ويسألونك عن المحيض قل هو أذى »** تتحدث عن مواصفات الأرض الطيبة الطاهرة التي يوجد فيها الزرع وينمو فيها البذر وعلى الانسان أن يسلك الطريق المستقيم الذي يرسمه الشرع وأن ينأى عن الانحرافات الشاذة في وضع بذوره في أرض لا تثبت ما يوضع فيها • طالما أن الهدف هو الانجاب وليس قضاء شهوة عاجلة ولذلك جاء التشبيه بالحرث الذي هو القاء البذر في الأرض وهو غير الزرع كما قال تعالى : **« أفرايتم ما تحرثون أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون »** وتشبيهن بتلك المواضع متفرع على تشبيه النطف بالبذور من حيث ان كلا منهما مادة لما يحصل منه ولا يحسن بدونه فهو تشبيه يكنى به عن تشبيه آخر (٢٥) •

وقد سبق هذا التشبيه وهذه الكناية بكناية معبرة عن السبيل الذي يسلكه الانسان في إتيان حرثه وهو قوله **« فأتوهن من حيث أمركم الله »** أي المكان الذي أمركم الله بتجنبه لعارض الأذى وهو الفرج •

والقرآن بذلك عبر عن الجماع بكنايات متعددة • الملامسة • المباشرة • التغشبية الرفث • الاختيان • إتيان الحرث • الافضاء • وكل صياغة لها المقام الذي اقتضاها وعبرت عن مغزاها فيه •

وقال تعالى : « ان الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون » • فالآية تقرر مصير هؤلاء الكافرين الذين تمادوا في الكفر والعناد وتكنى عن عدم توبتهم بعدم قبولها • وبذلك تتجاوز الكناية على أبلغ وجه من وجوه التحدى حدود الزمن الحاضر الى الزمن المستقبل وتقطع من منطلق علم الله الغيبي بأنهم مستمرين على الكفر ولن يتوبوا منه • ولذلك استحقوا هذه الاشارة المميزة لهم بهذا الضلال الذى قعد بهم عن طريق الحق والنجاة — وأولئك — وأكد هذه المعانى فيهم بالضمير — هم — ودخول الألف واللام على الخبر — الضالون — أى الكاملون فى الضلال • ولذلك توعدهم الله بهذه الكنايات الساخرة فى الدار الآخرة وهى قوله : (ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة) • فعدم التكليم كناية عن غضبه ونقمته عليهم • وعدم النظر كناية عن عدم العطف والرحمة كما يقول القائل : أنظر الى يريد ارحمنى أو كناية عن الاهمال وعدم الاعتداد •

(وجعله الزمخشرى مجازا عن الاستهانة بهم والسخط عليهم وفرق بين استعماله فيمن يجوز عليه النظر المفسر بتقليب الحدقة وفيمن لا يجوز عليه ذلك بأن أصله فيمن يجوز عليه كناية لأن من اعتد بالانسان التفت اليه وأعاره نظر عينيه ثم كثر حتى صار عبارة عن الاعتداد والاحسان وان لم يكن ثم نظر • ثم جاء فيمن لا يجوز عليه النظر مجردا لمعنى الاحسان مجازا عما وقع كناية عنه فيمن يجوز عليه النظر وفى الكشف ان فى هذا تصريحاً بأن الكناية يعتبر فيها صلوح ارادة الحقيقة وان لم ترد وأن الكنايات قد تشتهر حتى لا تبقى تلك الجهة ملحوظة وحينئذ تلحق بالمجاز ولا تجعل مجازا الا بعد الشهرة) (٢٦) •

وهذا من باب المجاز المبنى على كناية :

وفى تصوير الحائقين على الاسلام وأهله يبلغ القرآن الذروة العليا فى تصوير دواخلهم ونفوسهم المريضة عندما يرون اجتماع كلمة المؤمنين وائتلاف صفوفهم •

قال تعالى : « واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور » •

يصور ندمهم الأسيف العاجر بهذه الكناية المعبرة وهى عض الأنامل وترسم صورتهم فى خلوهم وكيفية اقبالهم على نفوسهم متحسرين وعضهم جوارحهم نادمين • وهو فعل المقتاظ النادم كما قال الشاعر :

فأقتل أقواما لئاما أذلة

يعضون من غيظ رؤوس الأباهم

وكانت هذه الكناية المفردة تصور فعلهم وكان الرد عليهم بتركيب أقوى يحمل كنايتين مزدوجتين وهو — موتوا بغيظكم — فليس المراد المعنى المباشر وهو مجرد الدعاء عليهم بالموت غيظا وانما المراد ملزومه وهو الدعاء عليهم بزيادة الغيظ ودوامه حتى يهلكوا وهذه الكناية الأولى ويلزم عنها تضاعف قوة الاسلام وعز أهله وارتفاع شأنه وهذه هى الكناية الثانية • فهذا التركيب من باب الكناية المبنية على كناية أخرى •

وفى القرآن كنايات عديدة معبرة أصدق تعبير عن شدة الندم والحسرة والألم النفسى الذى ينخلع على الجوارح فتتحرك حركة خاصة ترسم الكناية صورتها وتجسد هذه المعنويات حتى تبدو من خلال التصوير شاخصة أمام العين كما فى قوله تعالى : « فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها » • وقوله : « ولما سقط فى أيديهم » •

وأنظر الى كنايات الشدة وكيف عبر عنها القرآن وبخاصة فى تلك الغزوات التى أحاط العدو فيها بالمسلمين مثل غزوة الأحزاب كما قال تعالى : « اذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هناك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا » •

نجد أن الآية ترسم صورة الشدة رسما دقيقا ويترقى أسلوبها مصورا بداية مجيء الأعداء الذين أحاطوا بالمسلمين فكنى عن هذه الاحاطة بهذا التعبير المكنى — من فوقكم ومن أسفل منكم كما فى قوله تعالى : « يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم » •

وكان هذا هو السبب الأول لمصدر الشدة ثم انتقل التصوير الى بيان موقف المسلمين • فقد زاغت منهم الأبصار وتقلبت منهم المهاجر ومالت عن السنن المعتدل وانحرفت عن طبيعتها وكأنها كانت كالمؤشر الذى يشير الى علو درجات الشدة والحيرة وكانت كلمة — زاغت — دقيقة وعميقة فى بيان درجة الفزع الذى تغشى القوم • اذ أن مادتها — زيغ — تدور حول الميل والكلال •

وبعد تصوير الشدة من خلال هذه الجوارح المرئية نفذ التصوير الى حيث يكون اللب والرعب أى الى القلب ولكنه لم يكن أسعد حالاً من الابصار • فقد بلغ الحناجر • وهذه أقسى مرحلة يصل اليها الخائف الفزع الذى يعتصره الخوف ويؤلمه الوجع وكأن لم يكن بينه وبين الموت سوى ثوان معدودة •

ولذلك جاء هذا التركيب لتصوير الخوف الرابع يوم انقيامة كما فى قوله تعالى **يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار** • وقوله : **« أنذرهم يوم الأزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين »** •

ثم يجيء الفعل المضارع — وتظنون — لينقل صورة هذه الشدائد ويعكس الواقع الأليم الذى عايشه المسلمون فى هذه المعركة ويستحضرها • لتكون عظة مستمرة فيتذكروا نعمة ربهم بالنجاة والنصر وكان الله على كل شىء قديراً •

ويأتى ظرف المكان — هنالك — لينقل صورة المكان والزمان لهذه الأحداث وهو حقيقة فى المكان مجاز فى الزمان •

ثم كانت النهاية المركزة لهذا الاضطراب الشديد فى هذه الاستعارة — وزلزلوا — الدالة على أنها شدة واضطراب تميد به الأرض وتنشق عنه الجبال وهذه محصلة حتمية لما تقدم من شدة الفزع وكثرة الأعداء المحيطين •

ويظهر أثر الكناية الجميل فى تلك المجادلات بين الرسل وأقوامهم فيتخذها الرسول أداة رد على أبلغ ما يكون الرد وأقواه دون مصارحة للأقوام بالرد الجارح أو بما يثير حفيظتهم عليه •

فنوح عليه السلام يطلب من قومه أن يعبدوا الله وحده
فيقولون له « انا لنراك في ضلال مبين قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني
رسول من رب العالمين » •

فقد خالف النظم الكريم بين مقولتهم في اثبات الضلال له وبين
جوابه في نفي الضلال عن نفسه • فالقوم لعنادهم وتجبرهم كشفوا
عن نظرهم له فهو في ضلال مثبس به وواقع في داخله لا ينفك عنه كما
تشير الى ذلك الاستعارة الحرفية — في ضلال — التي جسدت معنى
الضلال حتى كأنه ظرف احتوى نوحا في داخله وتلك صراحة الحمقى •

ولكن أنظر كيف أجابهم نوح في أدب جم وعلى وجه لا يقلقهم بهذا
الأسلوب الكنائى — ليس بي ضلالة — أى ليس بي ضلالة واحدة فضلا
عن ضلالاتكم المتعددة • فنفى عن نفسه الضلال ونسب اليهم الكذب
من حيث نفي الضلال عن نفسه •

وعلى شاكلته قول عاد لهود انا لنراك في سفاهة وانا لنظنك
من الكاذبين قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين «
(فكنى عن كذبهم بعبارة لا تثثيرهم ولا تزيد الهوة اتساعا بينه وبينهم
فذلك من أدب المرسل ومن منهج الدعاة) (٢٧) •

وهاتان الكنيتان من باب الكناية عن النسبة •

وفي تصوير أصحاب الفييل في قوله تعالى : « فجعلهم كعصف
ماكول » • نجد أنه يشبههم بورق الزرع الذي أكله الدود أو التبن الذى
أكلته الدواب وراثته ولكن هدف التشبيه لا يقف عند حد هذا المعنى
بل يرمى الى معنى آخر يلزم عنه وهو امتهان آدميتهم وحقارة شأنهم
وذهاب أوراحهم وكونهم مبتدلين ضائعين لا ينظر اليهم أحدا فهو من
باب الكناية المبنية على تشبيهه • قال الزمخشري (جاء على ما عليه آداب
القرآن كقوله : « كانا يأكلان الطعام » (٢٨) •

• (٢٧) من بدائع النظم القرآنى ٧٧

• (٢٨) الكشف ٢٨٦/٤

ثانياً : صور من كفايات السنة المطهرة :

وقد حفلت السنة المطهرة بكثير من الكفايات التي نهجت نهج القرآن الكريم في التعبير عما يستقبح ذكره وذلك فيما يتصل بالأمور الشرعية التي لا بد من أن يعرض لها الرسول ﷺ باعتبارها المعلم الأول للرسالة الخالدة .

كما في قوله : (اذا جلس بين شعبها الأربع ثم أجهدها فقد وجب الغسل) .

فهو عليه الصلاة والسلام يعلم أمته الطهارة والترفع عن القذارة لأنها بثست الشارة . فيوجب الغسل على من جلس من امرأته هذا المجلس كما يعلمنا بأن نربأ بأنفسنا عن مواطن الإثارة وأن نسلك سبيل التلميح والتكنية في الأحاديث المتصلة بالجنس وهذا من أدب الكلمة والسلوك في الاسلام . أما أن يكشف الجنس نفسه عن ساقه بهذا العري الفاضح والتبذل المثين فهذه هي الفواقر المبيدة .

فكنى عن الجماع بالجلوس بين شعبها الأربع والمراد بها يداها ورجلاها أو رجلاها وفخذاها على خلاف في ذلك .

ثم كنى عن معالجة الايلاج بقوله (ثم أجهدها) . جهد وأجهد أى بلغ المشقة قيل معناه كدها بحركته (٢٩) .

وأحياناً كان يمنعه حياؤه عليه الصلاة والسلام من التصريح أو التكنية كما في موقفه من المرأة التي سألته عن كيفية الغسل من الحيض فقال لها . خذى فرصة فتطهري بها . قالت . كيف أتطهر بها . قال : تطهري بها . قالت : كيف ؟ قال : سبحان الله تطهري . تقول السيدة عائشة : فاجتذبتني الى فقلت تتبعي بها أثر الدم . فالمراد بأثر الدم كما قال النووي (الفرج) فكنت عائشة بأثر الدم عنه وقد جعل ابن حجر من فوائد هذا الحديث . استحباب الكفايات فيما يتعلق بالعورات (٣٠) .

• (٢٩) ينظر فتح الباري ٢/٢٠٥ .

• (٣٠) المرجع السابق ٢/٢٣١ .

وقال عليه الصلاة والسلام (أغبط الناس عندي مؤمن خفيف
الحاذ ذو حظ من صلاة) •

فعلى القول بأن خفة الحاذ هي قلة لحم باطنى أو ظاهرى الفخذين
فان الكلام يكون كناية عن مدح المؤمن الذمى يجد في عدوه ويسرع في
خطوه تحقيقا للأعمال الصالحة وبلوغ الدرجة العالية والمراقى الكاملة
في الاحسان حتى يكون أغبط الناس عند الرسول (لأن الدنيا
بمنزلة المضمار والناس فيها بمنزلة الخيل المجراه والغاية هي الآخرة
فكلما كان الواحد منهم أخف نهضا وامتراقا كان أسرع بلوغا ولحاقا
ويبين ذلك قول أمير المؤمنين على عليه السلام في كلام له تخففوا
تلحقوا ••

وعلى القول بأن الحاذ هو المتن من الانسان فيجوز أن يكون كناية
عن قلة العيال ونزارة المال كما يقولون • فلان خفيف الظهر اذا أرادوا
هذا المعنى (٣١) •

وقال عليه السلام في شأن شريح الحضري (ذاك رجل لا يتوسد
القرآن) •

وهو من الكنايات الغريبة التي تحتل معنيين • أحدهما • مدح
والآخر ذم •

فالمدح أن يكون المراد به لا ينام عن قراءة القرآن بل يقطع ليله
بالتهجّد مع تلاوته وملازمته كأنه جعله وسادا لخدمه وفراشا لجنبه كما
ورد في الحديث الآخر : (يا أهل القرآن لا توسدوا القرآن واتلوه حق
تلاوته) •

وأما الذم فعلى معنى أنه غير حافظ للقرآن فليس بخازن من خزنته
ولا وعاء من أوعيته فليس هناك ملازمة بينهما (٣٢) •

كذلك الوصف بالألوان من نحو الغبرة والحمرة لها أثر في التعبير
الكنائى كما في قوله عليه الصلاة والسلام (لو يعلمون ما يكون في

(٣١) المجازات النبوية ٤١ بتصرف •

(٣٢) المرجع السابق ٤٢ بتصرف •

هذه الأمة من الجوع الأغبر والموت الأحمر . .) فوصف الجوع بالغبرة على عادة العرب في وصف أيام الشدة والسنين المجدبة بالاغبرار لاغبرار آفاقها وقلّة أمطارها وقحولة أعشابها وشجرها كما قال الشاعر :

أغر يبارى الريح في كل شدة

إذا اغبر أقدام الرجال المحل

كما وصف الموت بالحمرة كناية عن شدة البأس أو كثرة الدماء (وهذه طريقة للعرب في وصف اليوم العماس — الشديد والأسود المكفهر — واشتداد البأس بالحمرة • فكما يقولون يوم أحمر يقولون موت أحمر • قال الشاعر في صفة الأسد :

إذا علقت أظفاره في فريسة

رأى الموت في عينيه أحمر أسودا (٣٣)

كذلك في وصف الأخلاق بالبياض كناية عن الحسن في قوله ﷺ : (تزوجوا الشواب فانهن أغر أخلاقا) كما أن السواد في قولهم فلان أسود الخلق عبارة عن القبح فكأنه عليه الصلاة والسلام قال فانهن أحسن خلقا كما أن الغر من الخيل أحسن خلقا) (٣٤) •

ولماذا نزل قوله تعالى : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط

الأبيض من الخيط الأسود من افجر . . » قال عدى بن حاتم — عمدت الى عقالين أبيض وأسود فجعلتهما تحت وسادتي فكنت أقوم من الليل فأنظر اليهما فلا يتبين لى الأبيض من الأسود فلما أصبحت غدوت الى رسول الله ﷺ فأخبرته فضحك وقال • إن كان وسادك لعريضا وروى انك لعريض القفا انما ذاك بياض النهار وسواد الليل •

قال الزمخشري — عرض رسول الله ﷺ قفاه لأنه مما يستدل به على بلاهة الرجل وقلّة فطنته وأنشدتني بعض الدويبات :

(٣٣) المرجع السابق ٥٨ •

(٣٤) المرجع السابق ٢٠٨ •

عريض القفا ميزانه في شماله

قد انحص من حسب القراريط شاربه (٣٥)

فقول النبي عنه انه (عريض الوسادة) وعريض القفا (كنايةتان عن البله ولكن دلالة التركيب الأول عليه بواسطة اذ ينتقل من عرض • الوسادة الى عرض القفا ثم الى المقصود وهو البله وقد سموا هذا النوع بالكناية البعيدة وهي ما ينتقل منها الى المطلوب بواسطة

بينما ينتقل من عرض القفا الى البله بلا واسطة وهو ما يسمى بالكناية القريبة وهي ما ينتقل منها الى المطلوب بلا واسطة وهي اما واضحة كقولهم • طويل النجاد • كناية عن طول القامة •

واما خفية مثل — عريض القفا — فهي خفية باعتبار الفهم وقريبة باعتبار نفى الوسائط •

وقد جعل السكاكي التركيب الأول — عريض الوسادة — من القريبة على أنه كناية عن عرض القفا ولكن الخطيب يجعله محل نظر ووجه النظر لو كان كناية عن عرض القفا لكان هو المقصود فلا يكون كناية عن البله والغرض خلافه والحق أنه يصح أن يكون مثالا لهما • فان قصد الكناية عن البله فهو مثال للبعيدة أو الكناية عن عرض القفا فهو كناية قريبة (٣٦) •

والبيت السابق فيه ثلاث كنايات من النوع القريب الخفى • كلها تتأذر في رسم صورة كاملة لهذا الموصوف وقد تواردت بلا عاطف اشارة الى توحيدها في هذا الشخص وأن الأولى منها كانت مقدمة للثانية والثالثة ناتجة عن الثانية • فالبله سبب في عدم الضبط والاحكام — ميزانه في شماله — ونشأ عنه — الانشغال بتوافه الأمور قد انحص من حسب القراريط شاربه —

(٣٥) الكشف ١/٣٣٩ •

(٣٦) شروح التلخيص ٤/٢٥٧ •

ثالثا : صور من كنايات الشعراء :

ضرب الشعراء بسهم وافر في تمثيل أسلوب الكناية كطريق من طرق الابانة عما في نفوسهم وتصوير أحوالهم في حلهم وترحالهم وقد جمع أحمد الجرجاني (٤٨٢ ت) قدرا كبيرا من كناياتهم المختلفة في كتابه — (المنتخب من كنايات الأدباء واشارات البلغاء) — منها المقبول ومنها ما يستحق القلم من ذكرها • كما أن العلماء الذين تناولوها بالدراسة قد أشاروا الى صور شعرية كثيرة سلك أصحابها طريق الكناية في تصويرها • مثل قدامة وابن رشيق وعبد القاهر •

وقد تميزت طريقة عبد القاهر بالعرض والتحليل والموازنة القائمة على التذوق والاحساس بالتعبير •

وقد كانت الكناية عن الصفة من أشيع الكنايات في شعرهم فقد كنوا عن كرمهم بتركيب متعددة منها قول الشاعر :

ومايك في من عيب فانى

جبان الكلب مهزول الفصيل

فقد أراد — أن يذكر نفسه بالقرى والضيافة فكنى عن ذلك بجبن الكلب وهزال الفصيل وترك أن يصرح فيقول • قد عرف أن جنابى مألوف وكلبى مؤدب لا يهر في وجوه من يغشانى من الأضياف وانى أنحر المتالى من ابلى وأدع فصالها هزلى (٣٧) •

ومثل جبن الكلب وهزال الفصيل • كثير الرماد وواسع الجفنة وبسوط اليبدين وكثير القصاع • فكلها كنايات تفضى الى معنى الكرم ولكن الصور مختلفة •

فجبن الكلب يدل على الكرم من حيث انه قد زجر عن الهرير في وجوه الضيفان فسكنت ثورته وألف الوفود فجبن عن الهرير والنباح وهزال الفصيل دل على الكرم من حيث ان صاحبه قد قصد الى أمه فنحراها جودا وأريحية •

وكثرة الرماد دلت على الكرم من خلال هذه المخلفات الناجمة عن
كثرة الاحراق اللازم لكثرة الطبخائع السدال على كثرة الأكل وكثرة
الضيغان *

وبسط اليديين يدل على العطاء الوفير * وكثرة القصاع واتساع
الجفان وهما من أواني الطعام تدل على الجود العزيز * وهكذا يبرز
معنى الكرم من خلال هذه الصور المتعددة * وهي تقترب وتبتعد حسب
تسلسلها في مفهوم الشعراء * قال عبد القاهر (أنك تنظر الى قوله :
جبان الكلب — فتعلم أنه نظير لقوله — زجرت كلابي أن يهر عقورها —
من حيث لم يكن ذلك الجبن الا لأن دام فيه الزجر واستمر حتى أخرج
الكلب بذلك عما هو عادته من الهرير والنبج في وجهه من يدنو منه من
دار هو مرصد لأن يعس دونها وتتنظر الى قوله — مهزول الفصيل —
فتعلم أنه نظير قول ابن هرمة — لا أمتع العوذ بالفصال — وتتنظر الى قول
نصيب :

لعبد العزيز على قومه

وغيرهم ممن ظاهرة

فبابك أسهل أبوابهم

ودارك مأهولة عامرة

وكلبك آنس بالزائرين

من الأم بالابنة الزائرة

فتعلم أنه من قول الآخر :

يكاد اذا ما أبصر الضيف مقبلا

يكلمه من حبه وهو أعجم

وأن بينهما قرابة شديدة ونسبا لاصقا (٣٨) *

فهذه الأحوال المختلفة للكلب والتي تبدأ بزجره عن الهرير ثم جنبه
ثم الفه الضيفان ثم أنسه بالزائرين ثم كونه يكاد يكلمهم من حبه

وهو أعجم انما هي حلقات في سلسلة رسمها (الشعراء صعدا في باب
الدلالة فصارت أو اخر صورها أبعد من أوائلها ولكنها تقترب أكثر اذا
قورنت بصورة — هزال الفصيل — لأن كل واحدة من هاتيك الكنايتين
— جبن الكلب وهزال الفصيل أصل بنفسه وجنس على حده كما يقول
عبد القاهر وكذلك قول ابن هرمة :

لا أمتع العـوذ بالفصال

ولا أبتاع الاقربىة الأجل

ليس احدى كنايته في حكم النظير للآخرى وان كان المكنى عنه
بهما واحدا فاعرفه (٣٩) •

كذلك استغل الشعراء العصا في التعبير عن كنايات مختلفة فيقال :
(ألقى فلان عصاه اذا أقام واستقر • قال الشاعر :

فألقت عصاها واستقر بها النوى

كما قر عينا بالاياب المسافر

وقال زهير :

فلما وردنا الماء زرقا جماه

وضعنا عصى الحاضر المتخيم

ويقال طارت عصى بنى فلان شققا اذا تباغضوا (٤٠) •

وشق العصا كناية عن تفريق الأمر وتشتيت الجمع •

قال الراعى :

فتشقت من بعد ذلك عصاهم

شققا وغودر جمعهم مفلولا

ومنه قوله ﷺ : (من أتاكم وأمركم جمع يريد أن يشق عصاكم

ويفرق جماعتكم فاقتلوه) •

(٣٩) دلائل الاعجاز ٣٠١ والتصوير البيانى ٣٨٢ •

(٤٠) المنتخب ١٤٢ •

(ويجوز أن يكون لشق العصا وجه آخر وهو أن يريد به فل شوكتهم وإيهان قوتهم لأن العصا لصاحبها قوة يدفع بها وبسطة يعول عليها (٤١) .

وقوله عليه الصلاة والسلام (لا ترفع عصاك عن أهلك) .

المراد لا ترفع التأديب عنهم ولا تغب التقويم لهم فكفى عن ذلك بالعصا حملا للكلام على عرف العرب لأن المتعارف بينها أن التأديب في الأكثر لا يكون الا بقرع العصا . . .

ويقال للرجل اذا كان دقيق السيرة جميل الايالة — الرياسة — انه للين العصا . قال معن بن أوس المزني .

عليه شريب وادع لين العصا

يساجلها جماته وتساجله (٤٢)

وقال الشاعر :

ضعيف العصا بادي العروق ترى له

عليها اذا ما أجذب الناس اصبعا

قال عبد القاهر : وأنشد شيخنا رحمه الله مع هذا البيت قول

الآخر :

صلب العصا بالضرب قد دماها

أى جعلها كالدمى في الحسن . وكان قوله — صلب العصا — وان كان ضد قول الآخر — ضعيف العصا — فانما يرجعان الى غرض واحد هو حسن الرعية والعمل بما يصلحها ويحسن أثره عليها . فأراد الأول بجعله — ضعيف العصا — أنه رفيق بها مشفق عليها لا يقصد من حمل العصا أن يوجعها بالضرب من غير فائدة فهو يتخير ما لان من العصى وأراد الثاني أنه جيد الضبط لها عارف بسياستها في الرعى يزرعها عن المراعى التي لا تحمد ويتوخى بها ما تسمن عليه ويتضمن

(٤١) المجازات النبوية ١١٨ .

(٤٢) المرجع السابق ٢٠٢/٢٠٣ .

أيضا أنه يمنعها عن التشرذم والتبدد وأنها لما عرفت من شدة شكيمته وقوة عزيمته تتساق وتستوثق في الجهة التي يريدتها من غير أن يجد لها في كل حال ضربا (٤٣) •

كما كنوا عن الهرم والعجز بالمشى على العصا قال الشاعر :
مشيت على العصا وحنون ظهري

وودعت المـوارك والزماما

فهو يصور ما آل إليه حاله بعد سهره الليل ومراقبته النجوم ومكابدته إلهوم وذهاب شبابه وانحناء ظهره فعبر عن عجزه وهرمه بالمشى على العصا •

وكنى عن المحاربة بوضع عصا الحرب كقوله :

لئن وضعت قيس وخنديق بينها

عصا الحرب ما أوجفت فيها مع الركاب

يقول : ان الأخطل لا طاقة له ولا صبر على معالجة الحرب اذا

ما عزمت قيس وخنديق على المحاربة بوضع عصا الحرب بينهما (٤٤) •

كذلك استغل الشعراء الألوان المختلفة في التعبير الكنائى •

قال المتنبي :

قالت وقد رأت اصفرارى من به

وتتهدت فأجبتها المتنهد

فمضت وقد صبغ انحياء بياضها

لونى كما صبغ اللجين العسجد

فهو يعبر عن شعوره الداخلى تجاه التى سفكت دمه بجفونها
وأن وجد الفراق وألم البعد قد غمره بالاصفرار وهى تتساءل عن سببها
من به ؟ وتتهدت فأجابها بأنها هى التى كانت سببا فى هذه الصفرة

(٤٣) أسرار البلاغة ٢/ ٢٢٢ •

(٤٤) التصوير البياني ٣٧٦ للمؤلف •

الناجمة عن وجده لفراقها • فكنى بصفرة لونه عن تلك الآلام النفسية
التي يعانيتها من الخوف والبعد •

وقوله (صبغ الحياء بياضها لوني) أى أحال الحياء بياضها الى
صفرة والحياء يحمر اللون ولا يصفره ولكن لما كان حياؤها مشوبا
بالخوف صبغها بالصفرة ولذلك قال الواحدى — ان الحياء لا يصفر
اللون بل يحمره ولكن هذا الحياء كان مختلطاً بالخوف لأنها خافت
الفضيحة على نفسها أو خافت أن يسمع الرقيب هذا الكلام أو خافت أن
تطالب بدمه فاستشعارها خوف ما جنت من القتل غلب سلطان الحياء
فأورث صفرة (٤٥) •

وفى قوله :

متى لحظت بياض الشيب عيني

فقد وجدته منها في السواد

فهو يعبر عن كراهيته الشديدة لابيض الشيب ونفوره منه فيجعل
هذا البياض كأنه في سواد العين • مبالغة في هذه الكراهية لأن
ايضاض العين كناية عن العمى كما قال تعالى عن يعقوب (**وابيضت**
عيناه من الحزن فهو كظيم) •

وقال أبو تمام :

تردى ثياب الموت حمرا فما أتى

لها الليل الا وهى من سندس خضر

فقد دبح الشاعر هذا المعنى بطريق الكناية تعبيرا عن موقف
المرثى في ساحة القتال حيث القتل والتلطح بالدماء — تردى ثياب الموت
حمرا — وما ان أتى الليل الا وقد تحولت هذه الثياب القانية الى أثواب
سندسية خضراء كناية عن الشهادة ودخول الجنة •

وقال ابن حيوس :

طالما قنت للمسائل عنكم

واعتمادى هداية الضلال

ان ترد علم حالهم عن يقين

فالقهم يوم نائل أو نزال

تلق بيض الوجوه سود مثار

النقع خضر الأكناف حمر النصال

فقوله : بيض الوجوه — كناية عن كرمهم وخصوبة عيشهم
وتنعمهم و — سود مثار النقع — خضر الأكناف — حمر النصال — كناية
عن شجاعتهم وبسالتهم في الحروب •

وقال الحريري : (فمذا زور المحبوب الأصفر واغبر العيش الأخضر
أسود يومى الأبيض وبيض فودى الأسود حتى رثى لى العدو الأزرق
فيا حبذا الموت الأحمر) •

وصف العيش بالاخضرار كناية عن طيبه ونعومته وكماله لأن
اخضرار العود والنبات يدل على طيبه ونعومته وكونه على أكمل حال
فيكنى به عن لازمه في الجملة الذى هو الطيب والحسن والكمال •

والاغبرار كناية عن ضيق العيش ونقصانه وكونه في حال التلف
لأن اغبرار النبات والمكان يدل على الذبول والتغير والراثثة فيكنى به
عن معنى هذا اللازم ••

واسوداد اليوم كناية عن ضيق الحال وكثرة المهوم لأن اسوداد
الزمان كالليل يناسب المهوم ووصفه بالبياض كناية عن سعة الحال
والفرح لأن بياض النهار يلبس ذلك •

وابيض فودى الأسود — الفود هو شعر جانب الرأس مما يلي
الأذن وبيضاض الفود كناية عن ضعف بنيته ووهنه من كثرة الحزن
والهم •

(م ١٧ — التصوير المجازى والكنائى)

ووصف العدو بالزرفة كناية عن شدة العداوة لأن أشهر
الناس بالعداوة وأشدهم فيها للمسلمين الروم وأكثرهم زرق الأعين
فاشتهر وصفهم بالعداوة مع زرقة أعينهم حتى صار كناية عن كل عدو
شديد العداوة •

ووصف الموت بالاحمرار كناية عن شدته أو أراد بالموت الأحمر
القتل •

وأما وصف المحبوب بالاصفرار فمن باب التورية (٤٦) •
وقد ترمى الكناية الى معنيين كما في قول المتنبي يمدح كافورا •
لقد شب في هذا الزمان كهونه

لديك وثابت عند غيرك مـردده

فكون الكهول يصيرون شبابا اما أن يكون كناية عما يجدونه من رغد
العيش وبشاشة الحياة ونور العدل • وهذا مدح واما أن يكون كناية عن
الظلم والاحتقار والذل حتى صاروا كالصبيان وهذا هجاء •

وكون الشباب يصيرون شييا اما أن يكون كناية عن اليأس والظلم
والحياة المكفهرة التي يلاقونها عند غير المدح فيكون مدحا له •

وقال ابن جنى : هذا تعريض بسيف الدولة أى صاروا عند
غيرك بظلمه وسوء سيرته شييا (٤٧) •

واما أن يكون كناية عما يجدونه من التوقير والاحترام شأنهم
في ذلك شأن الشيب فيكون هجاء لكافور •

وهذا من ابداع المتنبي في كنياته • فالكناية انواحدة لها أكثر من
دلالة وكما تكون احدى ادلالتين مدحا تكون الأخرى هجاء •

ومن كنياته المبنية على المجاز والمبالغة قوله يمدح الحسين بن

على :

(٤٦) ينظر شروح التلخيص ٢٩٢/٤ وما بعدها بتصرف •

(٤٧) ينظر ديوان المتنبي ١٢٦/٢ •

أرى القمر بن الشمس قد لبس العلا

رويدك حتى يلبس الشعر الخد

فقد جعله قمرا وأباه شمسا وقد لبس من العلا والشهرة ثوبا •
ويطلب اليه أن يتمهل في ابتناء المعالي لأنه لما يبلغ مرحلة الرجولة بعد
فقوله — حتى يلبس الشعر الخد — كناية عن الصفر • والتعبير عن
انبثاق الشعر في الخد باللباس استعارة حسنة ولعله شاكل به قوله
— لبس العلا — والصورة ملفوفة بثوب المبالغة لأنه اذا وصل الى
هذه المنزلة الفائقة في حال الصفر فان منزلته في حال الرجولة لا يحيط
بها الوصف ولا يصورها تعبير •

وقد ينزع الشعراء الى منزع آخر في اثبات الصفة وهو ما يعبر
عنه بالكناية عن النسبة ويشرح عبد القاهر هذا المنهج بقوله — أنهم
يرومون وصف الرجل ومدحه واثبات معنى من المعانى الشريفة له فيدعون
التصريح بذلك ويكونون عن جعلها فيه بجعلها في شئ يشتمل عليه
ويتلبس به ويتوصلون في الجملة الى ما أرادوا من الاثبات لا من الجهة
الظاهرة المعروفة بل من طريق يخفى ومسلك يدق ومثاله قول زياد
،لأعجم •

ان السماحة والمروءة والندى

في قبلة ضربت على ابن الحشر

أراد كمالاته يخفى أن يثبت هذه المعانى والأوصاف خلالا للمدوح
وضرائب فيه فترك أن يصرح فيقول • ان السماحة والمروءة والندى
لمجموعة في ابن الحشر أو مقصورة عليه أو مختصة به وما شاكل
ذلك مما هو صريح في اثبات الأوصاف للمذكورين بها وعدل الى ما ترى
من الكناية والتلويح فجعل كونها في القبلة المضروبة عليه عبارة عن
كونها فيه وإشارة اليه فخرج كلامه بذلك الى ما خرج اليه من الجزالة
وظهر فيه ما أنت ترى من الفخامة ولو أنه أسقط هذه الواسطة من البين
لما كان الاكلاما غفلا وحديثا ساذجا (٤٨) •

ونظيره قول يزيد يمدح يزيد بن المهلب :
أصبح في قيدك السماحة والمجـ

د وفضل الصـلاح والحسب

ومما هو في حكم المناسب لببيت زياد وأمثاله التي ذكرت وان كان
قد خرج في صورة أغرب وأبدع قول حسان رضى الله عنه :

بنى المجد بيتنا فاستقرت عماده

علينا فأعى الناس أن يتحـولا

وقول البحتري :

أو ما رأيت المجد ألقى رحله

في آل طلحة ثم لم يتحـول

ذاك لأن مدار الأمر على أنه جعل المجد والمدوح في مكان وجعله

يكون حيث يكون (٤٩) •

وأما الكناية عن الموصوف فمثل كنايتهم عن الناس بالشجر كقول

المسيب بن على :

دعا شجر الأرض داعيهم

لينصره السدر والأثاب

ويقولون في الكلام المنشور • جاء فلان بالشوك والشجر • اذا

جاء بجيش عظيم •

وكنوا عن المرأة بالثساء والناقاة والسرحة والنخلة •

قال عنتره :

يا ثساء ما قنص لن حلت له

حرمت على وليتهـا لم تحرم

ويبين ابن رشييق الوجه في كنايتهم عن المرأة بالنعجة فيقول :

والعرب تجعل المهامة ثساء لأنها عندهم ضائنة الأطباء ولذلك يسمونها

نعجة وعلى هذا المتعارف فى الكناية جاء قول الله عز وجل فى اخباره عن
خصم داود عليه السلام — ان هذا أخى نه تسع وتسعون نعجة —
كناية بالنعجة عن المرأة (٥٠) •

— فليس الذى سوغه هو التأنيث والولادة — كما زعم ابن الأثير —
لأن ذلك يجيز الكناية عنها بكل مؤنث من حية ولبؤة وغيرها وانما هناك
شئ آخر هو أنهم شهبوا المرأة بالمهارة أى البقرة الوحشية
واستعاروها لها وهذا كثير ثم انهم يطلقون على المهارة شاة (٥١) •

وروى ابن قتبية أن رجلا كتب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

ألا أبلغ أبا حفص رســــولا

فدى لك من أخى ثقة ازارى

قلائصنا هــــداك الله انــــا

شغلنا عنكم زمن الحصار

فما قلص وجدن معقــــلات

قفا ســــلع بمختلف النجار

يعقلن جمعــــد شــــيظمى

وبئس معقل الذود انظــــوار

وانما كنى بالقلص — وهى النوق الشواب — عن النساء
وعرض برجل يقال له — جمعدة — كان يخالف الى المعيبات من النساء
ففهم عمر ما أراد وجلد جمعدة ونفاه (٥٢) •

وقال حميد بن ثور :

تجرم أهلوها لأن كنت مشعرا

جنونا بها يا طول هذا التجرم

• (٥٠) العمدة ١/٣١٢

• (٥١) التصوير البيانى ٤١٣

• (٥٢) العمدة ١/٣١٢/٣١٣

ومالى من ذنب اليهم علمت به
سوى أننى قد قلت يا سرحة اسلمى

بلى فاسلمى ثم اسلمى ثمت اسلمى

ثلاث تحييات وان لم تكلمى

فكنى بالسرحة عن المرأة والسرحة الدوحة العظيمة التى يأوى الناس
الى ظلها • وأحسنها ما نبت على الماء ولذلك عدوا من أحسن الكنايات
قول الشاعر :

يا سرحة الماء قد سدت موارد

أما اليك طريق غير مسدود

وقد فشا هذا النوع من الكناية فى عهد عمر بن الخطاب • فيذكرون
أنه أو غيره من الخلفاء قد حظر على الشعراء ذكر النساء فكانوا
يتوصلون اليهن بهذه الكنايات (٥٣) •

وكنوا عنها بالنخلة قال الشاعر :

ألا يا نخلة من ذات عرق

عليك ورحمة الله السلام

وذلك • كناية عن طولها واعتدال قامتها وحلاوة جناها • وهذه
الأوصاف وان كانت يمكن أن تكون أساسا لعلاقة المشابهة ويكون
التعبير من باب الاستعارة الا أن الدلالة لم تقم على هذه العلاقة لأنها
صارت ملغية فى الاستعمال وانما الذى سوغ ذلك الأساس العرفى
اذ أن الشعراء انما لجأوا الى ذلك لأنهم لم يستطيعوا التصريح
بالاسم • فالهروب من التصريح بالاسم هو الذى جعلهم يقصدون الى
أسلوب الكناية (٥٤) •

وكنوا عن القلب بموطن اللب والرعب والحقده كما فى قول البحتري

فى قصيدته التى يذكر فيها قتله للذئب •

• (٥٣) المرجع السابق •

• (٥٤) التصوير البيانى ٤١١ بتصرف •

فأتبعتهما أخرى فأضللت نصلها

بحيث يكون اللب والرعب والحقد

وبمجامع الأضغان كما في قول عمرو بن معد يكرب :

الضارين بكل أبيض مخدم

والطاعنين مجامع الأضغان

ومعلوم أن هناك دقة بالغة في التعبير عن القلب بهذه الأوصاف ككشف عنها الدكتور بسيوني بقوله (لأن ايقاع الطعن فيها دليل صدق الانفعال وجماع الاحساس بأطراف الموقف وما يجب في علاجه فأبو عبادة يريد أولاً أن يفسد على الذئب قوته وصحة عزمه فكان قصده الى اللب الذي هو موطن الحزم والقوة ثم انه خشي انقضاض الذئب عليه انقضاض الوحش المرعوب الذي يدافع عن نفسه بفعل الطبيعة فيهجم على كل من يعترضه ليخلص نفسه • فقصد البحترى الى موطن اللب والرعب ولم يكن البحترى بعد هذه الجولة الحامية ليقف عند هذا الحد بل الغرض الأساسي والغاية النهائية له أن يصيب مكن الحقد ويقضى عليه في هذا الذئب وبذلك يشفى غليله ويرضى دوافع الانتقام منه •

وهذا عينه ما قصد اليه عمرو بن معد يكرب عندما خصص الضرب والطعن بمجامع الأضغان فلو كانت انغاية مجرد اصابة القتل لكانت الرقاب والرؤس أولى ولو كان المقصود مجرد قلب لكان مجمع الحب والعطف كاف فيه وانما المقصود فيه والذي استحق بسببه الضرب والطعن أنه مجمع الأضغان وأنه موطن اللب والرعب والحقد في الخصم (٥٥) •

وبعد هذه الجولة المتواضعة مع صور الكناية يتحصل لنا مما سبق أن الكناية يمكن أن تكون مستقلة عن غيرها من صور البيان الأخرى فتدل على صفة أو نسبة أو موصوف ويمكن أن تجامع صور البيان الأخرى • فتظهر في هذه الصور :

- ١ — الكناية المبنية على تشبيهه •
- ٢ — الكناية المبنية على مجاز •
- ٣ — الكناية المبنية على كناية •
- ٤ — المجاز المبنى على كناية •
- ٥ — الكناية ذات الداليتين المتغايرتين •

ونختم الكناية ببيان وجه أبلغيتها كما وضحه عبد القاهر بقوله (أما الكناية فان السبب في أن كان للاثبات بها مزية لا تكون للتصريح أن كل عاقل يعلم اذا رجع الى نفسه أن اثبات الصفة باثبات دليلها وايجابها بما هو شاهد في وجودها أكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء اليها فتثبتها هكذا ساذجا غفلا وذلك أنك لا تدعى شاهد الصفة ودليلها الا والأمر ظاهر معروف وبحيث لا يشك فيه ولا يظن بالمخبر التجوز والغلط (٥٦) •

فاذا كانت المعانى التى تثبت من خلال الصور الكنائية ملتبسة بأدلتها فان ذلك يفتح لها طريقا الى النفس تقبله وتقتنع به وتأنس اليه ولذلك كان ابراز هذه المعانى بأدلتها من أبرز الأشياء التى جعلت لها دعوقا بالنفس • ولذلك قال العلوى (فانها تفييد الألفاظ جمالا وتكسب المعانى ديباجة وكمالا وتحرك النفوس الى عملها وتدعو القلوب الى فهمها فان أوقعها في المدح كانت أرفع وأحسن وفي نفس الممدوح أوقع وأمكن وان صدرتها للذم كانت ألم وأوجع والى ذكر فضائح المذموم أسرع وأخضع وان أدخلتها من أجل الحجاج كان البرهان بها أوضح وأنور والسلطان بها أقدر وأقهر والافحام بها أشهر والتسليط أعظم وأبهر وان وقعت في الافتخار كان ضياؤه أسطع ومناره أعلى وأرفع وان كانت موجهة للاعتذار فهي الى سل سخائم القلوب أعجل وأقرب وبوحر الصدور وقل غرب غضبها أذهب وان صدرت للاتعاض كانت في المبالغة في النصيحة أنجع ولمرض القلوب أشفى وأنقع وان أردت بها جانب الاعتاب والرضا كانت بطيب انصحبة ولين العريكة أظفر وعلى الوفاء بلوازم الألفة أوفر (٥٧) •

(٥٦) دلائل الاعجاز ١١٠ وما بعدها •

(٥٧) الطراز ١/٤٣٥ •

ولا شك في أن جمال التصوير يكمن في هذه الاثارة المعنوية التي
تدخل النفس وتستولى على الحس ولذلك قال المرحوم العقاد (والجمال
في الفن معنوى لا شكلى وان الأشكال لا تعجبنا وتحل في نفوسنا
الا لمعنى تحركه أو لمعنى توحى اليه فالوظيفة في الحياة تسبق العضو
الذى يمثلها وما من شكل تراه الا يختلف موقعه في الذوق بحسب
اختلاف الدلالة التى يدل عليها والوظيفة التى يقوم بها (٥٨) .

هذا وبالله التوفيق وصلى اللهم وسلم وبارك
على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين
أجمعين

المراجع

أولا : القرآن الكريم :

ثانيا : المراجع العربية

١ - الاتقان في علوم القرآن

السيوطي

٢ - أسرار البلاغة

عبد القاهر الجرجاني

٣ - الاشارة الى الايجاز في بعض أنواع المجاز

عز الدين بن عبد السلام

٤ - الاعجاز البلاغى

دكتور / محمد محمد أبو موسى

٥ - الاقصاد عما تضمنه الايضاح من مباحث علم البيان

الأستاذ الشيخ / أحمد الحجار

٦ - بغية الايضاح

الأستاذ الشيخ / عبد المتعال الصعيدي

٧ - البرهان في علوم القرآن

الزركشى

٨ - البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري

دكتور / محمد محمد أبو موسى

٩ - البيان والتبيين

الجاحظ

١٠ - البيان بين عبد القادر والسكاكى

دكتور / على البدرى

- ١١ — البيان عند الشهاب الخفاجي
دكتور / فريد محمد بدوى أنكلاوى
- ١٢ — الترادف فى اللغة
حاكم مالك
- ١٣ — التصوير البيانى
دكتور / محمد محمد أبو موسى
- ١٤ — ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن
تحقيق دكتور / محمد خلف الله
والدكتور محمد زغلول
- ١٥ — الجنى الدانى فى حروف المعانى
تحقيق طه محسن
- ١٦ — حاشية السيد على المطول
- ١٧ — حاشية الانبأى على الرسالة البيانىة
- ١٨ — حاشية الصبان على الأشمونى
- ١٩ — حاشية الشهاب على البيضاوى
- ٢٠ — حاشية السعد على القسم الثالث من المفتاح
تحقيق دكتور / رأفت اسماعيل
- ٢١ — دلائل الاعجاز
عبد القاهر الجرجانى
- ٢٢ — ديوان النابغة
- ٢٣ — ديوان البحرى
- ٢٤ — ديوان المتنبى
- ٢٥ — ديوان البارودى
- ٢٦ — ديوان حافظ

- ٢٧ — ديوان شوقي
٢٨ — الرسالة البيانية
للصبان
٢٩ — روح المعاني
للألوسى
٣٠ — سر الفصاحة
لابن سنان الخفاجى
٣١ — شرح التلخيص
لسعد الدين لتفتازانى وآخرين
٣٢ — الصور البيانية وقيمتها البلاغية
دكتور / بسيونى عرفه رضوان
٣٣ — الصور الأدبية
دكتور / مصطفى ناصف
٣٤ — الطراز
ليحيى العلوى
٣٥ — العمدة
لابن رشيق
٣٦ — الكشاف
لجمار الله الزمخشري
٣٧ — المثل السائر
لابن الأثير
— مجاز القرآن
لأبى عبيدة
٣٩ — المطول
للتفتازانى

- ٤٠ — مفتاح العلوم
السكاكى
- ٤١ — الموازنة بين أبى تمام والبحتري
للأمدى
- ٤٢ — المنتخب من كنايات الأدباء
أحمد الجرجانى
- ٤٣ — من بدائع النظم القرآنى
دكتور / السيد حجاب
- ٤٤ — الوساطة بين المتبى وخصومه
القاضى الجرجانى

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	المقدمة
٦	منهج البحث ودوافعه
١٠ — ٧	مباحث الكتاب اجمالاً
١٦ — ١١	النظم وصور المجاز والكناية
١٩ — ١٧	نظم الحروف بين الرفض والقبول
٢٧ — ٢١	اللغة بين الحقيقة والمجاز
٣٠ — ٢٩	المجاز في اتجاهين
٣٦ — ٣١	موقع الاستعارة من المجازين
٣٧	المجاز اللغوى
٣٨	القيمة الجمالية للاستعارة
٣٩	حد الاستعارة
٤١	بين التشبيه البليغ والاستعارة
٤٣	موقف عبد القاهر من هذه القضية
٤٨ — ٤٦	عوامل جذب التركيب الى دائرة التشبيه
٤٩	الاستعارة التصريحية
٥١	أقسامها
٦١ — ٥٥	جمال التصوير في التصريحية الأصلية
٦٣	الاستعارة التبعية وتعليل تبعيتها والأصل المتبوع فيها
١٢٠ — ٦٥	الاستعارة التبعية : ألوان وفنون

الموضوع	الصفحة
الاستعارة بالكناية ومذاهب العلماء فيها	١٢١ - ١٢٩
جمال التصوير بالاستعارة المكنية	١٢٩ - ١٣٩
أقسام المكنية	١٣٩ - ١٤٠
الأغراض هي الحاكمة بنوع المجاز	١٤١ - ١٤٨
الاستعارة بين الترشيح والتجريد	١٤٩ - ١٦٥
الاستعارة التمثيلية	١٦٧ - ١٧٦
قرينة الاستعارة	١٧٧ - ١٨٢
الاستعارة بين الحسن والقبح	١٨٣
الشروط النصية ومناقشتها	١٨٣ - ١٨٨
الشروط التدوقية وبيئانها	١٨٩ - ١٧٩
تقسيمات المتأخرين في الميزان	١٩٩ - ٢٠٥
المجاز المرسل وصور تحليلية من علاقاته	٢٠٧ - ٢٢٥
أقسامه	٢٢٦
أولا :	
المجاز المرسل الأصلي	٢٢٧
المجاز المرسل التبعية	٢٢٧
ثانيا :	
المجاز المرسل المفرد	٢٢٨
المجاز المرسل المركب	٢٢٨
ثالثا :	
المجاز المرسل الكنائى	٢٢٩
المجاز المرسل التهكمى	٢٢٩

الموضوع	الصفحة
أضواء على بلاغة المجاز المرسل	٢٢٩ — ٢٣٠
الكناية :	
لمحة تاريخية عن تطور بحثها ومصطلحها	٢٣١ — ٢٣٥
الفروق الجوهرية بينها وبين المجاز	٢٣٥ — ٢٣٩
صور الكناية عرض وتحليل :	
أولا : صور تحليلية من كنايات القرآن الكريم	٢٤٠ — ٢٤٦
ثانيا : صور تحليلية من كنايات السنة المطهرة	٢٤٧ — ٢٥٠
ثالثا : صور تحليلية من كنايات الشعراء	٢٥١ — ٢٥٦
أثر الألوان في التصوير الكنائى	٢٥٥
اجمال الظواهر الأسلوبية للتصوير الكنائى	٢٦٤
مرجع المزية في صور الكناية	٢٦٤
المراجع	٢٦٧
الفهرس	٢٧١

رقم الايداع : ٤٤٨٧ / ٨٨

ترقيم دولى : ٩ - ٠٣٢ - ٤٧٨ - ٩٧٧

مركز كنف للدراسات
للعلوم الإنسانية
تربيع غالدريه الوليد - أمام فندق السلام